روايات الهلال

شطح المدينة

جمال الغيطانى



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٥٠٤ ديسمبر ١٩٩٠
جمادى الأولى ١٤١١ هـ
No.504 DE · 1990

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرون جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم أرسال عملات نقدية بالبريد .

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس : FAX 3625469

اسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش

لبنان ٣٠٠٠ ليرة ، الاردن ١,٥ دينار ، الكويت ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات ، المغرب ٢٠ درهما ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، الامارات العربية ٨ دراهم ، سلطنة عمان ٨٠٠ بيزة ، غزة والضفة والقدس ١,٢٥ دولار.

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص. ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

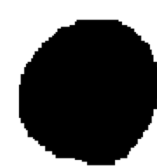
الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنان :
حلمـــى التـــونـــى

شطح المدينة

بقلم

جمال الغيطاني



دار الهلال

.. وسن للحيطان قبل توقف القطار مباشرة ، انتبه الى صرير العجلات وتباطؤ السرعة . تغير ايقاع الحركة وخشيته من المجهول .

خمس ساعات وعشر دقائق ، اندفاع متصل ، سرعة قصوى معدنية الضجيج ، لا تتغير وتيرتها الا عند عبــور المــدن ، والدنو من المنحنيات ، واختراق الأنفاق ، ومواضع الحذر التي تحددها العلامات وخبرة القيادة ، آثر ذلك ، اتصال رحلته مباشرة ، بدلا من قضاء ليلة فاصلة فى عاصمة يجهلها ، مستوجبة للحذر ، خلو من معارفه ، سمع وقرأ عن رواج أمر اللصوص بها ، استهدافهم للغرباء ، خاصة القادمين من الشرق ، ما هو فى هذه الديار النسائية عن موطنه ، عن اهيله ، وصحبه ، الا اجنبى .. غريب .

من المطار الى محطة السكك الحديدية المركزية رأســا ، لم يطل انتظاره . المدينة تقع على الطريق الرئيسى المؤدى الى الغرب . كل نصف ساعة يقصدها قطار ، انها المــدينة الوحيــدة بعد العاصمة الاتحادية التى تقف بها كل القطارات العابرة ، حتى الدولية منهــا المتجهة أو القادمة عبر الحدود .

جاء فى كتيبات ادارة تنشيط السياحة التابعة للبلدية أن ذلك لأهمية المدينة بالنسبة للموقع ، ولما تتضمنه من آثار قديمة ، وتراث معمارى ذى خصوصية وفرادة ، ولانخفاض نسبة الحوادث .

مصادر الجامعة ترجع السبب الى المركز العلمى ، الى وجــود الكليات العريقة التى درس بها مشاهير الأدب والفن والعلم .

يقوم واقفا ، مستوفزا ، متوقعا ما لم يعد له الأهبة ، فى غربته يتوقع دائما المفاجأة الضارة ، يخشى نزول أذى ما من حيث لا يدرى ، ما طبيعته ؟ ما كنهه ؟ ما مصدره ؟.

لا يمكنه القطع ، لا يستطيع التعيين أو التحديد ، انما يلــزم الحذر ، ويهيمن عليه التوجس ، ما يوده الآن انهاء وضعية المسافر . بلوغ الفندق فى اقصر وقت .

حقيبة السفر فى يده وتطلعه حوله يعنى انه لم يستقر بعد ، ان

نقوده مكتملة وجواز سفره ، وشئونه بحوزته ، يرغب الوصول الى مأواه ، الى مستقره المؤقت حيث سيمضي أيامه المعدودات هنا .
العنوان موضح ضمن خطاب الدعوة ، الحق انهم لم يغفلوا التفاصيل ، المواعيد ، الحفلات ، الندوات ، أوقات الفراغ موضحة حتى يمكنه اللقيا بمن يشاء . لكن .. بمن ؟.
ما من أحد هنا ، ما من معارف من قريب أو بعيد ، احتاط لأوقات الفراغ فاصطحب كتابين ليخلو اليهما في الليالى السبع المقدر له أن يمضيها هنا ، ينزل درجا يؤدي الى نفق يمتد تحت الأرصفة ، يتبع لافتات دالة على المخرج ، الى مكان عربات الأجرة ، طابور من العربات الصفراء ، حديثة الطرز ، يهبط السائق ، يرتدى سترة جلدية توحى بالملاكمة ، بالشروع فى منازلة ، يحمل الحقيبة ، يضعها فى خزانة السيارة الخلفية ، الركوب الى جواره غير ممكن ، لا تسمح قوانين البلدية بذلك ، ولم يدر السبب !. لا يمكنه رؤية العداد من مقعده ، نقوده محدودة ، لكن الأمر ضرورة ، لا مفر فى البداية ، يجهل الدروب والطرق ، اضافة الى اجهاد السفر ، وعبء الحقيبة ، وحذره .
الميدان فسيح ، قديم ، والمبانى عتيقة ، بالتأكيد .. تمت كلها الى ما قبل القرن التاسع عشر ، عجوز يرتدى معطفا بنى اللون ، يتوكأ على عصا ويمسك لفافة ، يتابعه بعينيه ، يلتفت ، لكن اتجاه العربة يحول بينه وبين الرجل متمهل الخطى ، بادى الرجفة ، لا يعرفه ، لا يدرى مقصده ، ربما يعبر الموضع ذاته فى هذه اللحظة .
يثق أن ملامحه العابرة جدا ستعلق بذهنه ، أول ما سيتذكره عند استعادة ايامه هنا ، عندما تولى هذه الأوقات كلها ويتحول المحسوس ، المرئى الى مجرد صور ، بعضها واضح ، ومعظمها مضبب ، باهت .
لكنه لن ينسى أبدا اللحظات الأولى ، الانطباع الأول ، رسوخ كامن ، وأيام عديدة مدثرة ، قوم متباعدون . ورائحة خفية تمت بشكل ما الى زهور صفراء ، دقيقة ، رهيفة ، تتوسطها دوائر صغيرة بنفسجية ، هكذا عين ، مع أن اليقين معدوم ، والأسباب منفية .
لماذا العجوز ؟ لماذا التفكير فى هذه الزهور ؟ واغصان جافة فى ممر حديقة لا وجود لها ، انما تتشكل عناصرها من انحاء شتى لا رابط بينها ، انها البدايات ، يشبه الوصول الى أرض لم يطأها بولوج العالم

الحسي لامرأة ، مبهر اكتشاف دقائق الخصائص الصغرى في المرة الأولى ، كل منهن عالم ، منظومة بمفردها ، أما طرق التعبير عن ذروة النشوة أو سلوك السبل اليها ، فلا تتشابه ابدا ، تماما كالبلدان والامصار والأراضي المعمورة ، ترى .. من القائل ؟ أغترب تتجدد ، تستعصي عليه الذاكرة المجهدة .

تدور العربة على مهل حول الميدان المبلط بحجارة صغيرة ، أعمدة الأقواس الحجرية ، قمم أشجار تطل من سور مرتفع ، درج رخامي مؤدي ، تمثال شيخ معصوب العينين يمسك قنديلا ، تتجه السيارة صوب الطريق المواجه لمبنى المحطة من الطرف الآخر ، يتوقف أمام المبنى الرابع ، يظنها اشارة مرور ، أو سبب ما ، لكنه يفاجأ بالسائق يشير الى مدخل قديم :

« الفندق الدولي »

هكذا ؟.

أقل من دقيقة ، مفاجأ بقصر المسافة ، حقا .. الغريب اعمى ولو كان بصيرا ، لو اطلع على الموقع لعبر الميدان ، لأدخر ما دفعه ، مبلغ مرتفع بالقياس ، فيما بعد عرف أن البداية مرتفعة القيمة ، مجرد فتح الباب ، بعد انتهاء مدته ، بعد انقضاء اقامته ، يوم سفره الى العاصمة ، بعد سبع ليال سيمضي مشيا الى المحطة .

يتطلع الى الواجهة ، نوافذ مستطيلة مؤطرة بزخارف جصية ، تتخلل الفراغات تماثيل صغيرة وزهور حجرية ، يجتاز الرصيف ، بلاطه مربع مصقول ، ما بين جدران البيوت والأقواس الحجرية ممر طويل ، يستعيد شارع محمد على ، لكن أقواسه أغلظ ، تهدمت في مسافات عديدة ، لا تتصل ، يبدو كفم تتخلل أسنانه فجوات غير منتظمة ، يستعيد مآذن مسجد محمد على فوق القلعة التي تسد الأفق ، والروائح المنبعثة من سوق الخضار والتي تطغى عليها احيانا رائحة الاسماك النفاذة ، خاصة في شهور الصيف ، يرى مقهى التجارة القديم طائر محلق ، ينزل على مهل حتى يحط فوق منضدة في الركن المعتم ، لسبب لا يدري كنهه ، لا يرى الا ملامح رجل تجاوز الخمسين ، نحيل ، يرتدي جلبابا ، يحتضن عودا مغطى بقماش أخضر حائل ، يحملق الى لا شيء حيث أيام منسية تتوالى خلالها صور غامضة باهتة ، لا يدري متى رأى الرجل ، متى قابله ، لكنه بالتأكيد لم يتبادل معه حوارا عندما أنس الى المقهى زمنا وأمضى أوقاتا طويلة

الى عازف كمان ضرير أنباه عن الحان وضعها لو أتيح لها الظهور لغطت على شهرة محمد عبد الوهاب ولنسيه الناس خلال اسابيع ، لكنه مواجه بعقبات صعبة في الاذاعة والتليفزيون نتيجة مبالغ ثابتة يدفعها كبار الملحنين الى المسئولين للحيلولة دون لقائه الجمهور الواسع ، الجمهور الواسع ، آه . . لو تتاح الفرصة ، لا يذكر من ملامح الضرير الا حجمه ، كان بدينا ، متهدل الكتفين .

يجتاز مدخل الفندق الضيق ، لا يتناسب مع رحابة بهو الاستقبال وحداثته ، مقاعد حادة الحواف ، خطوط مستقيمة ، لا يمت الداخل الى الخارج ، بعد الليلة الأولى ، في صباح أول أيامه أدرك استمرارية وذيوع التناقض ، الواجهة عتيقة وداخل المبنى حديث جدا ، تعرض الواجهة ثلاثة طوابق ، بينما يتكون البناء من ستة ، الحفاظ على الطابع المتوارث تنظمه قوانين صارمة ، واضحة ، لا تحتمل التفسيرات الخاطئة ، أو التأويلات سيئة القصد ، أو الحزق المتعمد ، المضمون جلى جدا ، احتفظ بالمظهر القديم ، أو البعه ، وافعل في الداخل ما شئت . ولأنها المرة الأولى التى يرى فيها وضعا كهذا ، اهتم بتتبعه ، بتقصيه ، بعد استقراره داخل الغرفة ، واتمامه طقوسه ، رص أوراقه بجوار السرير ، وعدة حلاقته فوق الرف الزجاجي في الحمام ، والملابس من الحقيبة الى الصوان ، أما جواز السفر وحافظة النقود فتحت الوسادة التى سيسند اليها راسه ، عندما خيره موظف الاستقبال بين ايداعه في المكتب او حفظه معه ، لم يتردد ، أوما براسه شاكرا . دسه في جيب جاكتته ، لا يمكنه مفارقته . شيئان لا يتخلى عنهما ، الجواز وبطاقة الطائرة ، يخشى دائما فقدهما ، وما يستتبع ذلك من متاهات شتى .

بعد أن رتب حاجاته ليضفى خصوصيته على الغرفة المشاع ، تمدد فوق السرير ، مستمتعا بوحدته في حيز غريب ، نائيا عن موطنه . التمدد على الظهر والحملقة الى السقف ومحاولة فرز الأصوات الشاحبة النائية ، عادة اكتسبها منذ اعتقاله قبل ربع قرن وحبسه انفراديا لمدة اربعة وأربعين يوما قبل تحويله الى السجن الجماعي . وتعذيبه لاجباره على الاعتراف بالتهمة الموجهة اليه والى صحبه ، قلب نظام الحكم من خلال انشاء تنظيم سرى يعتنق الأفكار الهدامة ويدعو الى الصراع الطبقي وينكر الأديان السماوية جميعها ، وذلك اثناء جلوسهم في مقهى يحتسون فيه البيرة ، واكواب الشاى

الافرنجي المعبأ في أكيـــاس من ورق رهيف ، ثم انتقـــالهم الليلي الى مقهى شعبى قرب مسجد الامام الحسـين ، وتبادلهم الحوار همسا معظم الوقت ، وبصوت مرتفع أحيانا للتمويه على مراقبيهم الأكفاء ، وتدخينهم المعسل اثناء ذلك .

على شفتيه تلوح ابتسامة ، سرعان ما تتوارى ليبدو تعبير أسـيان ممتزج بدهشة طفولية بكر ، يقوم واقفا ، يتناول الأوراق التى وجدها فى انتظاره ، مضطر لقضاء الليلة فى الغرفة ، يجهل المدينة ، كما انه متعب ، لن يطول سهره .

يتأمل الملفين الأنيقين ، الأول من الجامعة التى تستضيفه بمناسبة البرنامج الاحتفالى لمرور تسعة قرون على تأسيسها ، والثانى من البلدية معلومات شتى عن المدينة ، موقعهـا ، تخطيطهـا ، خصـائصها التاريخية والفنية ، المعمارية . أهم الصناعات والأنشـطة والمشاهير الذين قضوا فترات من حياتهم بها ، طالت أو قصرت .

الأمـور المرعية
عند إعادة البناء

.. الموضوع خلاق ، غير محسوم ، يتبلور خلال فترات ، يغيب حيناً لكن لحضوره وشيش دائم ، جوهره ذلك السؤال : أيهما أسبق. المدينة أو الجامعة ؟.

مؤلفات ، ودوريات ، وأبحاث ، ومناقشات ، وتصريحات علنية وأخرى خفية تتناول هذه النقطة ، ليس على المستوى المحلى ، انما فى اطار التاريخ القومى للبلاد الموحدة منذ قرنين لا غير .

تتداخل عناصر عديدة لتصيفه ، أو لتعيد ترتيب أولوياته ومحاوره وتفاصيله من فترة الى اخرى . ومن مرحلة الى مرحلة . وعند اى تغير يصاحب صعود طبعة ، او سيطرة فئة ، أو بروز عنصر معين . أو نشوء اتجاه سياسى جديد ، ليس بالضرورة داخل البلاد ، وانما فى الامم المجاورة ، أو ظهور مذاهب جديدة لكتابة التاريخ أو اعادة النظر فى مناهجه ، أو بزوغ نجم أستاذ جامعى كبير .

ما تم تدوينه فى العصر الامبراطورى ، مختلف عما تردد فى زمن الولايات ، لا يتفق مع التفاصيل التى ذكرت فى العصر الملكى ، وبعد اعلان الجمهورية تغير هذا كله .

لكن .. هذا الموضوع بالذات لم يتغير جوهره ، هل شيدت المدينة أولا ، أو ظهرت الجامعة ، ثم نشأ وضع يلبى احتياجاتها وتطور ليتخذ شكل المدينة ؟ ، والواجهات من الأمور التى تعكس القضية بوضوح .

أقدم المنشآت هنا مبانى الجامعة ، بعضـها يرجع الى السنين الأولى ، أى قبل تسعة قرون ، ومنذ تشكيل اول بلدية قبل بدء مجلس ادارة الجامعة ممارسته لمهامه ـ كما تؤكد مصادر البلدية ـ أو بعد ظهور اول كلية قبل نشوء المدينة ـ تؤكد الدراسات الجامعية ـ وثمة اتفاق على احتفاظ المدينة بطابعها القديم ، العريق ، هنا يقول رجال البلدية ان ذلك من صميم عملهم ، وأن اسلافهم هم اللذين ارسـوا التقاليد والأعراف والأصول والقوانين التى تكفل ذلك ، بل تكبدوا مشاقا ومخاطر ، ويضربون المثل بما جرى مع الادارة المركزية للتخطيط العمرانى فى العاصمة الاتحادية عندما شرع رجل أعمال كبير ، منبسط النفوذ ، فى بناء مصـنع بأحدى ضواحى المدينة ، اشترى عددا من

المبانى فى المنطقة القديمة لاعدادها كمقار للادارة ، بدأ فى الهدم ، عندئذ طلب منه مهندسو البلدية الالتزام ، الحفاظ على الواجهات القديمة ، والبناء كما يشاء خلفها ، غير أنه لم يعبأ ، بل هزأ من ذلك فى تصريح أدلى به الى مجلة أسبوعية ، واسعة الانتشار ، راديكالية الاتجاه ، وقيل انه دفع !. وصف ما طلب منه بأنه عبث . وقال ان الناس يجب ان تعيش فى مكان حقيقى يعكس روح العصر . وليس فى متحف.

رئيس البلدية انذره بالتوقف فورا . وسحب معدات الهدم ، وأعلن أنه سيرفع الأمر الى المحكمة الدستورية الاتحادية ، قبل أن يخرج المادة السابعة من دستور الولاية الى حيز التنفيذ اعمالا لحقه ، وهذا نذير بحرب أهلية .

ترددت شائعات عن محاولات رجل الاعمال رشوة القضاة وكبار المسئولين ، بل .. وبعض اعضاء المجلس البلدى . فوقعت الخشية لتعاظم أمر الرشوة فى البلاد .

خلال أيام المؤتمر سمع الكثير ، ودون التفاصيل ، أمر مهم عنده ، لتناقضه مع ظاهر ما يبدو له ، منذ وصوله الى المطار ، ثم ركوبه القطار ، وحتى استقراره في غرفته ، يبدأ كل شيء صارم الانضباط ، قاسى التقاطيع ، لكن ما أطلع عليه عكس ذلك ، فالرشوة فاشية ، لا يوجد ما يستعصى عليها ، يمكن الحصول على ادق المعلومات واشدها حساسية ، بما فيها مؤسسات الأمن العام . واجهزة مكافحة انشطة التجسس ، ولجنة اعادة كتابة التاريخ المشكلة عقب انتخاب رئيس الجمهورية الحالى للمرة الثانية .

كل له قدر معلوم ، حتى تكليف ضباط بالخدمة السرية لجمع معلومات دقيقة عن شئون المواطنين الحساسة ، كذلك الظهور فى وسائل الاعلام المركزية والمحلية مقابل مبالغ معينة يتم الاتفاق عليها مع مخرجى البرامج ومسئولى التخطيط المركزى ، اموال أخرى متفاوتة المقادير تدفع الى المصورين وعمال الاضاءة مقابل تركيز آلات التصوير على شخصية معينة ، أو زوايا خاصة تبرز جمال ممثلة ، او ملامح خاصة لرجل سياسة تبرزه قاسيا ، صارما ، قادرا على ارهاب خصومه ، ثمة امكانية لتخفيض الأعمار ، بعد تغيير شهادات الميلاد ، طبعا .. المستفيد هن النساء .

فى وقت مضى تحدثت المدينة عن طبيب أسنان مشهور ، وصدمته الحادة التى الزمته الاقامة حتى الآن بقسم الأمراض العصبية والنفسية بالمستشفى الجامعى ، ذلك أنه اكتشف بعد وفاة زوجته انها تكبره بخمس عشرة سنة ، بعكس الوثائق ، بدءا من شهادة الميلاد ، وحتى

بطاقة الاقامة ، وجواز السفر ، واوراق العضوية فى النادى الاجتماعي، اتضح له أنها دفعت أموالا لتغيير البيانات حتى تصبح رسميا أصغر منه بسبع سنوات . كان افتضاح الأمر بعد هذه السنوات الطوال ثقيل الوطأة ، فلم يحتمل .

كل شيء ممـــكن اذا ما دفع مقـــابلا ، مبـالغ معينة ، هدايا ، أو تسهيل الحصول على أشياء عينية ، كتمرير صفقات ، أو امتـلاك أراض عامة ، أو الوصول الى منصب .

ما توقف عنده ، ضرورة احتفاظه بنقود لدفعها مناصـفة بين رجال الجوازات والجمارك ، مع سلامة الاجراءات ، واستيفاء جميع الخطوات ، والالتزام بالمدة المحددة للاقامة ، وانعدام المخالفة كلية ، انما يتم الدفع لتيسير المتعارف عليه ، والا وقع التباطؤ ، ربما يطلب منه الانتظار حتى تتم مراجعة بعض البيـانات ، يتم تأخيره عمـدا ، حتى تقلع الطائرة ، يفاجأ بوقت لم يعد له العدة ، قرر اتخاذ الحيطة ، ومما أدهشه أن تلك الأمور معروفة ، متداولة ، حتى بالنسبة للأجانب القادمين لتمضية اجازات ، أو الاقامة فترات أطول .

جهة واحدة فقط تستعصى على الرشوة .

انها الجامعة ، ويضرب المثل دائما بابن أمير الولاية الغربية فى العصر الملكي ، عرض والده هدايا ثمينة تتضمن مجوهرات وتحفـا ثمينة ، لكن المجلس رفض قبوله بعد رسوبه فى الاختبـار الشخصى ، وتتردد وقائع أخرى مشابهة ، لكن بعض رجال البلدية يؤكـدون أن ثمة أشكالا أخرى ومسارب خفية ، ويضربون مثلا بأسـتاذ مادة الاعلام الموجه الذى ساعد زوجة رئيس الجمهورية السـابق وسهل لها الحصول على شهادة التخرج فى كلية العلوم الانســانية ، مقابل وعده بمنصب كبير ، ولكن رجال الجامعة يردون فورا ، اذ تقرر احالة هذا الاستاذ الى لجنة التأديب السرية . ولكن مصـادر البلدية تؤكد أن السبب مختلف ، ذلك انه ضبط فى دورة المياه الخاصة بالسيدات يمارس الجنس واقفا مع طالبة من الصف الأول .

والحديث فى هذا يطول .

نعود لذكر ما جرى من رجل الأعمال . اذ يبدو أن جهود البلدية لوقفه لم تنجح ، أو لم تلق صدى فى العاصمة الاتحادية ، عنـدئذ لوح رئيس المجلس بالمادة السـابعة ، وبعد أيام قليلة نفذ مضمونها بدون الاعلان عن العمل بها .

استنفر قوات الأمن المحلية واستدعى جميع أفرادها الذين خرجوا من الخدمة طوال السنوات العشر الماضية ، ورفع الراية القـرمزية

فوق البرج المائل ، وأمر باشعال تسعة وثلاثين شمعة رسمية على أضرحة الفلاسفة ، واضاءة شمعة كبرى تزن ربع قنطار تحية لروح رئيس الفلاسفة الذى لم تعرف مقبرته حتى الآن ، وما زال البحث جادا عنها ، ومثل هذه الشمعة لم توقد منذ أربعة قرون ، بعد وقوع الوباء الكبير فى القرن السادس عشر . . .

يبدو أن هذه الاجراءات لاقت أصداء طيبة وايقظت اسبابا طال ركودها ، فالمدينة كانت فى الأصل امارة مستقلة حتى القرن السابع عشر ، ثم جرى في القرن التالى توحيد البلاد بالقوة بعد حروب دامت اربعين سنة متصلة ، سالت خلالها دماء ، واستبيحت أعراض ، وثروات ، وتغيرت معالم ، الا أن المدينة القديمة عامة ، ومباني الجامعة خاصة لم يلحق بها ما جرى فى المدن الاخرى التى محي بعضها تماما ، ترجع مصادر البلدية ذلك الى حكمة رئيسها ، ودهائه السياسى الذى مكنه تجنب الأطراف المتحاربة ، أما وثائق الجامعة فتؤكد أن السبب الرئيسى يرجع الى مجلسها الاعلى ، عندما وجه نداء للحفاظ على الجامعة وتراثها الحضارى والانسانى ، نص النداء المكتوب على رق من جلد الغزال محفوظ في العاصمة ، معروض في مركز الوثائق الاتحادى .

هكذا . . لم تغلق الجامعة ابوابها واستمرت تستقبل الطلاب طوال زمن الحرب ، بعد انتهاء المعارك ، وضم المدينة الى الولاية ، وضم الولاية الى الاتحاد ، لم يفقد الاهالى احساسهم القديم بالتميز ، وحافظوا جاهدين على مظاهر شتى خاصة بهم ، مثل اللباس التقليدى ، وترتيب أصابع المقانق فى الطبق ، ونوعية النبيذ الذى ظل ينتج طبقا للاساليب القديمة فى براميل من خشب عتيق . رغم تطور وسائل الانتاج ، كذلك الموسيقى التقليدية والطقوس المتبعة فى الأعراس والجنائز . وكعك العيد الكبير .

هنا تشير كتب علم الاجتماع الى دور الجامعة وحضورها القوى ، وتقاليدها الصارمة فى الحفاظ على الطابع ، ومما اشتهر وذاع أمره واقبل الناس على رؤيته خاصة فى المناسبات ، أزياء الاساتذة والطلبة، والحفاظ على الازياء أصعب من واجهات المبانى ، العمارات لا تتغير الا عبر حقب متباعدة ، اما الملابس فتتبدل من سنة الى اخرى . بل . . من فصل الى آخر ، لكن نجحت الادارة الجامعية وحولت بعض العناصر الى شعار ودلالة .

خلال أيام اقامته الأولى وأثناء جلسات المؤتمر الاحتفالى دون العديد من الملاحظات المتعلقة بالأزياء ، خاصة الاقدم . .

لمحة وجيزة

.. بداية ، يجب القول ان ما يبدو اليوم طريفا ، غرائبيا ، عبثا على الراهن ، كان فى الماضى المندثر جزءا من سدى الحياة ولحمتها .

عندما اسس أول معهد ، نواة الجامعة ، وخصص لدراسة العلوم الدينية والشئون الفقهية ، والمعاملات الشرعية ، كان من الطبيعى أن يتماثل الزى وتتئد مع رجال الدين ، الا أن كبير الاساتذة رغب فى التمييز ، أضاف الى الرداء القاتم الفضفاض حزاما من القماش عرضه مقدار قبضة اليد ، أبيض للاساتذة ، أحمر للطلبة ، كذا غطاء للرأس •

زى ذكورى طبعا ، فلم يحدث أن قبل المعهد أناثا بين صفوفه طوال ثمانية قرون ونصف القرن ، فقط .. جرى التحاق بعض الطالبات منذ خمسين عاما عقب مناقشات حادة ، ومعارك لفظية ، وارجاءات متتالية ، ومحاولات شتى للتعطيل ، حتى انتهى الأمر بعد ثلاثين عاما من النقاش بقبول عدد من الطالبات اللواتى اعتبرن فى البداية متتسبات ، وخضعن لشروط صعبة ، واختبارات عديدة ، وتفاصيل الأمر مطولة ، لو أوردناها لفطت وأملت .

منذ اربعين سنة وقع خلاف محوره الحزام الذى أضيف فى الأزمنة البعيدة ، المصادر وكتب الرحالة تؤكد أنه من الحرير ، بعض الباحثين اثبتوا انه صنع من الجلد المدبوغ . يتوسطه قفل من نحاس أصفر محكم ، وفى قول احدهم ، نحاس أصفر ..

بعد استمرار النقاش اعلن المجلس الأعلى عن وجود زى كامل فى قبو المخلفات الجامعية ، تقرر ترميمه وعرضه فى المتحف المتاح للجميع والمحتوى على نفائس جمة ، لكن .. لم يتم ذلك حتى الآن ، وقيل فى سبب ذلك أن الجلباب ولوازمه موجود فى نقطة عميقة من القبو تختلف فيها الرطوبة ودرجة الحرارة اختلافا جما . ولابد من عمليات دقيقة لحفظه عند تعرضه للهواء العادى ، مقال واحد ظهر فى جريدة البلدية الاسبوعية شكك ولمح الى احتمال عدم وجود الزى ، ولم يعلق أحد ، لكن المقطوع به ، المفروغ منه ، وجود أشياء نفيسة ، نادرة ، بعضها يعد من الأعاجيب ، داخل القبو .

انه شق طبيعى تحت الارض يتشعب الى عدة ممرات أوسعها

شبه دائرى ، ثم يبدأ منه نفقان يقال انهما غير مستكشفين الى النهاية لانعدام الهواء الصالح للتنفس عند مسافة معينة ، ولارتفاع درجة الحرارة : يضم كنوز الجامعة المتوارثة ، بدءا من المخطوطات النادرة. والألواح المنقوشة بلغات منقرضة ، وكراسات قديمة بالقلم الغريب ، والاشكال الهندسية التى تؤول وتفسر ، وأدوات الكتابة المندثرة ، وأول كتب طبعت ، ورسائل ملوك وسلاطين وأباطرة ، وسيدات مشهورات وأدباء كبار ، ورسائل شخصية لاساتذة او طلبة ، أو بعض اهالى المدينة ، عاشوا فى حقب مختلفة ولكن أوراقهم الآن قريبة متجاورة ، كذا دفاتر حوليات ، ويوميات تجار ، وفهارس ، ومخطوطات كتب على ورق البردى القديم ، حتى الهدايا التى تلقتها الادارة عبر تسعة قرون من الحكام والاثرياء والمؤسسات ، والهيئات الدينية .

يؤكد العارفون انه من المستحيل تماما الاحاطة بما يحويه القبو حتى وان زعمت الادارة وجود سجلات دقيقة ، متوارثة ، دون فيها كل شيء .

من فترة الى اخرى ، وفى مناسبات محددة . يجرى عرض نوعى، مرة للأوسمة التى تلقاها رجال الجامعة البارزين . أو شهادات التقدير من الهيئات العلمية المماثلة ، أو للتحف النادرة ، او لمخطوطات مشاهير قضوا سنوات هنا كدارسين ، توجد مطبوعات صدرت فى نهاية القرن الماضى توضح بعض محتويات القبو ، من ذلك مجلد ثمين يتسابق هواة السجاد والمتخصصون فيه الى اقتنائه مع ندرة نسخه الآن ، وارتفاع السعر ان وجدت ، وآخر عن المصابيح اليدوية ، سواء المهداة ، او تلك التى علقت على مدى قرون عدة فى قاعات الجامعة وحجراتها ، وثالث عن المحابر الفضية ، والنحاسية ، والمصنوعة من عاج الفيلة الهندية ، ومن حجر أسود صلب لا يوجد الا فى جبال الأنديز ، ورابع عن المنمنمات الشرقية ، ويضم اقدم صور معروفة لابطال شاهنامة الفردوسى ، وقصة فيرهاد وشيرين ، والزير سالم ، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذى يزن ، ومجلد خامس رسم لوحاته فنانون مجهولون صطحبهم سلاطين الاتراك سرا فى حملاتهم العسكرية ، وسهراتهم . وخلواتهم ليرسموا ملامحهم ، وليمسكوا بلحظاتهم الغانية .

لم تنشر هذه اللوحات من قبل خشية غضب بعض رجال الدين الاشداء ، المتعصبين ، وان كان الأمر صار الى غير ذلك فيما بعد .

هذه المجلدات تطبع بأعداد محدودة جداً ، وكثير منها الآن في ندرة المخطوطات ، منذ عدة سنوات بيع في صالة احدى المزادات الشهيرة نسخة من مجلد صدر في منتصف القرن الثامن عشر يحوى صورا وسجلا بانواع السيوف النادرة التى تقلدها رؤساء الجامعة عبر ازمنة مختلفة عند افتتاح المراحل الدراسية ، بيع بمبلغ تجاوز المليون، تناقلته الصحف ، لكن .. لم تعرف شخصية المشترى ، قيل انه ثرى ، وتردد انها هيئة ما ، واكد البعض انه متحف عالمى ، لكن .. لم يثبت شيء .

تغييرات ضئيلة جرت على الأزياء خلال فترات متباعدة ، لا يلحظها الا الباحث المدقق ، عدا تلك المرتبطة بضجة كبرى أو حوادث استثنائية . مثل الدوائر الثلاث وتلك مرتبطة برداء رئيس الجامعة ، خاصة الذى يظهر به عند حفل التنصيب ، وافتتاح العام الدراسى ، وإختتامه ، غطاء رأس مرتفع ، بنى اللون ، مقبب ، تتقدمه ريشة كتابة من النوع العتيق ، فوقه عباءة رمادية تنسدل الى ما بعد الركبتين مقدار شبر واحد ، تتخللها ثلاثة خطوط حمراء ، يتوسط كل منها عند الخصر ثلاث دوائر مذهبة ، تحمل الحرف الاول من اسم الجامعة ، انه الاول أيضا من اسم العاصمة المركزية .

مشكلة كبرى حول تلك الدوائر ، لا تزال تفاصيلها تروى ، يقال ان أول رئيس اتحادى كان شخصا مهيبا ، صارما ، قاسيا فى معاملاته ، ضاريا فى عدائه لخصومه حتى انه صفى الكثيرين خنقا بيديه ، كان كثيف اللحية ، عظيم الشارب ، محبا للنساء ، مكثرا من أكل العصافير المحشوة بالفستق ، ونوع صغير من السمك لا يعيش الا فى المياه النقية جدا المتوافرة فى برك طبيعية فوق مرتفعات جبلية شاهقة فى امريكا الجنوبية ..

فى المتحف القومى لوحات عدة تسجل ملامحه فى مراحل عمره المختلفة منذ بدء ظهوره فى حياة البلاد السياسية . وضعت عشرات الكتب فى سيرته ، واعماله ، ومعاركه ، تطرق بعضها الى ادق شئونه، حتى ذكر احدهم أن التحاليل العلمية التى أجريت على ثلاث شعيرات من راسه فى مختبرات كلية العلوم اثبتت اختلال غدده وضعفه ، أما ما أشيع حول فحولته فالغرض منه اضفاء الهيبة . امتعض رجال البلدية ، واعتبروا ذلك محاولة لتشويه التاريخ القومى للبلاد ، همس البعض بوجود صلة بين ما اعلن والدوائر الذهبية .

بدأ الأمر عندما أصر على اضافة رموز الدولة الى المؤسسات الاقليمية حتى لو تمتع بعضها بذيوع الصيت ، وسمعة دولية ، اختار بنفسه هذه الدائرة الذهبية على أن تتوسط العلم ، ويوضع ثلاث منها ، على عباءة رئيس الجامعة .

رئيس الجامعة كان عالما ، متمكنا ، راسخا ، قوى الحضور ، موفور النظر . تجاوز التسعين بذهن لم يهن ، ومهابة ، أمضى فى منصبه العلمي أربعين سنة متصلة ، لم يفارق خلالها أسوار المنطقة الجامعية ، لكم دعى الى مؤتمرات ، الى احتفالات ، ومناسبات ، لكنه لم يستجب قط ، سعى اليه القصاد واصحاب المسائل من كل فج .

عندما بلغه القرار ، أطرق مقدار ساعة ، ثم قام الى مقر خلوته واحتجب يومين ، لم يره أحد ، لم يقابل انسانا ، ثم خرج معلنا دعوة المجلس الأعلى ، المكون من عمداء الكليات والاساتذة المتخصصين وأقدم خريج محلى على قيد الحياة .

قال باختصار دال : انه لن يسمح أبدا باضافة هذه الدوائر ما دام حيا ، سابقة خطيرة لو مرت ستفقد الجامعة استقلاليتها . ستهدر تقاليد عريقة أفنى خيرة أبناء الجامعة أعمارهم للحفاظ عليها وتأصيلها . والعبور بها من زمن الى زمن .

جرى الاجتماع فى حال شديد من التأثر ، حتى ان بعض الحاضرين ذرف دمعا ، ، طبعا كل مادار فيه بلغ رئيس الدولة ، تعاظم غضبه ، أرسى العزم وأكد التصميم . قال ان اضافة هذه الدائرة قرار سيادى ، لم يصدره للمناقشة ، انما للتنفيذ ، واذا لم تقع الاستجابة سيغلقها الى الأبد .. نعم ، سيوقف أعمال الجامعة تماما ، ولو هب العالم كله ضده . سيحول مقاراتها الى متاجر لبيع الأقمشة ، والأطعمة الطازجة ، بعض ممن يحيطون به وعرفوا بالقدرة على مناقشته اشاروا عليه بتجنب الصدام والسعى بالحيلة . أما الاجراءات العنيفة فستضر الدولة الجديدة .. ولا داعى !.

من هنا بدأ الدهاة سعيهم .

كان فى المجلس الأعلى استاذ مشهور فى علم المنطق الأرسطى ، عنده شهرة ، ولأمره ذيوع ، تجاوز السبعين بعامين ، وعنده تطلع الى المنصب الرئاسى ، مضمر لغيرة قصوى ، وقلق عصبى ، يخشى أن تدركه المنية قبل ادراج اسمه بين من تولوا أمور الجامعة والذين

تصطف اللوحات الزيتية مبرزة ملامحهم فى القاعة الرئيسية ، تلك عادة قديمة مرعية ، من مراسيم التنصيب رسم لوحة زيتية تعلق فى اطار خشبى قاتم يخلو من الزخارف .

كان هو المرشح الأول ، صحيح أن ثمة انتخابات تجرى ، لها طقوس واصول مرعية ، غير أنها شكلية طبقا للعرف ، دائما هناك شبه اتفاق غير معلن حول شخص بعينه .

صحيح أن الرئيس معمر ، طاعن فى السن ، لكنه يبدو صحيح البنية ، غير ذى علة ، يتبع نظاما غذائيا غريبا ، اذ يتناول فى افطاره ، حبة ثوم ، ونصف كيلو بصل مشوى ، وفى الغداء طبق خضار مسلوقا ، وفى العشاء كوبا من عصير التوت البرى ، لا يقرب اللحم ، او البيض ، أى شىء حى يمت الى البر أو البحر ، يغطى راسه بطاقية من صوف الغنم المغزول يدويا ، ويتمدد فوق لوح خشبى مغطى بملاءة رقيقة ، ثم يروح فى سبات عميق لا يوقظه منه قرع الطبول ، فى الصباح الباكر وبعد اطلالة قرص الشمس يرى فى الحدائق الفسيحة المحيطة ماشيا لمدة ساعة ، الدلائل تشير الى عنفوانه ، وانه سيتجاوز المائة ، انه الشقيق الاصغر لسبعة ذكور عاش اقلهم مائة وعشرين سنة .

متى سيعلو أستاذ المنطق الارسطى كرسى الاستاذية اذن ؟. انه معتل ، نحيف ، رقيق البنية ، غير قادر على مضاجعة امراة منذ ثلاثين عاما ، كان فى ضيق ، ولم يخف ذلك أحيانا ، غير أن البعض يذكرون أسبابا أخرى ربما تبدو موضوعية . ذلك ان رئيس الجامعة كان منتميا الى أساتذة العلوم العملية . وهؤلاء يشغلون المنصب الرئاسى منذ قرن ، ادى ذلك الى تذمر خفى بين أساتذة العلوم النظرية ، هؤلاء يعتبرون أنفسهم أجدر ، ولهم حجج شتى ، منها أن الجامعة بدأت بالكليات النظرية ، المعهد الدينى ، ثم الفلسفى ، ثم الأدبى ، وتحولت المعاهد الى كليات . أما كلية الفلك فالنقاش حولها لم يحسم ، عملية أو نظرية ؟. اما التاريخ الرسمى فيعتبر الطب أول كلية عملية .

من حججهم أيضا أن تخصصاتهم تسمح لهم باتقان فنون الادارة ، لكنهم هم أنفسهم كانوا على خلاف فيما بينهم ، ذلك أن شقاقا قديما بين كليات الفلسفة والآداب والتاريخ من ناحية ، وبين كليات العلوم السياسية والادارية والتجارية . والاسباب عديدة ، لكنها لم تصل درجة الحدة قط ، حتى الخلاف بين النظريين والعلميين ، ذلك إن الصراع الأعم بين البلدية والجامعة .

المهم .. جرى اتصال ما ، غير معروف حتى الآن ، بين أستاذ المنطق الأرسطي وبين رئيس الدولة الاتحادية . تم خفية طبعا ، ولم يعرف أحد ماذا جرى فيه ؟ ، ثم تفجر الموضوع أثناء الاجتماع الشهرى الموسع . فيه يتناول الاساتذة العشاء معا مع طقوس معينة ، قديمة، يتم تقديم أنواع معينة من الطعام مطهية فى أوان فخارية قديمة ، مع أصناف من النبيذ المحلي غير الموجودة خارج الجامعة ، عند البدء فى تناول كل طبق تتلى فقرات من نصوص أدبية مجهولة المؤلف ، بعد تناولهم العشاء يطرقون فى أحاديثهم موضوعات شتى .

ابدى أستاذ المنطق الارسطي وجهة نظر تهون من اضافة الدوائر الذهبية الثلاث الى العباءة الرئاسية ، التفت الحاضرون ليروا وقع الكلمات غير المنتظرة ، رأوا رئيسهم الصارم مرهوب الجانب يتطلع الى نقطة غير محددة بعينين زجاجيتين .

استمر أستاذ المنطق مشيرا الى لا معقولية تعريض وجود الجامعة واستقلالها للخطر مقابل ثلاث دوائر وهمية ، توقف منتظرا رد الفعل، الا أن الصمت الغريب ، المريب ، استمر ، عندئذ قال باختصار انه لا يرى ضررا فى اضافتها ، ثم قال ، يجب الافلات من أسر الماضى المندثر .

احتدم النقاش ، طق الخلاف ، ملت الأصوات فى اجتماع لم تكن تسمع فيه الا همسا ، العجيب .. ان الرئيس لم يفه حرفا ، انما بقى قابعا فى مقعده عند مقدمة المائدة البيضاوية ، الشهيرة ، والتى ظهرت فى العديد من لوحات فنانى المرحلة الكلاسيكية .

يذكر أحد الاساتذة أن صمته بدأ لحظة اثارة الموضوع ، لم يسمع صوته فيما تلا ذلك ، ارجعوا ذلك الى صدمة ماحقة نزلت به ، لم يتوقع أن يسفر الشقاق كما جرى هذه الليلة ، هو من اعتاد تسيير الأمور باشارات من ملامحه أو نظراته بدون لفظ . قال آخرون انه أدرك بوضوح ادبار أمره ، وأن ما كان لن يكون ، لذا لم يتحمل فسكت ، ولما طال صمته ونظره الى نقطة غير محددة ، وشرد بوجوده الحسى ، فلم يعد يره أحد ، اجتمع المجلس الاعلى وعزله ، تفاصيل ما جرى مبهمة ، ترد فى مصادر الجامعة من خلال عبارات عامة ، بشكل ما ، كان الأمر مثيرا للخجل ، فلم تحدث اقالة قسرية الا مرة واحدة منذ خمسة قرون ، وتفصيل ذلك مثير .

اذ تولى أمور الجامعة عالم كبير بمقاييس عصره ، اشتهر أمره فى

علم الفلك ، والأرصاد وتحديد الأنواء ، له معرفة بفن الخط ويعض آثاره موجودة الآن فى القبو ، وله فى هذا المجال تقانين عجيبة ، منها انه كتب أعمال شكسبير كاملة على حبة أرز ، وخط الكتاب المقدس على بيضة حمامة مفرغة ، كان خبيرا بأنواع السفن ، وطرق بنائها ، هاويا لصناعة نماذج دقيقة تثير الاعجاب ، مع أن المدينة فى منطقة شبه جبلية ، والبحر ناء ، بعيد ، لم يفارقه حلم الرحيل يوما ، اتقن جرفا عديدة مارسها فى فراغه ، منها تجارة الخشب ، والتطعيم بأنواعه ، الفضة بالذهب ، والنحاس بالفضة ، والخشب بالعاج ، وتقش الفولاذ .

ومن آثاره المعروضة بالتحف الصغير ، قفل بدون مفتاح ، يغلق ويفك وفقا لحركات معينة ، وعد هذا من الأعاجيب فى وقته ، عرف بقوة ذاكرته ، اذا قرأ كتابا حفظه ، واذا سمع قصيدة شعر مرة تلاها ولو بعد عشر سنوات ، يذكر الملامح وان التقى بصاحبها بسرعة . كما اشتهر بقدرته الفائقة على اجراء العمليات الحسابية بما فيها أعقد عمليات الضرب والجمع والقسمة شفويا دون استخدام قلم .

فى السادسة عشرة قام بشرح كتاب « الجديد فى الحكمة » لابن كمونه فى عشر مجلدات ، ترجم الى عشر لغات منها الأوردية ، ثم وضع شرحا للشرح فى خمسة عشر مجلدا لكنه لم يطبع ولم يترجم . ويقال انه عقد العزم على اعداد شرح لشرح الشرح ، وضع خطته بالفعل . والأصول لا تزال محفوظة ، لكن لم يمتد به الوقت ، بعد أن جرى له ما سنذكره .

من آثاره أيضا قاموس للغة الأكدية القديمة ، لم يستعن بمرجع واحد أثناء اعداده . بوبه وقسمه وصنفه ورتبه من الذاكرة . هذا قاموس لم يظهر قبله ولا بعده ، وما زال مرجعا لا قرين له ، اتقن من اللغات القديمة ستة عشرة منها الأشورية والحميرية والسريانية القديمة ، والمسمارية ، كما برع فى علم الطب ، وتوصل الى معرفة مسار الدورة الدموية فى الأذن الوسطى ، كما وضع تبسيطا لكتاب الحسن بن الهيثم « المناظر » والذى قام فيه العالم العربى القديم بتشريح العين الانسانية . ورسم مكوناتها ، ومسار الدماء داخلها ، تؤكد المصادر أنه كان على وشك التوصل الى تحليل التركيب الطيفى لألوان قوس قزح خلال الدقائق الخمس الأولى بعد نزول المطر

مباشرة ، لكن ما جرى اعاق هذا كله ، ودفع البعض الى التشكيك فيما تركه من آثار متنوعة ، مختلفة ، طرقت كل علم . واحاطت بشتى الفنون .

لا تزال سيرته تدرس حتى الآن لطلاب الصفوف الأولى وتعد مثالا لما يجب ان يحتذى به الساعون الى مراتب العلم المختلفة ، وتركز على مرحلة التكوين خاصة التى يشرح فيها كيف بدأ تحصيله العلم فى سن مبكرة ، واستيعابه العلوم المختلفة ، وشعوره الحاد بضيق الوقت ، وقصر العمر عن المطلوب ، وشح الزمن ، مما دفعه الى عمل متصل لمدة اربع وعشرين ساعة احيانا ، ولجوئه الى صب الماء البارد فى أيام الشتاء عندما يوشك أن يدركه الوسن .

فى فتوته لم تتجاوز ساعات نومه ثلاث ساعات ، بعد العشرين أربع ساعات ، وبعد الاربعين خمسا ، الا أنه بعد الستين عرف الأرق ، حتى بلغ به الأمر انه لشدة تعبه أحيانا لا يمكنه النوم !.

يبدو أنه انعدام الوسن مع تقدم العمر وضعف البنية الفاعلة ، واسباب شتى ، اوصله هذا كله الى ظهور أعراض تجاهلتهاالسيرة الرسمية المقررة ، لكن تشير اليها حوليات البلدية والتى تضم تراجم عديدة لأساتذة الجامعة باعتبارهم من مواطنى المدينة ، وبالطبع مغايرة تماما لما تذكره المصادر الجامعية .

بدأ الأمر بشرود مستمر ، متصل . خلال ساعات الدرس ، ثم ضحكه المفاجىء فى مواقيت الصلاة ، ثم تغير مشيته الوقور ، محددة الخطى ، وتثنيه وتمايله عند اجتيازه الفناء الرئيسى ، ثم محاولته التلصص ليلا على بيوت المدينة ، والتسلل الى حمام النساء الجماعى نهارا ، فى الليل يخصص للرجال ، أعتبر من مفاخر البلدية وانجازاتها الهامة وقتئذ ، احد اساتذة الجامعة ، بكلية الهندسة قال انه لولا اسهام الجامعة فى بنائه لما ظهر على خريطة المدينة .

تخفى فى ثياب النساء ، دخل نهارا ، ثم خلع ما يرتديه وراح يجرى وراءهن مثيرا الذعر . طبعا .. رويت هذه الواقعة بصيغ شتى ، واعتبرت من اسوأ المحن ، حتى أن وفدا من كبار الاساتذة توجه الى البلدية واجتمع برئيسها لمدة سبع ساعات ، تم الاتفاق على ابقاء عدد من التفاصيل سرا على اساس أن شيوعها سوف ينال من سمعة الجامعة ، وربما أدى هذا الى توقف مجيء الطلاب الاثرياء

من الدول الاخرى ، وهؤلاءيحدثون رواجا فى المدينة ، ان اتفاقا تم التوصل اليه ، لكن .. بقيت تفاصيله غامضة .

المهم .. تم عزل رئيس الجامعة لاول مرة وهو على قيد الحياة ، حبسوه فى بناء قديم مهجور ، لا يعرف احد من شيده ، او اقام به ، ولاتزال آثار من جدرانه باقية ، اذ أقيم مكانه المستشفى الجامعى الذى بدأ نشاطه منذ القرن السابع عشر . وما زال محور خلاف أساسى ، فالبلدية تطالب بالاشراف عليه لغموض ما يجرى داخله ، وهذا أمر يطول شرحه ، الجامعة تؤكد تبعيته المطلقة لكلية الطب التى لا يتوقف أساتذتها عن اجراء الابحاث والتجارب .

أن قرونا خمسة مرت على عزل رئيس الجامعة ، رغم طول الحقبة فان الاستفسار حول مرضه مما يثير ضيق الاساتذة حتى الآن . انها السابقة الوحيدة قبل عزل الرئيس العجوز الذى لم يحتمل امتداد العمر به حتى يرى بعينيه اضافة الدوائر الثلاث الى العباءة الرئاسية؛ امتزل بغرفته ، ولم يخرج منها الا محمولا ، هامدا .

حكايته تروى الآن لافواج السائحين ، أحيانا يبتسم البعض عندما يصغى الى تفاصيل الأمر ، ولكنه عندما ألم به تساءل ، من قال على مسمع منه ذات يوم بعيد ان الموت قرار داخلى ، وان الانسان يقرر فى لحظة معينة من مسيرته البشرية ، لكن تختلف المدة ، يبدأ الاحتضار عند البعض فى الثلاثين ولا يكتمل الا بعد السبعين او الثمانين ، البعض يمضى فجأة اذا وقع خلل بعالمه ، لكن المفروغ منه ، المقطوع به ، أن لكل أجل كتاب ، ولكل عمر مقدار مجهول ، لا يزيد أو ينقص عما هو مقدر .

ما جرى لرئيس الجامعة بسبب اضافة الدوائر الثلاث ذكره بصاحب المقهى القديم ، المشهور فى مدينته ، وكيف قضى ؟ . تعجب للتشابه بين العناصر مع تباعد الأمكنة واختلاف الأزمنة ، ولا بأس من ذكر الامر لانشغاله به ، واستعادته له ، وتأمله فيه ، اذ أمضى فى زواياه أوقاتا عندما أدركه مكتملا قبل نقصانه ، عندما أقام سنين عدة على مقربة ، لكم حن الى استعادة ولو الى لحظات دقاق من توهج مشاعر أو ترقرق صفو ، أو طيب مزاج بصحبة آخرين احبهم وأحبوه ، ثم ولى عنهم وتباعدوا عنه لأسباب .

لكم حن وهفا مع اكتمال ادراكه أن ما فات لن يعود ، وما مضى لن يرجع ، أحيانا اذ يستعيد لحيظات حميمية يتعجب ، يتساءل :

احقا كانت ؟. احقا اجتزتها بجسـدى هـذا ؟ هل يمت حضـورى المحسوس الآن الى ما كان منى ؟.

تبدو ازمنته المستعادة بالمخيلة كأنها تخص غيره ، لكنها تلح عليه، تتكأكأ على ذاكرته ، وتلغ فى الأوردة المؤدية الى غرارة قلبه خاصة عند اغترابه . وسعيه الى ديار بعيدة عن أصل نشـأته ، حيث تقل الصحبة أو تنعدم الرفقة ، فيسعى ولا يستقر ، يمضى ولا يقيم الا فيما لم يعد موجودا .

المقهى وصاحبه ...

.. اختلف عامة الناس والمتخصصون فى عمره ، قدره البعض بمائتين ، وزاد آخرون قرنا كاملا ، وأثبت أجانب أنه كان قائما زمن الحملة الفرنسية ، ثمة لوحة تصور جانبا منه فى كتاب وصف مصر ، الذى أعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوى ، وأن بونابرت زاره ، واحتسى مشروب الحلبة وأبدى اعجابه بنكهته .

فيما بعد اشتهر المقهى بالشاى الأخضر المعطر بالنعناع ، وهذا من عناصر الحنين القوية عند صاحبنا خلال اغترابه ، مهما اختلفت المدة ، طالت أو قصرت ، بمجرد عودته ، يمضى الى ركنه الذى اعتاد الجلوس فيه ، يبادر الى احتساء كوب أو اثنين ، ليس الشاى مقصودا لذاته ، انما سعيا الى ما يثيره التوحد من استدعاء للحظات مندثرة ، وأخرى لا تزال فى رحم الغيب ، تهدئة لاتقاد الجذوة ، ودرءا لعصف الحنين . كثيرا ما ردد : انه مأوى وليس مقهى . موقعه فى الحى القديم ، القادمون الى أضرحة الاولياء الصالحين يقصدونه ، خاصة يوم الجمعة ، منهم أهل الريف ، كذا طلبة العلم وشيوخهم ، هذا اليوم بالذات يصعب وجود مقعد خال حتى ما قبل المغيب .

أزمنة شتى تتابعت ، كل منها ترك بقايا أو أودع آثارا علقت بالجدران ، أو رصت فوق الأرفف ، أو تدلت من السقف ، فمن ذلك المرايا الضخمة ، بلجيكية المصدر ، ذات الأطر المدججة بزخارف اغريقية ، أهداها أمير من العائلة المالكة فى نهاية القرن ، اعتاد تدخين النرجيلة فى مقصورة خصصت له ، نهاية الممر ، قرب الزهور الصناعية التى أطلعت عليها . وتوقفت أمامها الامبراطورة أرجينى ، عندما ثقل جسد الأمير ، وقلت حركته ، ذهب المعلم الكبير الى قصره المطل على النيل لاعدادها له ، يوميا يجىء خادم حبشى يقود عربة ذات جوادين أصيلين ، مرة فى الصباح ، ومرة قبل العشاء ، يصحب المعلم الذى يمضى مباشرة الى الحجرة الخاصة ، حيث يوقد الجمرات ، ويضبط التنباك ، ثم يشعل الدخان بأنفاسه القوية حتى تسلس ولا يرهق الأمير ، كانا فى البداية يتبادلان كلمات قليلة ، ثم طالت خلوتهما،

وحدثه الأمير عن ادق شئونه ، وأفضى بأسرار جمة ، يقال ان المعلم الكبير كان يخشى مجرد التفكير فيها ، فما البال بترديدها او الافصاح عنها ، حتى بعد دخول الامير مرض المـوت ، ورحيله ، يتعلق الأمر بدقائق ، بعضها يخص اميرات من العائلة ، لم يفض قط .

فى المقهى أوان خزفية من صنع تركيا ، وبلدان أواسط آسيا ، وسيوف اغمدت منذ ازمنة طويلة ، وقوارير عطور نادرة من زجاج ملون . وسجادة صغيرة من حرير ، عليها رسم مشكاة تطل منها زهور، صنعت فى هيرات ، أهداها ملك الأفغان المنفى قبل عودته الى بلاده منتصرا ، علقت الى الجدار بحيث تعلو المكان الذى اعتاد صاحب المقهى الجلوس فيه ، ولم يغيره منـذ ستين سـنة ، وقطع خشب مخروط توقف صنعها لبطلان اليد العاملة التى كانت تبدعها وتسويها، فمن ذلك دولاب صغير يعلق الى الجدار ، تتخلله زوايا صغيرة من العاج ، وأرفف من الخشب فمصنوع من شجر ذى رائحة لا تنفـد ، قوية ، تعبق فراغ المقهى كله خاصـة فى اصباح الايام الشـتوية المشمسة ، تنبعث هادئة ، راسخة ، تطغى على سائر الروائح ، حتى التمباك المحترق على مهل بجمرات الفحم ، تبعث راحـة وترسـل خدرا ، العجيب أن هذه الرائحة اختفت تماما من الخشب بعد رحيل ابن المعلم الكبير ، آخر ملاك المقهى ، ولم يفسر احد سر ذلك .

احتوى المقهى ايضا على أوان نحاسية منقوشة بالزخرف الدقيق، بعضها صنع لاحتواء الماء ، أو لترص فوقه الأكواب والأوانى ، ومن ذلك صينية منقوشة ، زخارفها مورقة ، متفرعة ، متداخلة ، تتغير مع حركة الناظر ، فيصبح المثلث دائرة ، والخـط المجرد مورقا ، والنجمة هلالا ، حددت الزخارف بخيوط الفضة المسوسة بالذهب ، وعدها البعض من العجائب ، هذه الصينية آخر ما أنجزه واحد من قدامى الصناع اشتهر أمره ، لم يكن يعمل الا قبل غروب الشمس بساعتين ، وبمجرد غوص قرصها عند الأفق يتوقف أيا كان الوضع الذى يعمل فيه ، حتى اعتبر بعض معارفه والمحيطين به توقف يده عن طرق السطح النحاسى أو المعدنى علامة على تمام الغروب ، خاصة فى رمضان ، لم يكن يعمل وفقا لتصميمات مسبقة ، انما كان ينحنى محملقا فى الفراغ ثم يبدأ النقش ، مستخدما أدوات معدنية ، مدببة ، بعضها غليظ كالمطارق ، وآخر نحيل كالابر ، من بين أصابعه تتخلق النقوش ، لا يجور شكل على آخر ، لم تخرج من بين يديه قطعتان

متشابهتان ، قلده بعض صغار الصناع ونقلوا عنه ، لكنه لم ينسخ ذاته قط ، مات عن أربع وثمانين سنة . مال راسه فوق هذه الصينية التى علقت زمنا طويلا فى صدارة المقصورة الرئيسية بالمقهى ، بعد انتهائه من حفر آخر نقطة اغلقت الدائرة الوسطى التى تتفرع منها الخطوط والاشكال . ظنه البعض نائما ، وعندما حددوه وجدوا صعوبة فى فك أصابعه عن المطرقة الصغيرة والأزميل ، حتى انه دفن بهما .

احتوى المقهى على ستائر نادرة من الخرز الملون ، صغير الحجم كحبات الذرة ، تتخلله فصوص من مرجان البحر الهندى الأعظم ، تنسدل على فراغات المقصورات المتجاورة على جانبى الممر الرئيسى ، فتحجب وتشى فى عين اللحظة ، هذه الستائر أهداها طالب علم من جزر القمر درس في الازهر سبع سنوات قبل عودته الى بلاده ، واعتاد القدوم بعد صلاة الفجر مباشرة والجلوس صامتا مقدار ساعة داخل المقاصير ، صفت نراجيل عتيقة ، متنوعة الطرز ، أما التى اعتز بها صاحب المقهى ، وحنا عليها ، وأكثر من عنايته بها ، وترفق بوضعها ، فكانت تخص في الأصل السلطان أحمد العثماني ، خاتمة وطرة توقيعه على زجاجها الازرق ، الشفاف ، الرقيق ، كيف وجدت طريقها الى هنا ؟ . هذا ما لا يعرفه أحد .

حدثنى اقدم العمار ـ رحمه الله رحمة واسعة ، اذ كان غندورا ، طيب المظهر ، رائق المزاج ، قوى الاهتمام بزبائن المقهى ، قال ان الحاج اذا طرب أو انتشى او مر بلحظات صفو ، يأمر باعداد هذه النرجيلة ، يضعها امامه ، يتامل صور السلطان المرسومة على الوعاء الزجاجي ، وتوقيعه ، يهز راسه هزتين قصيرتين موجزتين ، متتابعتين ، يعرف الأقربون أنه يمر بذرا صفوه وخلوته مع ذاته ، ودنوه الأقصى من لب راحته الانسانية .

أغرب ما يروى عنه ، ما يتعلق بغرفة الزهور والامبراطورة أوجينى ، فى نهاية الممر حجرة جدارها زجاجي . الناظر داخلها يرى ورود الدنيا كلها ، المعروفة فى مصر ، وفى اقصى المعمورة . عندما جاءت الامبراطورة اثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ، زارت المنطقة القديمة واثناء تفقدها المآذن العتيقة والجدران الزمنية للمبانى القادمة من عصور بعيدة ، توعكت قليلا ، وشحب لونها ، رفعت يدها الى جبهتها ، لم يكن هناك مكان مناسب الا المقهى القريب . طبعا سبقها رجال القصر لتنظيفه وتهيئته والتاكد من ابتعاد الشحاذين والدجالين

والفضوليين ، اقترح أحدهم على ألحاج أحضار أطقم الشاى والقهوة من القصر ، كذا الأكواب الزجاجية الملونة التى لا تخرج من الخزائن الا فى المناسبات الكبرى ، مثل مولد النبى ، وعيد الجلوس ، أو الحفلات التى تقام للملوك . لكنه أبى ، وقال صراحة ان بعض ما عنده لا يوجد فى القصر .

وقف عند راس الطريق القصير المؤدى من الميدان الى المقهى ، وبالتحديد امام المطعم الايرانى الذى أغلق بسرعة وسدت منافذه لدواع امنية وخوفا من نفور الامبراطورية أو غثيانها اذا استنشقت روائح التقلية والمرق ، ربما أزعجها ما لم تعتد عليه ، كان المعلم ، شابا فى العشرين وقتئذ ، وقيل فى الثامنة عشر ، عنفوان فتوته ، ومرحلة تأججه ، كان طويلا ، له مهابة ، غليظ الرقبة ، ضخم الشارب ، ورث عن والده حبه وشرهه للأكل والنكاح ، فى هذه السن المبكرة كان يلقب بالألفي ، لانه ضاجع منذ بلوغه الف امرأة ، زاد عليهن فيما بعد ، لكنه ظل يعرف بذلك ، وأمر فحولته معروف ، وله أطوار غريبة تروى أمرها شائع .

لحظة لقائه بها بدا ثابتا ، راسخا ، قسماتها هى التى اختلجت مسفرة عن رغبة أنثى ، وعندما مد ذراعه لتتكىء عليها طبقا لنصيحة باشا كبير سبق الركب واطلعه على السلوك الواجب اتباعه وحذره مغبة التقصير . برغم ذلك عند وصولهما الى المدخل انفصل عنها ، فرد يده داعيا للدخول ، ثم تقدمها كما اعتاد رجال الفترة عندما يصحبون زوجاتهم ، لوحظ أنها أفسحت الخطى حتى تلحق به ، وطوال جلوسها بالمقصورة لم ترفع نظرها عنه ، حتى زعم البعض أنها قضت غلمتها بالبصر ، بعد دقائق من الراحة ، وقفت ، مشت فى الممر متعجبة مما تراه ، آهاتها تخفى نشوة أخرى ، يجمع الكل على تعجبها مما راته من أزهاد فى الغرفة الزجاجية ، فل ونرجس وشقائق نعمان ، ولوتس وياسمين ، وانواع أخرى لم ترها ، تعجبت وتطلعت ، أخبرها من له دراية ممن كانوا برفقتها أن بعض هذه الانواع لا ينبت الا فى الصين ، أو فى قمم الجبال النائية .

لدقائق استمر المعلم يتطلع اليهم هادئا ، مبتسما ، غير عابىء بجمال السيدة التى استضافها مليك بلاده وشيد من أجلها القصور واليخوت سميا وتقربا ، حتى قيل انه اشرف بنفسه على رصف طريق ستمر به عربتهما ، بحيث يميل الارتفاع بمقدار معين فتضطر طبقا لوضع جلوسها المدبر الى الاتكاء عليه ، هكذا يدنو ويلامس ، لعل وعسى !.

تطلع المرافقون ، وابدوا الدهشة ، كيف تنمو الزهور في هذا الحيز الضيق ، ما الذى يجمع ورود الشتاء مع الصيف ؟ . بعد ان هدأ الكل ، تقدم المعلم ، فتح الباب والتفت الى الامبراطورة وعندما هم كبير حاشيتها منعه من اجتياز العتبة ، اغلق الباب ، رآه الواقفون ، يشير الى الأزهار ، مومئا ، مفسرا ، شارحا ، لا يدرى احد اى لغة نطق ، قال ان هذا كله مصنوع من خيوط الحرير الدقيقة التى لا يمكن رؤيتها متفرقة ، نسجت وصيغت بمهارة ، أعتى خبراء الزهور لا يمكنه اكتشاف حقيقتها الا بعد اللمس والفحص ، يبدو بعضها مبلولا بالندى ، وما القطيرات الا مهارة صانع ، هذا السر لم يبح به المعلم ولم يفصح عنه الا للامبراطورة ، لكنه لم ينطق به علنا الا بعد الغارة العنيفة التى جرت احدى ليالى الشهر الاول من السنة الثالثة للحرب العظمى ، تسبب انفجار قريب فى تدمير الجدار الزجاجى الأمامى الذى توقف عنده خلق من شتى الاجناس والملل ، تعجبوا وتأملوا ، سرعان ما تلاشت الزهور والألوان ، بدا شحوب ثم ذبول ، ثم تحللت ، عندما اكتشف العمال ذلك فزعوا اليه ، طالعهم بعينين صامتتين تفيضان أسى لم يفارقه حتى يومه الاخير الذى أوفى به عامه الرابع والعشرين بعد المائة وثلاثة شهور وستة أيام ، هكذا يؤكد العارفون ، خاصة رجلا أكبر منه بعشر سنوات ، قصير القامة ، نحيلها ، عنده دكان خياطة بلدى ، وما زال قادرا على تمرير الخيط الحريرى من سم الابرة ، أكد انه حضر مولده ، وخاصة يوم السبوع ، اقام والده ليلة ظلت المنطقة تذكرها لسنوات تالية ، كل فقراء الناحية اكلوا طبيخا ولحما وحلوى طيبة واخذوا كفايتهم لمدة اربعة او خمسة أيام اخر ، وزع الجنيهات الذهبية على كل من حضر ، وغنى المطربون ، وأنشد المنشدون ، لا عجب .. انه الولد الاول بعد ست بنات جئن متعاقبات ، حتى فكر المعلم الكبير فى تصفية المقهى عند شعوره بوهن الكبر ، لم يقدر على تخيل شخص غريب يقعد فى نفس الموضع عند المدخل ، وينفث دخان النرجيلة ، ويدير شئون المكان ، لكن ربنا اكرمه ورزقه بغلام ، قدر له أن ينمو ويصبح ذائع السيرة ، مشهور بحسن الخلق ، ورجولة فياضة ، ألم تفتتن به الامبراطورة أوجينى احدى حسناوات عصرها ؟ . اعجابها لهج به رجال القصر واعضاء السلك الديبلوماسى وقتئذ ، وذكره قنصل ايطاليا فى مذكراته التى نشرت قبل تولى موسولينى السلطة .

بعد انصرافها أبدت رغبتها فى استدعاء المعلم الى قصر ضيافتها

لاعداد الشاى الأخضر المحلى بالسكر النبات ، والمعطر بالنعناع ، وبالفعل .. ركب عربته الخاصة التى يجرها جواد أسود فاحم ذو غرة بيضاء ، أعد لها الشاى وسقاها بيديه ، لكن .. هل خلا بها ؟ .

لا يمكن لأحد الجزم بالنفى أو الاثبات . أمر صعب ، طبعا رويت عشرات التفاصيل ، خاض أبناء الحى القديم فى الأمر ، طبعا اختلط الواقعى بالمتخيل ، بعد سبعين سنة جاء ممثل الاذاعة البريطانية ، عرض فى البداية عليه شيكا مصرفيا بالعملة الانجليزية ، مقبول الدفع ، على بياض ، مقابل الاجابة على سؤال واحد : عندما مضى الى القصر ليعد الشاى وخلا بها ، هل قال المعلم ما لم يتمكن منه الخديو ؟. تطلع المعلم اليه ، أشاد بنصف أصبعه أن يقدم ، أن يقترب منه ، فرح الانجليزى ، ظن انه سيستمع الى الاجابة ، أشرع جهاز التسجيل ، وعندما دنا متأهبا للجلوس على مقربة ، فوجىء بالمعلم يمسكه من ياقته ، يهزه ثلاث مرات ، ثم يرفعه فى الهواء ويبقيه معلقا بينما الرجل يفرفط برجليه ، لعنه ولعن الاذاعة البريطانية والفضول الذى لا يرحم الحى أو الميت ، ثم قال بصوت سمعه الجميع انه لو رأى الانجليزى مرة أخرى فسيجعل وجهه مطرح قفاه !.

هرب الخواجة ، ويؤكد الحاضرون انه بال على نفسه . وامتلأ رعبا ، غير أن السؤال ظل يتردد ، والاجابات عنه تتنوع ، لزم الصمت فلم يفصح ولم يشف غليلاً حتى بعد أن طعن فى السن وتداخلت عليه الرؤى ، تهدلت أطرافه . وتثاقلت نظراته ، وصار تحديقه الى ما لا يرى أكثر من نظره الى المحسوسات ، الا أنه فى أقصى حالات ضعفه كان يوحى ببنيان قوى قام يوما ، لم يعد يفارق موضعه فوق الدكة الخشبية التى حفر عليها تاريخ صنعها قبل قرنين من الزمان ، حتى الأيام الأخيرة حافظ على ذهابه الى الحمام التركى مرة كل أسبوع ، ولم يمنعه الوهن عن قضاء حاجته بدورة المياه الملحقة بالمقهى والتى جددها وسواها .

فى شبابه هابه الجميع ، وخشيه القريب والبعيد ، بمن فيهم ضباط الشرطة الذين تعاقبوا ، اتقن فنون المصارعة ، واللعب بعصاتين فى وقت واحد ، واستخدامها بمهارة عند نشوب قتال ، ذاع أمره فى الشقاوة ، وقدرته على الجماع ، لم تحتمله الا امرأة حلبية اقامت فى بيت منعزل بضاحية عين شمس ، لكنه لم يتزوجها ، رغم اقترانه بعدد غير معروف من النساء ، لكنه لم ينجب منهن ، بعد وفاة والده

فجاة وبدون مقدمات تفرغ تماما للمقهى ، اعتنى به وبذل المجهود الاتم ، بعد الطواف والتنقل والجرى هنا وهناك لم يعد يفارق المدخل ، لا صيفا ولا شتاء . من فوق الدكة يدير الأمور بنظراته ، لزم النرجيلة ولزمته ، يقابل الجميع بمودة متحفظة ، مقتضبة وتعبيرات لا تتغير الا عند قدوم عزيز ، ليس بالضرورة من ذوى الجاه او الشهرة ، كان يخدم بنفسه الملوك ورؤساء الدول ، وكبار العاملين بالمنظمات الدولية والممثلين ، والمطربين ، والشعراء الكبار والكتاب ، ولا تزال صورته وهو يقدم القهوة ضاحكا الى الفريق عزيز المصرى معلقة ، لكن صورة جمال عبد الناصر جالسا بصحبة اثنين مجهولين اختفت بعد عام من وفاته ، كان يقوم محييا من يقدره هو لا غيره ، لم يتحرك عند رؤيته وزراء . وضباط شرطة كبار ، لكنه انتفض مرارا مجرد رؤيته رجلا عجوزا ملتحيا كان يصل فى نفس موعده كل عام ، يجوب الوادى من بلاد النوبة وحتى ساحل البحرين ، الابيض والاحمر ، يزور أضرحة المشايخ ، كبيرهم وصغيرهم ، يقرأ لهم الفاتحة ، ويوقد عند كل منهم شمعة ، ثم يمضى ، كان المعلم يتبرك به ، ويعد له الهدايا قبل قدومه بشهر ، وينتظر موعد ظهوره بلهفة لا تخفى ، وعند انصرافه ينحنى مقبلا يده ويطلب منه البركة ، كان يبدو مسرورا عند الزيارة ، مؤكدا لمن حوله ان والده أوصاه بالرجل الصالح قبل وفاته ، يبدو راضيا ، مرتاحا راحة لا تعرفها قسماته الا لحظة مناجاته جواده العربى القديم ، امتطى صهوته زمن الشباب، يقال انهما ولدا فى يوم واحد ، كان يسرجه ، وينظف جسده ، ويطببه، ويطعمه ، ويسقيه بيده ماء الورد . وعندما لزم الدكة . بان عليه التعب ، وقف جواده الأكحل ذو الغرة الى جواره ، لم يربطه ، كان طليقا من كل قيد ، لكنه لا يبتعد ولا يجمح ابدا ، وفى أيام الصيف الحارة يذب عن وجه صاحبه الذباب ، وينحنى ليتشممه أو ليطمئن عليه ، لا أحد يدرى ، يقسم أقدم العمال انهما يتبادلان الحوار ، كل منهما يفهم الآخر ، أحيانا يومىء ، فيمد الجواد راسه ، عندئذ يهمس له ، والجواد يهز راسه أو يهمهم ، او يطرق حزينا ، او يرفع قائميه الاماميين فى حركة زهو ويصهل بصوت مرتفع متدفق حتى ليسمع من بعيد .

احتفظ أيضا بثلاثة أقفاص بها اربع وعشرون فرخ حمام ، عجيب أنه لم يغلق ابوابها قط ، يطير الحمام ويرجع اي وقت ، فى الليل

يتململ ويسمع هديله وغطيطه ، يحط بجواره ليلقط حبا او ليرشف قطرات ، عدد الحمام لم ينقص ، ولم يزد طوال أربعين عاما ، اذا طقت بيضة واطل زغب اخضر ، كان ذلك يعني قرب اجل حمامة كبيرة ، لايتأخر الأمر أكثر من يومين ، وربما وقع العكس ، فيسبق الموت الميلاد ، هكذا مضى الأمر ، لم يهتز ولم يختل حتى جرى ما جرى .

ذلك أن رئيس بلدية العاصمة كان جهولا ، غتيتا ، نائيا ، قرر اعادة تخطيط الحى القديم ، وبناء فندق يصلح للسائحين ، اقتضى الأمر ازالة المقهى ، الحق أن الأمر لم يتم بهدوء ، شرع كتاب لهم شان فى الاشادة بالمقهى ، نبهوا الى أهميته التاريخية وسرد بعضهم الاحداث التى جرت فيه ، والشخصيات التى عبرت فضاءاته ، بدءا من شيوخ الازهر الكبار ، وحتى نابليون بونابرت ، والزعماء السان سيمونيين ، ولاظوغلى باشا ، والامبراطورة اوجيني ، وجمال الدين الافغانى ، وطبعا .. الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغيرهم ، قام بعض محبى المقهى بجمع مئات التوقيعات ، نجوم فن ، ورياضة ، ورجال قضاء ، وأساتذة أجلاء ، وتدامى انســوا الى اركان المكان وزواياه وامضوا مقادير من أوقاتهم . غير ان هذا كله لم يزد رئيس البلدية الا اصرارا وعنادا ، تحدد يوم معين للاخلاء ، وبدء الهدم .

المعلم تابع ما يجرى صــامتا من فوق الدكة ، يجيئــه المريدون فيهونون ، ويذكرون احتمال صدور أمر عال بوقف هذا العبث كله ، كان يصغي ولا يهز راسه ، لا يومىء ، لا يجيب باشارة ولو واهنة ، وعندما امتنع الجواد الأكحل عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام قبل الموعد ، وعندما كمن الحمام فى الاقفاص ، كف عن التحليق او تناول الحب ، وتوارى كل صوت . بدأ ذبول واضح حول عينيه ، كان يردد الطرف بين الجواد واقفاص الحمام ، وترتجف شفتاه بما لم يفهمه احد ، ولم يدركه الأقربون .

صبيحة اليوم المحدد لرفع اول معول هدم ، ناداه اقدم عمال المقهى فلم يجب ، كان يسند راسه الى يده ، متمددا على جنبه الايمن ، مشيرا بسبابته ، علامة التوحيد ، فوق الأرض انفرط الجواد ، بانت ضلوعه ، هزل قوامه ، لم ير من قبل الا واقفا ، متخايلا ، اذا تلمس راحة رفع احدى قوائمه لحيظات . سقطت حمامتان من القفص الثانى ، اما ما تبقى فاضطروا الى الصعود على سلم متحرك لاخلائه ،

تجمع القوم ، عظم التأسف ، صاح شيخ ضرير ، ضخم البنية ، اعتاد تدخين النرجيلة صباح كل يوم ، أمر الواقفين بستر جثمان الراحل فللموت حرمة ، عندئذ أقدم الكل ، بكى العمال كثيرا ، خاصة عندما عثروا تحت رأسه على لفافة تحوى قماش كفنه . وسائر ما يحتاج اليه فى رحلته الأخيرة ، توسده مدة طويلة لا يدرى أحد مقدارها .
لم يستطع العيش حتى يتنفس هواء يوم يرتفع فيه معول الهدم .

هكذا وجدوا رئيس الجامعة فى غرفته الخاصة ، مرتديا ملابسه الرسمية التى لم يظهر بها الا عند مناقشة الرسائل العلمية المتقدمة ، والعشاء الطقوسى ، كان ملتحفا بالعباءة الخالية من الدوائر الثلاث ، لم يقدر على الاستمرار حتى رؤيتها ، دفن بها ، كانت آخر عباءة من الرسم القديم ، كانت معدودة من أجل الشارات . لكن .. لحقها ما يطال كل شيء ..

عود إلى الأزياء

.. تؤكد وثائق الجامعة أن تصميم الازياء وتطورها ليس مصادفة، كل جزئية ذات دلالة ومعنى ، ترتبط بمرحلة أو حدث معين ، الالمام بتاريخها جزء هام جدا يمتحن فيه المتقدمون لشغل مناصب الاستاذية . تماما كما يجب الالمام بطقوس العشاء الاسبوعي وحفل قبول الطلبة الجدد . والحفل الختامى ، وتوديع الخريجين الذين أتموا المدة .

خلال القرنين الأخيرين لم يطرأ أى تغيير يذكر عدا تلك الدوائر التى ظهرت بعد تأسيس الدولة الاتحادية ، الألوان ثابتة صيفا ، وشتاء . مادة القماش متغيرة ، فى الصيف من كتان ، وفى الشتاء من صوف . الحذاء يغطى معظم الساق ، يصنع من الجلد البلغارى. فى المدينة بيت اختص بعمل الملابس وتوفير خاماتها ، يتوارث الحرفة ابا عن جد أسرة قديمة الأصول ، عمل كل أفرادها فى الحياكة . احتفظوا بسجلات قديمة فيها مقاسات الاساتذة ، والتغيرات التى طرأت على أجسامهم ، خاصة عند الانتقال من الشباب الى الشيخوخة وما يستتبع ذلك من نقص أو بدانة . لكن يبدو أن تفصيل أزياء الجامعة لم يعد يفى بالحاجة ، كما أن لوازم القماش أصبحت مرتفعة السعر مما جعل الازياء خارج المتناول بالنسبة للكثيرين ، ثم لحقت الضربة المؤثرة بعد الحرب العالمية ، عندما انشأ أحد رجال البلدية اثر تقاعده مباشرة مصنعا لتفصيل الملابس ، بدأ بالطلبة ، ثم تدرج الى الاساتذة . وبرغم التقاليد الراسخة ، والحدود الفاصلة ، فان احتياجات الواقع أقوى ، وهذا معروف مجرب فى غير عصر . قل الطلب على ما تنتجه الاسرة ، انصرف افرادها ونسوا المهنة عدا أب عجوز وزوجته وشقيقته الصغرى التى تجاوزت الآن السابعة والسبعين ولم تتزوج ، يقال أنها احبت فى صباها طالبا جامعيا قدم من الشرق ، ثم استدعى الى وطنه فجأة واختفى خبره فذهلت عما حولها ، حتى أنها تحتفظ الآن بزيه الذى لم يتسلمه فى مخدعها ، وتثق أنه سيرجع يوما ، وأنه لن يخل بوعده لها ، أمرها معروف ،

ذائع ، تماما كالصينيين الذين يقيمون منذ عشرات السنين قرب البرج فى انتظار طلة أميرهم الشاب ، وسياتى تفصيل ذلك فى موضعه ، المهم .. انها لا تسترد وعيها الا عندما تمسك الابرة والخيط ، تصم حواسها عن كل ما ليس له صلة بعملها ، أصابعها طويلة ، نحيلة ، ان الثلاثة آخر من تبقى للعمل فى تفصيل الازياء ، الابناء تفرقوا ، الاكبر التحق بالاسطول وأصبح ضابطا يعمل على غواصة . الثالث سافر للعمل حفارا بتروليا فى الصحراء الليبية ، أما الابنة وهى الوسطى فتعمل فى المستشفى الجامعى ممرضة ، منذ سنوات تعيش بمفردها فى الجانب الآخر ولا تزور والديها الا على مسافات متباعدة .

حرص مجلس الجامعة على تفصيل العباءات الرئاسية عند الاسرة حتى يتوافر ضمان لاستمرارها . ومن الثابت أنه رفض عرضا تقدم به مصمم أزياء باريسى شهير أبدى استعداده لتصميم زى جديد للطلبة ، وازياء للاساتذة تساير التطور . فى بداية الخمسينات وقع تطور هام ، اذ سمح للطلبة بارتداء الازياء العادية ، لم يعد ممكنا أن يمضى كل شىء كما كان فى الماضى ، لكن لم يحدث تعديل بالنسبة لهيئة التدريس ، وحافظ موكب الافتتاح على خصوصيته ، كذلك احتفال يوم التخرج ، ويوم تقليد احد الباحثين الشهادة العليا عندما يطلق النفير الجامعى ايذانا بارتداء العباءة العليا . وعندما استخدمت البلدية صور المواكب التقليدية فى ملصقاتها السياحية والكتيبات الدعائية ، توقع الكثيرون احتجاجا جامعيا قويا ، لكن لم يحدث شىء ! المبانى لم تتغير .

عندما جال فى المدينة ، ومشى متمهلا فى شوارعها رأى الواجهات عتيقة ، لكنها مجلوة ، نظيفة ، الزمن القديم يرقد فى المداخل الفسيحة ، والزوايا المظللة ، ولكن كل شىء ذو رونق كأن الفراغ منه تم بالأمس .

وثائق الجامعة تؤكد أن الحفاظ على الطابع يرجع الفضل فيه الى مهندسى الجامعة ، بينما تفند البلدية ذلك ، وتؤكد أن الخطط والمشاريع مجرد حبر على ورق بدون بلدية صارمة ، واعية ، يتمتع رجالها بحس تاريخى وثقافى ، وحب عميق للمدينة ، وتشير المصادر دائما الى الوقفة الحازمة فى مواجهة رجل الاعمال القوى ، واجباره على سحب معداته ، ومن ثم اجهاض مشروعاته ، لو نجح وأقام المبانى التى خطط لها لبدأ التشويه فى الفراغ السحيق ، أما العمارات

التي يدب اليها خلل ، وتوشك على الانهيار ، فيتم الاحتفاظ بواجهاتها أما التصميم الداخلي فمن شأن المالك .

من هنا كانت واجهة الفندق مقسمة الى ثلاثة طوابق فقط ، اما الداخل فيتكون من ستة ، أمضى وقتا يحاول التوفيق تدركه الحيرة عندما يتطلع من النافذة الى الطريق ، عند أي مستوى من الواجهة تقع غرفته ؟ . كيف تبدو الغرفة من الداخل حديثة ؟ النافذة مؤطرة بالمعدن ، من الخارج لا أثر لها .

كثير من الأمور بدا له غامضا ، مستغلقا ، تفاصيل عديدة تكشفت وانجلت عبر حوار أو قراءة أو ادراك كنه العلاقة بين أمر وامر ، لا يمكنه ارجاع كل ما وصله الى أسباب بعينها ، هنا لابد من ذكر ملاحظة ، انه ما من تفصيلة مهما دقت وردت في هذا التدوين الا أحاط بها ، وما لم يطلع عليه لم نذكره لأنه خارج الساحة .

ان أمورا لا حصر لها أثارت دهشته منذ وصوله ، لكنه لن ينسى أبدا عجبه عندما اتصل به موظف الاستقبال أثناء تهيئة للرقاد ، أخبره بوصول رسالة عاجلة .

مظروف يحمل اسمه ، حروف عربية منسقة ، مشكولة ، يطلب كاتبها الاتصال به في الرقم الموضح لأمور هامة .. صاحبك المغربي .

لقـــــــــاء ...

.. من ؟.

من هو ؟ . لم يلتق به قط ، وسيتناول العشاء عنده بعد قليل ، بالأمس .. أثناء ترتيب أوراقه فى مدينته النائية الآن ، لم يفكر فى مجرد احتمال تناوله العشاء فى بيت يقع هنا ، فى شارع لم يطأه . تساءل فقط عن شكل الفندق ، عمن سيلتقى بهم فى الرحلة ، من سيصغون الى بحثه ، الى ما سيقوله من آراء ؟ . عند الشروع فى السفر يتوثب للقاء المجهول ، للنظر فيما لم يقف عليه . لكن .. أن تصله رسالة بعد دقائق من وصوله ، فى مدينة لا يعرف فيها أحد ، فهذا ما لم يطرأ بذهنه .

كان مرهقا ، لكن عنده تحفز ورغبة ، رؤية ما لم يشهده وما لن تقع عيناه عليه مرة أخرى ، احتمال مجيئه مرة أخرى شاحب ، نادر، « بعد عشر دقائق ستصل اليك سيارة .. » .

لم يقدر على التعلق بملامح محددة ، الطرقات ضيقة ، اتجــاه واحد ، مبلطة بالحجارة ، منحنيات مفاجئة ، أضواء قليلة تشــع واهنة من خلف الستائر ، ساحة متسعة نسبيا ، يتفرع منها طريق مرتفع ، تختفى الاقواس الحجرية ، وتسفر المداخل المؤدية ، فوهات غير منتظمة . مؤدية الى عوالم يجهلها .

عندما توقفت العربة أمام البيت الصغير ، يحده سور خارجى ، يبدو المكان أشبه بضاحية ، يتقدم مضيفة ، صعب تحديد عمره ، لكنه لا يقل عن الثلاثين ، ولا يزيد على الخمسين ، ابتسامة لا تخلو من تكلف .

منضدة بيضــاوية من الرخام الملون ، الأخــضر غالب ، تتخلله خيـــوط حمراء ، أول ما وقعت عينـــاه على زجاجة نبيــذ ياقوتيــة ، بجوارها فتاحة معدنية ذات العمود ملولبة ، محاطة باطبــاق من الجبن ، شرائح طماطم ، قواقع بحر ، زيتون أسود .

تتجدد عنده طاقة ، ويصدر عنه اقبال . اعتاد شرب النبيذ عند سفره ، زجاجة كبيرة كاملة مع الغداء ، أخرى مع العشاء ، لــكنه

بمجرد العودة الى مستقره يكف فكأنه لم يذقه قط ، يرتبط عنده بالرحيل ، مما رغبه جمع الزجاجات الفارغة للأنواع المختلفة ، لكنه لم يشرع ، شأن أمور أخرى لم تخرج عن دائرة الخـواطر ، يضيق بتناوله منفردا ، الا عند أمعانه في الوحدة ، وايغاله في شفق كابى ، الوحدة أمر مكروه عند الشراب . بغضة القدماء ، قالوا ، لا يضطر اليه الا من فقد نديما مساعدا أو خليلا موافقا ، ورأى ان لزوم الانفراد ضرورى للحاجة الانسانية .

مما الم به أن المدينة بها نوعان من النبيذ ، الاول جامعى ، ينتج فى المزارع التابعة لكلية الزراعة عند بداية الطريق المؤدى الى الجنوب، اوقفها أمير الناحية منذ ستة قرون ، بها شجيرات كروم نادرة تم جلبها فى أزمنة غابرة من بلدان نائية كان الوصول اليها لا يتم الا بشق الأنفس . يخصص المحصول كله لانتاج النبيذ الذى اشتهر أمره ، يقتصر بيعه على المدينة ، كمية المنتج محدودة ، ثمة انواع خاصة جدا لا توجد خارج الجامعة ، ما يتناوله الاساتذة فى العشاء الاسبوعى ، هذا احمر ، ثم نبيذ الحفلات الرسمية التى تقام تكريما للطلبة الذين انهوا مراحلهم الدراسية . وهذا ابيض . تشرف كلية الزراعة على مزرعتين ، الاولى تلك الخاصة بالكروم ، والاخرى تجريبية لاختبار محاصيل جديدة ، أو عملية تطعيم نوع بنوع آخر ، ولهم فى ذلك أمور عجيبة .

الصنف الثـانى تنتجه البلدية ، يؤكـد الذواقة انه أقل جـودة ، اشهره الوردى ، اما الابيض فاقل جودة ، يعد ويعبأ فى مصنع حديث، المسئول عنه من كبار الموظفين ، يتم تسويقه من خلال ادارة المحاصيل، يتم الاعلان عنه عبر وسائل الاعلام الحديثة ، ويقـدم فى الفنـادق الكبرى بالمدن الاخرى . لكنه لا يرقى الى مستوى النبيـذ الجـامعى ، خاصة الاحمر المعتق فى براميل خشبية عتيقة ، لا يمكن العثور عليه الا فى ثلاثة مطاعم خارج البلاد ، الأول فى باريس . والثـانى فى نيويورك . والثالث فى طوكيو ، مكلف جدا . حتى قيل أن القدوم الى المدينة لاحتسائه اقل تكلفة من قيمة وجبة فى احد هذه المطاعم !.

اليه تمت هذه الزجاجة الماثلة ، القائمة . انه ناعم المذاق ، لطيف الحضور ، بطيء التأثير ، خافت السريان ، باعث على الميل . قال المغربى أنه خشي امتناعه عن الشرب ، يبدو مسرورا بعد صب السائل الياقوتى ، اتحاد الزجاج باللون ، رفع كأسه . تتلامس الحافتان ،

اقبل مبتهجا .. لكنه لم يطلعه على خصيصته ، ارتباط شرب النبيذ عنده بالسفر ، بالاغتراب .

بيت ينبيء بيسر أحوال ومقدرة . لم تطل حيرته او تساؤله عن أسباب الدعوة غير المرتقبة . قال المغربي أنه اطلع على اسماء المدعوين الى الاحتفال فى الجريدة الناطقة باسم الحزب الراديكالى المساند للجامعة ، اتصل بعدد من المسئولين ، عرف موعد وصوله ، ومكان اقامته ، حرص على مقابلته فى اللحظات الأولى ، لم يتمكن من انتظاره فى محطة القطار ، كما أنه خشي رد فعل لا يمكنه التنبؤ به لانعدام العلاقة ، اضافة الى اعتبارات أخرى سيوضحها فيما بعد ، تحدث عن اقامته منذ عشرين عاما . جاء الى هنا مجردا ، تقلب فى اعمال شتى . مر بأطوار عديدة حتى وصل الى ما هو عليه الآن ، يدير مؤسسة تمتلك عدة شركات تعمل كلها خارج البلاد ، احب المدينة لأسباب شتى ، اهمها تفردها وخصوصيتها .

« انت ضيف على الجامعة ، وستمضي هنا أسبوعا .. » .

يومىء .

« طوال اقامتك بيتي بيتك ، انني اعيش هنا .

بمفردى ، ابنتى تدرس فى الجنوب وامرأتى مقيمة فى الشمال .. »

ما يقوله تمهيد لشيء آخر يتأهب لذكره . يميل حتى يوشك أن يلامسه :

« هذه المدينة تعيش صراعا قديما ، يخبو ويظهر .

لكنه الآن يمر بمرحلة حساسة ، لذا وجب الانتباه »

قال ان الخلاف بين الجامعة والبلدية أمره قديم ، غائر الجذور ، ربما لا يشعر به الغريب ، العابر ، لكن يمكن أن يقع فيه رغم ارادته ، خلاف موجود فى تفاصيل الحياة اليومية ، يعيشه الجامعيون ، وسكان المدينة أيضا .

« انت الآن طرف ، الم تحضر للمشاركة فى احتفال بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة ؟ »

وصل تأثير الشراب الياقوتى الى الأطراف الحدودية ، توشك حواسه ادراك اطياف غير مرئية منبعثة من الحشائش القصيرة ، والشجيرات المتوارية فى الليل ، والزهور المنطوية ، يكاد أن يتلاءم مع الموجودات ، لكن شيئا ما فى حضور المغربى ، ومسا خفيا فى لهجته ينمى عنده قلقا .

« جوهر الصدع ، أيهما الأسبق ، الجامعة أو المدينة ؟.
والاحتفال الذى تشارك فيه يؤكد أنها الجامعة .. »

فيما بعد ، استعاد وجه الرجل وملامحه ، القسمات الرخوة ، اللهجة المحملة بالنذر ، مشيته المتمهلة عندما دعاه لرؤية البيت من الداخل ، متحف صغير ، ذوق رفيع ، منمنمات فارسية من القرن السادس عشر ، أطال تأمل احداها ، صغيرة ، مستطيلة ، يتوسطها شيخ آسيوى الملامح يمسك وردة ، فى قعدته غرابة وفى تطلعه غموض ، أما الوردة فلها حضور انسانى عجيب ، تحسس الملمس الحريرى لسجادة تركية المنشأ ، قال انه اشتراها بمبلغ كبير ، صانعها بكى دمعا عندما سلمها اليه ..

« لم يشأ مفارقتها .. »

ترى كم أمضى فى صناعتها ، صعب عليه مفارقة ما أبدعته يداه ، رأى مشغولات فضـية يمنية ، وأوان خزفية فارسـية ، وصناديق خشبية مطعمة بالفضة والفيروز ، مغربية ، لوحات أصـلية ، وحليا من جهات شتى ، ما أطلع عليه كثير ، يعكس دقة انتقاء ، بقدر ما ينم عن ثراء ، لماذا لم يسأله ، الى أى جانب يميل هو ؟ . صباح اليوم التالى ، أفاق وعنده فضول ، رغبة فى لقاء المغربى مرة أخرى ، قلب أوراقا تحوى مقالات ومعلومات حول الصراع ، ذوده بها شدد عليه أن يخفيها ، الحق أن المغربى اضاء له جوانب شتى ، وسهل عليه ادراك ظواهر كان ممكنا الا يلحظها ، أو تبدو له : مبهمة ، مستغلقة .

أيهما الأصل ؟؟

.. قضية لم تحسم ، ومشكل لم يحل ، حتى الآن مثار أخذ ورد ، بدأ منذ زمن بعيد لا يمكن تعيينه الآن ، واتخذ وجهات عديدة ، لكنه ظل مستمرا ، أحيانا يخبو . ومرات يشتد ، البعض فقد حياته او حريته ، الامر جد ، لكن .. اى أسباب كامنة ؟ اى عوامل فاعلة ؟.
لا يوحي الظاهر بشيء ،تبدو المدينة هادئة ، راسخة الفاعلية والقبول. تقفز طرقاتها بعد الغروب ، حتى السهر نسبي ، المقاهي والمطاعم تغلق عند العاشرة ، قرار قديم أصدرته البلدية في منتصف القرن الماضي لأسباب مجهولة الآن ، ما زال ساريا ، مكان واحد مفتوح طوال الليل والنهار ، انه مقهى محطة القطار ، لكن .. لا يقصده الا المسافرون ، وظهور غيرهم يثير الريبة .

اعتاد عند نزوله بلدا غريبا أن يتعسس احوالها الأمنية ، هل يوجد خطر ؟ هل يتزايد ليلا ؟ هل يمكن التجوال بمفرده ؟ أي مناطق يجب أن يحذرها ، الى أى ساعة يمكن السهر ؟ ، طبقا لما يقف عليه يضع الخطة !.

مما الم به هنا ، وجود عصابات دولية تتعقب الأغراب ، لسرقة جوازات سفرهم وأوراقهم ، نشاطها سافر في العاصمة الاتحادية ، لكنه ليس منعدما هنا ، فقدان جوازه هاجس يحتاط له ، يخشى مجرد وروده عليه ، ما الحال اذا وقع ؟. لا ينام الا بعد الاطمئنان عليه ، يضعه تحت وسادته ، في الليل يتحسسه ، واذ يخرج لا يتركه في خزانة الفندق .

بشكل عام المدينة آمنة نسبيا والسبب وجود الجامعة ، ومحدودية سكانها ، كما ان قصادها محدودون ، ممن لهم اهتمامات معينة ، أو ممن يريد المشي في المواضع التي عبرها مشاهير المفكرين ، والكتاب ، والموسيقيين ، والرسامين الذين تعلموا أو عرضوا في القاعات الشهيرة ، والمعماريين والمخططين ، والعلماء الباحثين الذين درسوا الطبيعيات ، والعلوم الهندسية والذين أحدثت اختراعاتهم طفرات هائلة في مسيرة البشرية .

برغم الهدوء البادي ، فان أحداثا صغيرة ــ أو هكذا تبدو ــ تقع فجأة فتثير الروع . منذ عشر سنوات اختفى طفلان ، الأول فى السادسة ، والثاني فى الثامنة ، سرعان ما تردد ان أشخاصا اختطفوهما لحساب الجامعة ، حيث ستجرى عليهما تجارب ، ويتم استئصال بعض أعضائهما فى المستشفى التابع لكلية الطب العليا ، لا يخضع لاشراف البلدية ، كاد الأمر يؤدى الى كارثة عندما خرجت مظاهرة ــ وهذا نادر هنا ــ اتجهت الى الساحة الامامية ، خرج اليهم عميد الكلية ، وهو من أشهر جراحى القلب فى العالم ، خطب فيهم مهدئا ، ومتهما عناصر معينة فى البلدية تهدف الى السيطرة على المستشفى لاغراض خفية ، لكن يعلمها المسئولون فى العاصمة الاتحادية ، صاح معلنا بصوت حشرجه الانفعال ، ان المستشفى جزء لا يتجزأ من كلية الطب ، العاملون به اقسموا على الاستشهاد عند عتباته دفاعا عنه ، وكلهم من أهالى المدينة ، ما من غريب واحد بينهم .

انصرف القوم بعد وقت غير قصير ، لكن بعد مضى عام سرت شائعة لا يدرى أحد مصدرها ، أثارت الذعر فى البيوت كلها ، مؤداها أن فرقا من المستشفى تطوف على مدارس الصغار بحجة تطعيمهم ، لكن غرضهم الحقيقى سحب كميات من الدم لتخزينها وبيعها بالعملة الصعبة ، فزع الأهل مفارقين بيوتهم ، ودوائر أعمالهم ، واصطدمت العربات ببعضها ، وتماست المناكب عند الهرولة ، سعيا لسحب أولادهم ، ولم يهدأ الأمر الا بعد جهد جهيد بذله رجال الجامعة اجمعون . ثمة نقاط اخرى يبدو فيها الخلاف ، وان بدا كامنا ، مستترا ، من ذلك العيد القومى ، معروف عيد الجامعة الكبير ، الذى يقام كل مائة سنة ، انه المئوى ، ولكن فى كل سنة تحتفل الكليات كلها بيوم نزول الفلاسفة الاربعين أراضى الناحية ، وهناك عيد انتهاء الدراسة ، وأيضا عيد بدئها ، لكل طقوسه ، ومفردات مشاهده . فى المقابل لم يكن للبلدية مناسبات خاصة ، كل ما يتم الاحتفال به ، أعياد عامة تحتفل بها كل الولايات ، مركزها العاصمة الاتحادية ، عدا بعض الطقوس العامة الخاصة بفئة أو طائفة ، أو اتباع دين أو مذهب، مثلا .. احتفال الصينيين المقيمين بذكرى غياب أميرهم واختفائه المباغت ، أو خروج الامير العربى بصحبة حاشيته فى العربات ذات النوافذ المعتمة مرتين فى العام للاحتفال بمناسباتهم الخاصة ، ثم رجوعهم الى الفندق الذى كان يعرف قديما بمربط الفرس ، وان توقف الأمير عن ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة .

قرر العمدة الذى تولى شئون البلدية فى نهاية القرن الماضى ، تحديد يوم معين لاتخاذه عيدا قوميا ، طبعا روعيت اعتبارات اقتصادية سياحية ، مثل حلول اليوم صيفا ، لترتيب طقوس معينة ، منها الرقصات الشعبية ، ومد اسمطة المأكولات الشعبية ، لجذب السياح الاجانب ، وترويج الاحوال ، وتاريخية اهمها الا يكون للجامعة أى صلة من قريب أو بعيد بذلك اليوم .

هكذا .. وقع الاختيار على يوم معين من شهر اغسطس ، يقال ان معركة كبرى نشبت فيه بين أهالى المدينة وكتيبة من جنود الجيش الشمالى ، المعادى ، الذى اجتاح البلاد وقتئذ ، استشهد فى القتال سبعون مواطنا ، أقيم لهم نصب تذكارى كبير فى الساحة الواقعة امام مبنى البلدية ، فى الصباح المحدد يتوجه عمدة البلدية لوضع اكليل من الزهور ، يصحبه كبار المسئولين ، ثم يفتتح الاجتماع الاستثنائى للمجلس ، بعده يخرجون الى ساحة الاحتفالات حيث يجرى العرض الاحتفالى ، وتمر فيه عربات الشرطة المحلية ، وقوات المطافىء ، وحدات الاسعاف تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وعمال النظافة ، والنقل العام • وانارة المصابيح الغازية ، وتقدم الفتيات رقصات خاصة بالمدينة فى الهواء الطلق ، ثم يفتتح السوق الكبير السنوى الذى تشارك فيه الجمعيات الخيرية ، والمنظمات الاجتماعية التابعة للحزب الحاكم ، وهيئة رعاية المسنين .

عبر السنوات المتتالية اضيفت تفاصيل عديدة الى الاجراءات الطقوسية ، والحق أنه اصبح يوما مشهودا ، ومقصدا للزائرين ، وأهالى المدن القريبة .

غير أن حكايات عديدة سرت همسا بين أهالى المدينة ، وجهرا بين طلبة الجامعة ، مؤداها ان البلدية بالغت كثيرا فى اختيار اليوم ، واضفاء القداسة عليه . وحقيقة الامر ــ كما تثبت بعض وثائق الجامعة السرية ــ أن رجلا شاردا ، لا يعرف اصله أو فصله ، تسلل ليلا الى معسكر الكتيبة المعادية ــ وفى قول آخر مجرد فصيلة ــ ليسرق فطيرة بعد أن فاحت رائحة الخبيز من الفرن الميدانى وقت العصر ، وعندما شعر الحراس به أطلقوا النفير ظنا بوقوع هجوم معاد ، لم يكتفوا بقتله ، انما قرروا صباح اليوم التالى تجريد حملة تأديبية ضد المدينة ، حتى لا يتكرر مثل ذلك ، نزلوا شوارعها ، اقتحموا البرج ، ودخلوا البيوت ، وفتكوا بكثيرين ، وافتضوا أبكارا ، وكادوا

يشعلون النيران فى مبانى الجامعة ، لولا تراجعهم فى آخر لحظة ، لم تقع مقاومة عامة ، أو منظمة ، انمابضع حالات فردية قمعت على الفور ، اذن .. أساس العيد القومي الذي اختارته البلدية واقعة سرقة .

نمى ما تردد الى المسئولين ، وبالطبع اتهموا الجامعة ، وعناصر معينة فيها بالترويج لمثل هذه الشائعات الكاذبة ، التى تنال من التاريخ الوطنى ، كادت تقع أزمة ، ولكن لم تخرج تفاصيل هذا الصراع الى العلن ، فالخلاف مهما عمق له حدود يحرص كل طرف الا يتعداها ، ويظل هذا كله مجرد أعراض ـ تختفى حينا ، وتتجدد مرات أخرى ـ للخلاف الاكبر ، الاساسى ، ومحوره .. ايهما أسبق ؟ الجامعة أو المدينة ؟.

بالطبع ، لكل طرف حججه ، وأيضا وثائقه ، ومصادره ، وطرقه فى اثبات هذه النقطة أو تلك . واجتذاب هذا الطرف أو ذاك الى صفه ، لا يقتصر الأمر على الوثائق ، هناك الحكايات المتداولة ، شفاهة ، بعضها دخل فى عناصر العقائد المستقرة ، والعادات القديمة، الأصلية أو المكتسبة ، بل منها ما أصبح جزءا من حضور المدينة ذاتها، ومن أشهرها حكاية الفلاسفة الاربعين ، اطلع عليها فى كتيب صغير يصف أشهر آثار المدينة ، ومبانيها العتيقة ، وجده فى الحقيبة الصغيرة التى تضم أوراق المؤتمر ، ثم قراها مرة ثانية فيما بعد ، عندما انقلبت الترتيب ، وخرج عن طوعه .

الفلاســفة الأربعــون

.. يقال انه فى الزمن القديم الذى لا تسفر ملامحه الآن ولا تبين، قبل تكون المجتمعات وظهور الامارات ، قبل مجيء القومية الرئيسـية فى البلاد التى جاءت عبر هجرة جماعية كبرى من وراء الجبال القصية فى الشرق واستقرت هنا ، يقال انه قامت مملكة قوية فى جزر البحر المحيط النائية ، تعاقب عليها حكام عديدون ينتمون الى أسرة واحدة. حتى اعتلى أحدهم العرش وكان صغيرا ، طائشا ، ضيق الخلق ، فى عصره رجع الفلاسفة الذين رحلوا الى الشرق بأمر والده للاطلاع على الأمور وأخباره بها ، عادوا بمعارف جمــة ، وأخبار عجيبــة ، وأسرار كثيرة ، تحدثوا بهذا كله ، وأصغى الناس ، ضاق الملـك الشاب بهم . رأى فيما يرددونه عوامل جالبة للفتن والقلاقل ، أمر بالحوطة عليهم خاصة بعد أن تكلم احدهم عن طرق ممهدة ، ومصابيح تضيء ليلا ، وآلات تنبعث منها أنغام مرقصات ، مطربات ، وبيوت مبنية من حجارة ، قرر نفيهم ، أمر بترتيب قافلة تمشى أربعة شـــهور كاملة لا تنقص يوما ، شهران فى البحر ، وشهران فى البر ، آخر يوم تضع أحمالها ، تتركهم فى الموضع الذى تصل اليه ، جرى تنفيذ ذلك بدقة كاملة .

تركوا بمفردهم بعــد فك قيــودهم ، بدون زاد ، أو أية حوائج ، عندئذ بدأوا العمل ، لم يضيعوا لحظة ، كان عددهم اربعين ، وكبيرهم فى الخمسين ، فى المدينة أربعــون مقبرة ، تســع وثلاثون ظاهرة ، مطروقة ، أما المقبرة الاربعون فمجهولة ، موضعها خفى ، مندثر ، الجامعة تبحث عن ، والبلدية أيضا ، المقابر عند النواصى الظاهرة ، وفى الطرقات الضيقة ، واحدة فى الحديقة الدائرية ، على كل منها كتابة بالقلم الغريب الذى لا يفهمه الا ذوى الاختصــاص ، أهالى المدينة والنواحى المجاورة يتبركون بها ، يوقدون الشموع فى مواقيت محددة ، ويضعون النقود الفضية المستديرة فى أطبــاق صــغيرة مكشــوفة ، لا يقربها أحد ، غير معروفة الجهة التى تجمع النقود ، يقال انها ادارة الجامعة التى تحولها الى ميزانية قسم الآثار القديمة بكلية العـلوم

الانسانية ، الذى يتولى أعمال الترميم والصيانة الدورية . ، المعترف بها ، وهذا غير مؤكـد ، اذ يقول البعـض ان البلدية تجمع النقـود وتضيفها الى ميزانية المنشآت المدنية ، ويهمس آخرون أن ثمة اتفاقا قديما غير معلن ، غير موقع ، يقضى بتوزيع المبالغ مناصفة بين الجهتين، على أى حال لا يمكن القطع او التحديد مع أن الأمر ميسور !.

المهم .. بدأ الفلاسفة العمل . رتبوا أمورهم ، فكانوا أول من حدد مصادر الرياح ، وحاول كبيرهم التوصل الى عمـل يحد من خطرها ، وقيل حبسها واطلاقها عندما يهوى ، لكنه لم يصل .

انهم اول من حفر لاقامة أساسات البناء ، ومدوا الأسقف الواقية من المطر والشمس الصهدة والثلج ، واول من قسموا المبانى الى غرف منفصلة ، واقاموا الحظائر للحيوان ، وكشفوا عن مصـادر المياه فى الناحية ، وتحكموا فيها ، أقاموا ثلاثمائة وخمسة وستين صهريجا ملؤها بمياه الامطار . خصص لكل صهريج يوم واحد ، فاذا نفذ لا يملأ الا فى موسم الامطار التالى ، واذا بقى فيه مقدار لا يستخدم انما يترك ليتبخر ، ولم يعرف سبب ذلك . تحتفظ المدينة بعدد من بقـايا الصهاريج ، كشفت عنها التنقيبات التى تمت فى خمسينات القـرن الماضى . وقامت بها الجامعة . تحتفظ المدينة بمسارات بعض القنوات التى شكلت جزءا من شبكة تموين المدينة خلال العصور الوسطى ، تنظيم دقيق ، عجيب ، وصفها الرحالةوالتجار الذين دونوا ملاحظاتهم لكن أشمل وصف كتبه جاسوس ينتمى الى مجموعة الامارات‌الشمالية التى هددت المنطقة عامة والمدينة خاصة ، وصف نظام تموين المدينـة بالمياه ، حيث اعتبر النهير الصغير مصدرا رئيسيا ، هذا النهير ظهر بعد زمن الفلاسفة الاربعين ، اثر الزلازل المتواصلة فى القرن السـابع، تذكر بعض المصادر زلزلة الارض لمدة سبعة وخمسين يوما مما أدى الى تشـقق الجبال ، من شرخ صخرى عميـق نبع الماء وتدفق ، مجراه ضيق مفروش بالحصى ، يمكن رؤيته عند أعمق اجزائه ، منه تؤخذ المياه الى الصهاريج القديمة ، ثم تضخ بوسيلة لم تعرف بعد ، عبر قنوات صناعية تتفرع الى اخـرى أصـغر ، تمضى تحت الحـدائق والميادين ، يسمع خريرها وان لم تقع العين عليها ، أحيانا تتدفق من فتحات صغيرة فى الجدران ، يقال ان المياه كانت تمضى فى حركةدائرية بحيث لا تمضى الى مصب ، أو الى منتهى معين ، انما تعود لتتدفق فى المسارات ذاتها ، قال الرحالة العربى‌ابن فضلان ان المدينة تبـدو

وكأنها تمشى على الماء وبالماء ، هذه الحركة الدائمة أضفت عليهـــا حيوية ، لا مثيل لهذه المدينة فى العالم ، الا فاس فى المغرب الاقصى ، أساتذة الجامعة يقولون ان تصميم شبكة المياه الفريدة تلك موجود فى خزائن البلدية ، مرسوم على جلود غزلان ، لكن البلدية لا تفرج عنه ، ولا تسمح للباحثين بالاطلاع عليه ، وهذا ضار بالعلم ، عمدة البلدية صرح منذ عشرين عاما ان التصميم يعد من أدق الأسرار وانه يتصل اتصالا مباشرا بالخطط الدفاعية . لذلك يجب ابقاؤه سرا حــذرا وتحوطا ، ربما يقع أى حادث او عارض فى المستقبل .

نرجع الى الفلاســفة الأربعين ، انهم أول من جز صــوف الغنــم ، وغزلوه ، ونسجوه ، وأول من دبغوا الجلود وصنعوا منها أحــذية ، وأول من سلق اللحم والخضراوات ، أضــافوا المــلح الى الطعــام ، وصنعوا الأوانى لشرب السوائل ، واستخلصوا اللوف لهرش الجلد وحكه ، وهذبوا السواك لغسيل الاسنان ، كما انهم أول من حــدد الجهات الاربع الاصلية .

أمور عديدة تجل عن الحصر تنسب أليهم . ولكن ثمة اشــياء محددة ارتبطت بكبيرهم الذى لم يصل احد الى مقبرته حتى الآن ، فهو أول من حدد مواقيت الشروق والغروب ، وميل الظل ، ودخول العصر ، وفرق بين الفجر الكاذب والحقيقى ، ولحظات اكتمال الندى، وتحول الطل ، وتبخر المياه ، وأسس علم امتزاج الالوان ، كما عين الحد الفاصل بين اليقظة والنوم ، كما وصف الاحلام وفسرها ، توصل الى النتائج التى حددها ابن سيرين ومن بعــده سيجموند فــرويد ، وشرع فى عمل يحفظ ما يراه النائم بحيث يمكن استعادته ، لكنه لم يتمه ولم يتوصل ، انه اول من أشاد الى مستثيرات الذكرى وصنفها ، وفرق بينالاصل والظل ، والصوت والصدى ، اكتشف مركز الدائرة، ورسم مواقع النجوم الثابتة ، ولاحظ حركتها مع تقدم الليل ، وفرق بين الشكل المستدير والبيضاوى ، والمستطيل والدائرة ، والمثلث ، وهذا ليس بالهين فى أوانه .

غير أن انشغاله الاعظم كان بالوقت ، وهو أول من نطق « صباح الخير » . وسبب ذلك حالة وجد صعب نزلت به لسبب ما ، يقــال انه بدأ ارتخاء أعصابه ، وعدم قدرته على الجماع ، وفى رواية أخــرى انشغاله بالنهايات مع طعنه فى السن ، وادراكه استحالة الابطاء من سريانه ، أو التأثير فى ديمومته ، ذات يوم خريفى كابى اطال النظر

الى قرص الشمس قبل اكتمال غروبه ، بدا هلعا وكانه يرى ذهابه اول مرة ، صاح راجيا من صحبه مساعدته فى الامساك بالقرص الاحمر القانى ، ان غيابه يعنى غيابهم ، وذهابه يعنى ذهاب قدر منهم لن يعود أبدا ، الشمس لا تمضى ، انما هم من يرحلون ، وعند كل مغيب ينقص رصيدهم من الدنيا .

ضرب الأرض بقبضتيه ، يجب التأثير فى الدورة الحتمية ، الأبدية، حار صحبه فيما يجب عمله ، مع أن ثلاثة منهم كانوا على دراية بأحوال النفوس وتقلباتها ، وما يلحقها فى أ طوار العمر ، لكن .. ما بدا منه ذلك اليوم استعصى عليهم ، خاصة عندما اندفع لاهثا ، مزبدا ، محاولا ادراك قرص الشمس بأطراف أنامله .

يقال انه أمضى ليلا اليلا ، يرتعد كفرخ الحمام المبلول : يحيطه صحبه ، حتى اذا تبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ودنا الانبلاج ، تطلع الى حمرة الافق الشرقى ، وطفا من أغوار عينيه تعبير كابى ، بعد لحيظات تحول الى صحبه ناطقا :

« صباح الخير » .

صارت العبارة عرفا ، ثم عادة ، ثم جملة لازمة ، جرى اعتقاد فيما تلا ذلك أن الانسان اذا لم يفه بها لمن حوله ، فان الشمس ستمضى ولا ترجع ، ثم توارى المعنى الكامن من الافئدة ، ولكن الجملة انتقلت الى سائر اللغات المنطوقة .

عندما حانت ساعة احتضار الفيلسوف ، ولى وجهه تجاه الشمس ، قال معاتبا :

« لو اتبعتمونى » .

أدركوا أن الأمر قد شغله ، وان كتم ولم يسفر .

كيف تناسل الفلاسفة ، وتكاثروا فى هذه البقعة التى كانت خرابا عند وصولهم بدون صحبة امراة واحدة ؟ هنا تتعدد الروايات ، لكننا نورد اشهرها ذيوعا .

يقال ان ذلك جرى زمن نفى الفلاسفة ، فى بلد يقع الى المغرب الاقصى ، وقيل الى الجنوب ، وفى رواية أخرى ، ما وراء النهرين ، اذ حطت عند الفجر قافلة من اربعين امراة ذوات جمال وفتنة ، متقاربات الاعمار ، عندهن انوثة زائدة ، وخصائص تفردن بها ، منها بسوق القامة ، وتميز الاطراف والقدود وتبلور الارداف ، وصفاء المقل ، وتأودهن عند الخطو بايقاع لا مثيل له ، حتى قيل ان الرجل

الذى لا يستنفر عند رؤية تمايلهن لا أمل يرجى منه ، نزلن البلد واقمن فيه ، وقيل أنهن جئن من مدن نائية تقع خلف المحيط الاعظم ، فارقنها لأسباب غامضة ، بعد وصولهن ظهر تبدل فى سلوك النساء وتصرفاتهن ، اذ تجرأن على رجالهن وعظم اشتداد الرغبة عندهن ، بعضهن خرجن فى طلب الغرباء السالكين طريق الحرير العظيم • قيل ان الاربعين قمن بتلقين نساء البلد أسرارا لم يعرفنها وفنونا طال جهلهن بها • أكبرهن سنا تخطت الاربعين ، قيل انها اذا ضاجعت رجلا فانها تأتى من خفى الحركات ما لا يقدر على الصمود أمامه أعتى الرجال وأشدهم صبرا ومراسا • لحظة بلوغها الأوج وذروة المتعة تطلق صرخة ، نافرة ، غريبة ، خليطا من حشرجة وجعير ، من ضحك وبكاء ، تسمع فى أطراف البلد ، ولهولها تنفر الجياد والابل ، ما لم يشد وثاقه منها يفلت ويصعب رده .

زاد الأمر عن حده ، واضطربت الأحوال ، وشكا الازواج من تغير زوجاتهم ، وارجع الحكماء الطاعنون فى السن ما جرى الى اقامة الغريبات عن الديار ، قرروا نفيهن الى موضع بباب لا يمكنهن منه العودة ، وضعن قسرا فى قافلة صدر الأمر برحيلها لمدة ثلاثة أشهر كاملة لا تنقص يوما ، وعند النقطة التى يتم فيها الوصول يفارقنها ، وتشاء المصادفة أن ينزلن أرضا قريبة من موضع المدينة الحالى ، لا يدرى أحد من اكتشف الآخر ؟ الفلاسفة أو النساء ؟ . على اى حال وقع اللقاء ، ويحفل الادب القديم بحكايات عديدة محورها الشبق الوعر الذى تفجر بين الرجال المنقطعين عن العالم ، والنساء المنفيات بسبب اشتداد رغباتهن ، ويرجع البعض تعثر اعمال الفلاسفة اليهن ، ومن هذا اللقاء وقع التناسل ، ويؤكد الرحالة القدامى ومنهم ابن فضلان ، وابن بطوطة — فى رحلته الثانية — على جمال نساء المدينة ، وشدة ميلهن الى الرجال ، خاصة الغرباء ، واتقانهن لفنون الاثارة ، واظهارهن من الحركات والقدرات مالا يوجد فى نساء الامم الاخرى ، وما زال حالهن وتفردهن قائما ، ملحوظا ، لكن رغبتهن أصابها فتور بعد أن قام أحد أحفاد الفلاسفة باعداد تركيبة خاصة من اعشاب غير معروفة وضعها خفية فى مصادر المياه التى تمد المدينة ، ومنذ هذا الوقت ضعفت الشهوة عندهن ، لكنهن لم يفقدن ما توارثنه من فنون وحركات ، حتى قيل أن من لم يضاجع احداهن يموت جاهلا بالمرأة .

تفاصيل لقاء الفلاسفة بالنساء عديدة ، مثيرة منهم انحدر أبناء المدينة ، مصادر البلدية تقول كفوا عن انجاز العلوم وتحقيق الفوائد بعد اجتماعهم بالنساء ، لكن مصادر الجامعة تؤكد أنهم ابدعوا افضل ما قدموه بعد وصولهن ، والدليل ، تلك المسائل السبع التى صيغت والموجهة الى الابناء الصغار الذين ولدوا ، وتتضمن الاشارات والرموز ، ولاتزال معانيها متضمنة فى أسئلة الاختبار التى توجه الى المتحققين الجدد ، تغيرت صياغة الاسئلة ، لكن المضمون لم يتبدل الا قليلا .

المسائل السبع ..

اولها : ما الاشـــجار الاثنا عشر ، ذات الفـــروع الثـلاثين ، الظاهرة فى العالم كله ، ومع ذلك لا ترى ؟.

ثانيها ا ما الطائرات المحومات دائما ، لا مستقر لهما ولا محط ، ولا نقطة اقلاع أو وصول ، لا ماوى ولا فرع ، الى الابد يحوم كل منهما فى أثر الآخر فلا يدركه ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود ، ولا يدرى احد أيهما أسبق ؟.

ثالثها : من الفرســـــان الثلاثين ، هم فى عرض دائم ، فاذا عبروا نقصوا واحدا ، واذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد .

رابعها : ما الشجرتان اللتان يقف عليهمـا طائران ، كل منهمـا يصيح على الآخر . اذا طار من هذه تساقطت أوراقها ، واذا وقع على الاخرى ازدهرت وأورقت ، فتكون ناضرة ، والثانية ذابلة مدى الايام ؟.

خامســـها ما البـلدة الآمنـة التى هجـرها ناسـها وأقـاموا فى غيرها ، حتى اذا انتبهوا وأدركوا ، تطلعوا الى الرجعى .. لكن .. هيهات ؟.

سادسها : لماذا تنتصب قامة الانسان دون سائر المخلوقات ؟.

سابعها : لماذا توجد فى الوجه سبع فتحات ؟ وفى سائر الجسد فتحتان ، ولماذا تتكون فقرات العنق من سبع ؟ ولماذا يتكون الاسبوع من سبعة أيام ؟.

لا يزال جوهر هذه المسائل ساريا ، تحرص التقاليد على بقـائه كاحدى العلامات المتبقية من زمن الفلاسفة الاربعين ، الى جانب ملامح اخرى . منها أن عدد المجلس الاعلى أربعون عضوا .

عدد المسموح لهم من الاساتذة بحضور العشاء الاسبوعى أربعون.

أجازة نصف العام الدراسى أربعون يوما .

راحة ما بين المحاضرات أربعون دقيقة ، والوقت يحدد داخـل الجامعة بالمزولة الحجرية العتيقة ، ولا يعتد بالساعات العتيقة ، ولا يعتد بالساعات الحديثة المهداة والموزعة على مبانى الجامعة .

عدد القاعات الرئيسية اربعون ، من هنا تؤكد الجامعة أن الفلاسفة هم نواة أساسها المتين .

لكن .. فى المدينة علامات أخرى لا صلة لها بالجامعة . فمن ذلك عدد الشوارع الرئيسية ، انها أربعون ، والمبانى الرسمية اربعون ، لهذا تصر البلدية على انتماء الفلاسفة اليها ، هم الذين وضعوا لبناتها الأولى ، ما قاموا به متصل مباشرة بأساس تكوين المدينة ، بنشأتها ، بتخطيطها ، لذلك أقاموا امام المبنى الرئيسى للبلدية فى القرن الماضى تمثال الاربعين ، كتلة صخرية هائلة تبدو من خلال خطوطها وتضاريسها ملامح أربعين وجها ، والى أعلى ترتفع أربعون يدا فى اتجاه شمس تحملها الأنامل ، ثبت أربعين شعاعا ، تطال كل الجهات .

البـــــرج ..

... تفحص الخريطة ، متخذا موقع الفندق نقطة انطلاق ، المقر الرئيسي للجامعة ليس نائيا ، على مسيرة خمس او سبع دقائق ، لن يحتاج الى عربة اجرة ، تكفى مرة واحدة ، كان يجهل المسافة من محطة القطار ، من يهوى المشى مثله يمكنه أن يلف المدينة كلها فى أقل من ساعة .

هكذا شرع .

صباح هادىء ، وثير ، ضوء رخيم وطرقات مبلولة ونواص تثير الحنين ، سماء دانية توحى ببحر قريب من انه بعيد ، اربع ساعات بالقطار السريع ، أرصفة عريضة تحدها أقواس حجرية ، متتالية ، متاجر متجاورة ، مداخل بنايات قديمة مغلقة بالظلال ، تنبعث منها عتاقة رطبة ، واصداء مصائر متدثرة ، وبقايا لقاءات خلسة ، رخام بارد ، وسلالم لا تفصح عن كل درجاتهـا ، وشيىء ما يبعث على التذكر .

عبر ثلاثة مفارق ، ميدان مبلط بالحجارة ، فى المواجهة يقـوم البرج الكبير ، شاهق ، غامض ، ميله ملحوظ ، اصبح علامة عليه وسببا لذيوعه ، اختلف الناس فى سبب بنائه ، فمن قائل انه لغرض حربى يمكن رصد أى عدو مقترب ، وثمـة من يقول انه بنى كرمز للجامعة ، ولاجراء تجارب تتعلق بالجو والمناخ ، لكن التعليل الثانى لا يلقى قبولا ، ما معنى تشييد هذا المعمار المعقد ، الغامض الذى لم لم يكشف عن أسراره كلها بعد ، فى زمن كانت وسائل البناء فيه بدائية لمجرد ان يكون رمزا ؟. ما معنى ذلك ؟ هذا سخف ، على اية حال ، انه شعار المدينة الآن ، مرسوم على مفتاحها الذى تهديه البلدية الى كبار ضيوفها الرسميين ، أو عند اعلان التآخى مع مدينة أخرى نائية. مطبوع على البطاقات المصورة ، تباع نماذج من جص ، ومن نحاس ، وحديد ، ونيكل ، وفضة ، مختلفة الاحجام .

بعض الجامعيين يضمرون ضيقا قديما متوارثا ، فلولا مهندسو الجامعة لما انفردت المدينة بهذه الاعجوبة الهندسية ، لكن الاهم ..

ان البرج لم يكن رمزا للمدينة حتى منتصف القرن الثامن عشر . فالمدينة جامعية ، وأهم ما تضمه .. الكليات والمعاهد العلمية ، كان شعار المدينة نفس ما يراه الناس فى الدائرة الذهبية التى تتوسط غطاء رأس أقدم أساتذة الجامعة ، أنيق زجاجي ينطلق منه شعاع دخاني ، يتشكل منه وجه فتاة حسناء ترفع يديهــا الى أعلى رمزا للمعرفة ، بدأ الخلاف حوله فى ذلك الزمن البعيد ، وأوقف العمل به، حتى حسم الامر مع توحيد الدولة ، والاتفاق حول العاصمة المركزية، نجح رئيس البلدية وقتئذ ، وكان رجلا جادا . شديد الكلف بالمظاهر ، فى استصدار مرسوم مركزى بتغيير شعار المدينة ، ثم ضم البرج الى المنشآت التى ترعاها البلدية ، ودبر حملة دعائية بحيث أصبح من معالم البلاد ، ومقصد الاجانب ، وزاده غرابة ما يروى عنه من أحداث جرت فيه أو حوله ، او معتقدات قديمة تتخذه محورا . كذلك ميله ، ولون الحجارة التى شيد منها ، أحمر ياقوتى ، فى المكتبات عدد لا يحصى من المؤلفات حوله ، بعضــها علمى معمــارى ، او تاريخى وصفي ، او معلومات عامة للزائرين .

فمما ارتبط به من معتقدات ، شاعت واستقرت ، ان العاقر اذا خطت عتبته سبع مرات قبل شروق الشمس فانها تنجب ، ومن الباب الرئيسى ، ومن يشكو الما فى الدماغ يلف خيطا أحمر ، ومن يشعر بآلام المعدة يعقد خيطا إبيض حول احد المسامير البارزة من جفا حبيبه يتناول ذرات من التراث العالق بالدرج ويضعه فى مثلث ورقى بعد كتابة اسم المحبوب الجافى بمداد أحمر ، فانه يرق ويلين ويأتى طواعية باذن الله ، واذا غمضت المراجع ، واستبهمت الدروس على الطالب النجيب ، فانه يكتب اسمه على ورقة صغيرة ويلقى بها عبر احدى النوافذ المستديرة العليا ، عندئذ ينفك المعقود ، وتتضح المسائل المستغلقة ، هذا كله وغيره ، شائع منتشر بين القوم .

عرف البرج ايضا كمكان شهير للانتحار ، آخر حادثة وقعت منذ سبع سنوات ، كان غريبا ، افريقيا ، طويل القامة جدا ، نزل المدينة ذات صباح باكر ، لفت الانظار ، وتطلع اليه كل من رآه ، مشى فى الشوارع ، عبر الميادين . لم يتوقف عند مكان معين ، لم يتطلع الى نافذة أو لافتة ، حتى وصل الى البرج ، طاف حول بنــائه المربع سبعا ، ثم دفع مقابل بطاقة دخول ، كان أول الصاعدين ، صعد السلالم الثمانمائة بدون توقف ، حتى الشرفة المربعة ، نظر الى كل

الجهات بعينين مزرورتين ، وشفتين منفرجتين ، لحقه زائر ثان ، اعتاد المجيء هذه الساعة المبكرة لدراسة ضوء الشمس من خلال منشور زجاجي ملون .

بهدوء خلع الافريقي قميصه ، ثم بقية ثيابه ، ورتبها قطعة ، قطعة ، حتى أصبح عاريا كما ولدته أمه ، وفيما بعد قال الطالب انه هلع وظنه ينوى امرا ، لكنه بدا غير منتبه الى وجوده أو وقوفه على مقربة ، توقع قيامه بأداء طقوس معينة يجهلها ، تمت الى بلده او الى جماعته ، خاصة عندما عقد يديه أمام صدره العارى ، لكنه فوجىء بوثبة مفاجئة ، خاطفة ، يجتاز بعدها السور الى الفراغ ، وعندما تجمعوا حول جثمانه الذى تمدد أمام المدخل تماما ، كان لا يزال محتفظا بوضع يديه أمام صدره .

لم تعرف هويته ، أو الجهة التي ينتمى اليها ، لم يعثر على اى أوراق ، ولم يبلغ أحد عن غياب مفقود ، راح الافريقي على حاله ، ودفن فى مكان مجهول ، وتردد أن جثمانه انتهى الى احدى قاعات المستشفى الجامعى لاجراء تجارب ، انقطع أثره ونسى أمره فى الخضم اليومى ، لكن بعد مرور اربعين تناقل حراس البرج ما رآه أحدهم ، ثم تأكد فى الليالى التالية ما ظنوه وهما ، الافريقى يظهر أعلى البرج ، ويطوف حول السور عاقدا يديه امام صدره ، ويخطو فى الفراغ منحنيا الى حد ما . اكد آخرون انهم شاهدوه من مسافة نائية ، وقدم طيار هيلوكبتر تقريرا الى قيادته المتمركزة خارج المدينة حول ما رآه أثناء تحليقه فى مهمة تتعلق بأمن الدولة الاتحادية ، بعد وقوع هذا الحادث ، وظهور تلك الشواهد ، صارت الزيارة ليلا غير مرغوبة ، حتى بعد اضاءة البرج ، ولم يقدم عليها الا الغرباء الذين يجهلون ، لكن ليست هذه اشهر الحكايات .

فى الاربعينات وصلت الى البلاد أميرة تنتمى الى العائلة الملكية فى بلاد الانجليز ، جميلة ، أمرها معروف ، دارسة للآثار ، وقيل انها تنوى البحث عن مقبرة كبير الفلاسفة الاربعين ، والتى لا تزال غير معروفة ، ومما يتردد فى كتب الاقدمين انها تضم أوراقا من البردى تحوى العلوم والمعارف كلها .

طبعا تنشأ نزاع ، من يستقبلها ؟ عمدة البلدية او رئيس الجامعة ؟ اضطرت السلطة الاتحادية الى التدخل اتقاء لفضيحة خارجية ، مع أن صادراتها فى هذا الشأن نادرة . تقرر أن يستقبلها عمدة البلدية

فى محطة القطار . وأن ينتظرها رئيس الجامعة امام كلية العلوم الانسانية ، على أن يصحبها نائبه من الباب الخارجى ، وهذا ما تم بالفعل ، الا أنها سببت ارتباكا عندما طلبت زيارة البرج قبل غروب أول أيامها فى المدينة ، رغبت فى رؤية قرص الشمس الآفل من العلو الشاهق ، الماثل .

مشكلة !.

الاميرة شخصية هامة ، ويجب اتخاذ الحوطة ، وترتيب اجراءات بحراسة خاصة ، المبنى غامض ، كثير من فراغاته مجهول حتى الآن ، ثم زاد الأمر تعقيدا عندما أبدت رغبتها فى الصعود بمفردها قصد التأمل الهادىء .

هى ميساء ، ذات رفعة أنوثية ، بريقها داخلى صميم ، يتوهج فى لحظات المودة والقربى ، ويخفت فى الاحوال العادية ، لكنه يشع كدفء خفى المصدر ، معجبوها كثر ، منهم سليلو أسر نبيلة ، وأثرياء، وأمراء من أقصى آسيا ، ونجوم سينما ، وأبطال رياضة .

لكن الغريب العجيب انها لم تعجب ولم تعشق الا رجلا من صعيد مصر . بالتحديد من قرية القرنة .

عندما زارت مصر استقبلها الملك ، نزلت فى فندق مينا هاوس لتطل على الاهرامات صباحا ومساء . ثم سافرت باليخت الملكى « قاصد خير » الى بر الاقصر ، وخلال أيامها النهرية كتبت رسائلها الشهيرة ، فى الاقصر احتفى بها القوم ، رتبوا جولات متانية ، دققت وأمعنت الفرجة ، أبدت اعجابا بما رأت ، والماما بالتاريخ الفرعونى القديم ، عند تأهبها لدخول مقبرة الاميرة نفرتارى ظهر رجل مقدد الوجه ، بارز عظام الترقوتين ، باسق القامة ، قدمها اليها مفتش آثار الناحية باعتباره الوحيد الذى يحفظ الرسوم والنقوش ، بل ويتقن اللسان الفرعونى القديم ، اضافة الى سبع لغات اجنبية منها البولندية .

كان مهيبا ، طويلا كجذع نخلة ، راسخ النظرة ، متانى الخطوة ، متين الملامح ، بعد نزولها المقبرة ابدت رغبتها الشديدة فى قضاء ليلة بوادى الملوك ، احدثت ارتباكا ، اضطر مدير الناحية الى ارسال عدة برقيات ، لم يأته رد واضح ، لا من القصر ، ولا من وزارتى الداخلية أو الخارجية .

ازاء اصرارها . واعلانها تحمل المسئولية خضع الجميع . لم تصطحب

الا حارسها الخاص ، كان عارفا ، عليما بأحوالها ، اشتهر بصمته ، بعد وفاتها أعلن فجأة انه سينشر مذكراته ، لكنها لم تظهر قط ، نتيجة تدخل القصر .

المهم .. نصبت خيمة للأميرة في الصحراء ، تحت سفح تل مرتفع مشرفا على وادي الملوك ، مع ارتفاع القمر شبه المكتمل ظهر رسول ، اقترب راسخا ، واثقا ، غامضا كطيف يسعى ، جثث ، صبت الماء المعطرة من ابريق نحاسي ، غسلت قدميه ، في هذه الليلة تردد صوتها في الوادي العتيق حتى تعجب حارسها الخاص من قدرتهـــــا على الاحتمال ، قيل ان رسول ضاجعها ستة عشرة مرة ، وعنـــــدما سألته ، اهتز عادة أهل البلاد ! هز راسه نفيا ، مشيرا الى صدره . لا يدري أحد ما جرى بالضبط ؟ . كيف اقنعته بالرحيل معها ؟، سحبها الى بلادها . قيل كتبرير انه ماض لتعليمها اللغة الفرعونيـــة التي يتقنها . اشترت قصرا قديما مهجورا ، اقام فيه منذ مائة وعشرين سنة أحد افراد اسرة البوربون ، لجأ الى القاطمة بعد نشوب الثورة الفرنسية . كثر ترددها عليه ، صارت تقضي بصحبة رسول يومين أو ثلاثا كل اسبوع . لوحظ تغير جسدها . اذ عظمت عجيزتهـــا واتسع حوضها ، وتغيرت مشيتها ، صارت ابطأ .

لم يدم الأمر طويلا ، بعد ما يقرب من ثلاثة أشهر بدأ شرود في عينيه ، ازدادت اطراقاته ورسمه خطوطا متقاطعة ، متعـــامدة فوق الأرض ، فشل كبير الاطباء الملكيين الذي جاء اليه سرا في فض سره . قال للأميرة انه على مايبدو يعاني حالة اكتئاب شديدة لافتقاده المنشا والوطن ، لابد من ذهابه الى بلده ، غير انها أبت ، أكثرت من ترددها عليه ، وقضائها أوقاتا طوال الى جواره ، وأبدت فيضا من مشاعر ، لكنه لم يستجب ولم يزدد الا حزنا وكمونا ، صباح أحد الايام ظهـــر عدد من الرجال بينهم شاب انيق يمسك لوحات عديدة ، علقها الى حامل خشبي وصار يقلبها ، ويخط في دفتر ابيض ، فرش العمـــال الأرض غير المستوية بالرمال ، رمال صفراء غامقة تتخللها شجيرات قصيرة مما ينبت في جنوب مصر ، ثم غرست سبع نخلات ليـــلا ، وصارت مقصدا ومزارا فيما بعد ، كثيرون من أهالي البلاد لم يسبق لهم رؤية النخل الا في لوحات الرحالة الذين قصدوا بلدان الشرق . عندما اكتمل الأمر وشلت الأميرة ، بدت مبتهجة ، راضية عن العمل الذي تم ، كان جزءا متكاملا من العـــالم النسائي انتقل الى الريف الانجليزي . لم يبد رسول مجاوبة ، كان الأمر لا يعنيه ، لا يمت اليه ،

صار ذاهل النظرة محملقا الى بعيد ، فى كل يوم يتناقص وزنه . حتى حط تماما .

وجدت عليه الأميرة وجدا شديدا ، بعـــده مالت الى انطواء ، وتعددت اسفارها ، حتى عدت فى مجاج دائم ، لا يستقر بها مقـام ، لم ولن يدرى احد ما جال بخاطرها ، او أى صور تواردت عليهــا عندما طلعت البرج الشهير ، اما ملامح وجهها فلم تسفر ولم تنبىء بشيء ، صار أنتحارها المفاجيء ، امراً باعثا على الحيرة ، ومبعثــا لتخمينات شتى ، لفترة خاضت الصحف فى الامر ، بل صـــدرت كتب ، واشير الى رسول طبعا ، لكن لم يتأكد ارتباط انتحـارها بحزنها عليه . لو صح لأودى بها عقب وفاته ، لكن ثمة فترة فاصـلة مقدارها ثلاثة اعوام ، اما علاقتها به . فقيل انها مجرد نزوة امـرأة غريبة تجاه رجل بدائى !

وبالرغم من الالم الذى عبر عنه عمدة البلدية فى خطـاب العزاء الرسمى ، وقيامه بمرافقة الجثمان حتى المطار المحلى ، واداء المراسم الخاصة بما فيها التحية العسكرية ، وتنكيس الاعلام لمدة سـبعة اياما ، بما فيها العلم الاتحادى ، والاعلام الجامعية ، وبالرغم من مظاهر الاسى ، فان البلدية بدأت على الفور التخطيط لاستخدام انتحـارها كعنصر دعائى ، وضعت حلقة معدنية عند النقطة المفترض أن الأميرة تجاوزتها الى العدم ، ليتوقف عندها الأدلة والشراح . كما تضمنها الكتاب التذكارى المئوى .

غير أن حكاية ابن امبراطور الصين أقرب واعجب .

ذلك انه جاء الى الجامعة متفقدا وزائرا ، قرر والده ايفاده للاطلاع على مايجرى فى الاقسـام العلمية ، عند وصوله تم حل المشكلة التى نشأت ، من سيستضيفه ؟ . الجامعة التى سيدرس بها ، او البلدية باعتباره ضيف المدينة البارز ؟ ، اتفق على أن يقيم أسبوعا كضيف على الجامعة ، وأسبوع للبلد . وعندما جاء .. ابدى رغبتــه فى الاقامة بالفندق الكبير . اقدم الكنادق وافخمها ، نزل فى الجنـــاح الملكى ، وعلقت صورته فى الممر المؤدى بجوار الذين حلوا من قبل . استقر ، وعلق علم البلدية فوق المدخل ، فى نهاية الأسبوع الاول رفع شعار الجامعة ، هكذا بالتبادل ، اعلانا عن الجهة المضيفة ، ربما لم يلحظ الأمير ذلك .

فى نهاية الاسبوع الرابع وجهت اليه الدعوة لزيارة البرج ، ابدى الأمير اعجابه بالبناء السامق ، الماثل ، قال انه يوجد فى الصين برج

آخر لكنه ليس متأكداً ، أيهما أعلى ، وأيهما أكثر ميلا ، قال ان البرج الصيني يرتبط بملك عاش في التاريخ البعيد ، في عهد الممالك المتحاربة، وانه أراد الوصول الى السماء وملامسة النجوم ، أمر باستمرار صعود البناء ، وخيل اليه انه عند حد معين سيجتاز الحد ، بذل المهندسون جهدا حتى ارتفعوا به فوق الغيوم ، تردد ذكره في البلاد النائية ، وقف ابن بطوطة على بقاياه ، وصفه اثناء ترحاله في بلاد الصين ، لا تكشف النصوص القديمة عن أسباب انهياره ، أو توقف البناء ، وقيل أن الملك أصيب بمرض غامض أودى به كعقاب رادع من السماء ولا تزال البقايا منتصبة ، قاس الامير ارتفاع البرج بمساعدة ثلاثة من مرافقيه ، من خلال حركة الظل وانتقاله عبر أوقات النهار المختلفة، اتبعوا أساليب قديمة ، معقدة ، وآلات حسابية غير معروفة في الجامعة ، انهم أول من حدد الارتفاع بدقة ، ودرجة الميل ، ومقدار زيارته كل سنة شمسية ، لكنهم لم يبلغوا احدا بنتائج القياس المقارن ، أيهما أعلى ؟ برج المدينة ، أو البرج الصيني ؟

توجه الامير ثلاثين مرة ، في العشرة الاوائل لم يصعد ، اكتفى بالطواف حوله ، ومعاينة أحجاره ، والتطلع من زوايا مختلفة ، وفي المرات العشر التالية اتم القياسات ، ثم بدأ صعوده ، ابدى اعجابه بالقدرة على استغلال الفراغات الداخلية المحدودة ، وفي المرة الثلاثين أبدى رغبته في دخول الحجرات السبع الموزعة على الارتفاع الشاهق، دخل الاولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة مبديا همة عالية ، مستنفرا كل طاقته ، مشرعا أدق حواسه ، كان يدخل بمفرده ، بينما يقف مرافقوه فوق السلم الحجري الدائري ، اثنان صينيان ، وثالث من رجال البلدية ، بدأ تعبهم ، وتسمع لهاثهم . قرب نهاية السلم الدائري ولج الغرفة السابعة ، وعندما طال تفقده، شعر مرافقوه في البداية أنهم منحوا عدة دقائق للراحة ، لكن الوقت مر ، والدقائق توالت ، ولاحت نذر ، عندئذ تقدم اكبر المرافقين سنا ، نادى بصوت خافت ، ثم بصوت مرتفع ، التفت الى زميله ، بجسم ولج الغرفة ، الضيقة ، المعتمة ، التي لا مخرج آخر لها ، وعندما أطل بدأ مختلط التعابير ، لم يجد أثرا للأمير . وحتى الآن . يقف الادلة ، قائلين باختصار .

« هنا اختفى أمير الصين .. »

لغز لم يحل ، وأحجية لم تفسر ، وبالرغم من تغير نظام الحكم في الصين ، وقيام الجمهورية ، ثم اعلان النظام الشيوعي ، فان طلب

البحث عن الأمير يتجدد كلّ سنة ، بل أن ماوتسي تونج بعث برسالتين الى الرئيس الاتحادي ، احداهما اثناء الثورة الثقافية ، وكلف سفيره بمقابلة عمدة المدينة ، ثم تكرر الأمر فى كل سنة مرة ، يتم خلالهـا الاشارة الى الاثر السلبي لاستمرار الغياب على العلاقة بين البلدين .

تعددت التفسيرات فى ذكر أسباب الالحاح الصينى رغم تبدل النظم والعادات ، فمن قائل انها العادات الموغلة فى القدم ، وثمة من يؤكد ان الأمير يعرف مواضع أخفيت فيها كنوز الأسر المتعاقبة . لكن الاغرب بدء ظهور بعض ذوى الملامح الصينية فى المدينة ، جاءوا فرادى على مسافات زمنية متباعدة ، حتى أن وجودهم لم يلحظ الا بعد الاحصاء الجامعى للسكان والذى يتم مرة كل عشر سنوات ، وجدوا شارعا باكمله يقطنه الصينيون الذين حصلوا على تصاريح اقامة دائمة ، واتقنوا لغة البلاد ، ولهجة المدينة كأنهم ولدوا فيها ، لكنهم لم يبدلوا ازياءهم ولا عاداتهم ، ولقنوا أطفالهم فى البيوت لغة الاباء والأجداد ، ثم تزايد عددهم ، حتى عرفت المنطقة الغربية المحاذية للبرج بالصين الشعبية ، وذلك لازدحام شوارعها واذقتها ، ومعالم الحياة البادية من لافتات كتبت بالحروف الصينية ، وكرات حمراء معلقة أمام البيوت، ومداخل المطاعم ذات الخشب الملون ، هرمية الشكل .

يوم اختفاء الأمير ، فى كل عام ، يتوجهون الى البرج ، يصعدون السلم الدائرى فى هدوء وترتيب ، يؤدون صلاة خافتة ، يبدون حزنا وأسفا ، ثم ينصرفون بهدوء ، امن البلدية أبدى انزعاجه فى البداية؛ لكن العمدة قال ان التقاليد تحرم التصدى لهم ، ماداموا لم يلحقوا ضرراً بالآخرين ، ولكن المسئولين عن الأمن لزموا الحذر ، وصـدر قرار خفى بتخصيص فرع لشئون الصينيين وأحوالهم ، خاصة بعد معلومات تؤكد أن اختفاء الأمير ، ومجيىء هؤلاء له علاقة ما بمقبرة كبير الفلاسفة الاربعين .

بعض الجامعيين لمحوا الى دفعهم مبالغ كبيرة الى مسئولين فى البلدية للمساعدة على توطينهم ، وان ثمة هدايا ثمينة تصل فى وقت معلوم من تجار أثرياء يقيمون فى أوروبا وأمريكا وبلدان الخليج العربى، كما أنهم يدعمون تلك الجالية الصغيرة بوسائل شتى ، حتى تستمر اقامتهم الى لحظة موعودة يظهر فيها الأمير المختفى ، والمحتجب لاسباب ربما يكتمها كبارهم .

هذا اغرب ما سمعه من حوادث حول البرج ، لكن ثمة واقعـة أخرى علقت بذاكرته ، وأستعادها فيما بعد مبتسما ، ذلك انه تولى

البلدية عمدة قصير القامة ، بقدمه اليمنى عرج خفيف ، جرى ذلك عقب افتتاح قناة السويس مباشرة ، واتصال البحرين الأبيض والأحمر ، كان رجلا حسن السمعة ، طيب الاقامة ، نظيف اليد ، صارما ، دقيقا ، وخلال ولايته القصيرة حقق مكاسب جمة للبلدية على حساب الجامعة ، ضمن ذلك مسئولية البلدية عن جميع شوارع المدينة . بما فيها المحيطة بالمباني الأثرية ، وصهاريج المياه ، وأضرحة الفلاسفة التسعة والثلاثين . والتي تفصل مبانى الجامعة أو تؤدى اليها .

شق ذلك على الاساتذة حتى أقدم أحدهم على اشعال النيران فى نفسه ، ولم يستطع أحد انقاذه ، لكن تمت معالجة جمجمته واضافتها الى الغرفة الخاصة بالمستشفى الجامعى والتى توجد فيها جميع جماجم الاساتذة الكبار ، أو الذين نبغوا وقدموا أعمالا استثنائية منذ تأسيس الجامعة .

ادى انتحاره الى أمرين ، الأول ، إيقاف الاجراءات الخاصة بمد سلطة التفتيش المعمارى الى المبانى الجامعية ، والثانى وضع علامات مميزة فى الشوارع والطرقات التى تتبع ممتلكات الجامعة ، اتفق على تمييزها بصف براميل حمراء ، وأخرى بيضاء فى كل طرقات المدينة التابعة لاشراف البلدية ، على أن تخصص لجمع القمامة ، وهذا فارق دقيق لا يلحظه الزائر العابر ، كما انه يثير دهشة البعض، لكن بقاء البراميل مثبتة الى قواعدها من عوامل الاستقرار فى المدينة، ومنذ سنوات جرت محاولة استبدال القديمة الخشبية بأخرى من البلاستيك القوى ، محلى الصنع ، لكن مجلس الجامعة الرئاسى عارض بحجة عدم المساس بالتراث ، فاتفق على أرجاء الموضوع الى وقت آخر ، ومرت سنوات بدون أن يتم ذلك .

المهم .. كان عمدة البلدية الأعرج ، مراعيا للتقاليد ، محبا للتفقد ، فى زمنه تم تجديد الزى الخاص بحراس المدينة ، وقوات الأمن ، ومن أقواله المأثورة التى كتبت على لافتات ، وطبعت مرارا ، ما ذكره فى حفل استعراض قوات المطافىء بعد تغيير أزيائها ، اذ قال انه ليس معقولا دخول القرن العشرين بملابس تمت الى السادس عشر ، عرف فى الوثائق بالأعرج ، وبين الناس بالمتفقد ، اذ كان يمر يوميا على مبانى البلدية ، يتأكد من نظافة المكاتب ، وسلامة الأبواب، والنوافذ ، والمداخن ، ودورات المياه ، وانضباط الأمور ، وحضور الموظفين فى المواعيد المقررة ، يفتش حرس البلدية مرتين ،

الاولى صباحا ، والثانية مساء ، كان الحرس يصطف فى كامل الهيئة فى الساحة المبلطة برخام وردى ، وعندما يرفعون بنادقهم ، ويشهر القائد علم المدينة ، يبدأ مشــــيه المتمهل ، البطىء ، لم يقم بمرور كلى ، انما حقيقى ، متمهل ، مرتديا المونوكل فوق عينه اليمنى ، يتوقف امام ثنية القميص ، أو عند بقعة باهتة لا تلحظ الا بصعوبة ، ومما شاع أنه زار يوما مدينة البندقية ، أعد عمدتها استقبالا رسميا جرت مراسمه فى ساحة البلدية ، فى صفين متوازيين وقف الحرس الايطالى المنضبط ، الذى تم اختياره بعناية من جنود متشـــــابهى الملامح ، والاطوال ، يرتدون الزى الرومانى الأصلى ، فوجىء القوم يتوقف الأعرج قبل وصوله الى محاذاة العلم وقيامه باداء التحية ، أبدى التأفف ، أشار الى حشرة فى حجم البرغوث ، ميتـــة ، عالقة بياقة الفرو البيضاء ، تساءل مشمئزاً : ما هذا ؟ ونشبت أزمة خفية احتاجت وقتا لمعالجتها .

اسبوعيا يتفقد قوات المطافىء ، خاصة يوم الأحد ، يستعرض العربات ، وأدوات الاطفاء ، يطمئن الى سلامة المضخات ، وخراطيم المياه ، أيضا .. انضباط الجند .

فى الايام الاولى من كل شهر ، يقوم بتفقد مفاجىء لمحطة الســـكك الحديدية ، ومحطة تنقية مياه رى الحدائق ، والكهـــرباء ، ومبنى البريد ، ومركز السيطرة على مصابيح الشوارع ، ودورات الميـــاه العامة ، وسوق الخضار والفاكهة الرئيسى ، والمسلخ اليدوى ، كثيرا ما توقف أمام صناديق البريد العمومية ، ليتأكد من جمع الخطابات فى المواعيد المحددة ..

قبل بدء العام الدراسى يتفقد فصول المدارس الابتـــدائية ، والكتب ، والكراسات ، ومن المؤكد انه تحرق شوقا لتفقد منشآت الجامعة ، لكنه لم يشرع بسبب نصيحة أكبر الأعضاء سنا فى مجلس البلدية الذى نصحه بارجاء ذلك ، لأن الظرف غير موات .

اكتفى بزيادة المجاملة التقليدية ، والتى يتابعها أهالى المدينـــة والطلاب بسخرية ، كان حلمه ـ كما يؤكد المقربون ـ أن يتفقد منشآت الجامعة ، لكن لم يحدث ذلك قط ، اذ جرى له ما لم يتوقعه أحد .

صباح اثنين مشمس ، دافىء ، اتجه اتفقد البرج ، امام المبنى تمت الاجراءات المعتادة حيث استقبله كبير مهندسى البلدية ، ورئيس قسم آثار العصور الوسطى بالجامعة ، وهو من الشخصيات المعروفة لارتباط اسمه بالحفاظ على المبانى العتيقة ، وتدبيره الخطط لصيانتها،

والعناية بها ، وابرازها فى أحسن صورة للناظرين ، تشرف البلدية على البرج ، لكن الترميم والحفاظ على الطابع ، فمن اختصاص الجامعة . طلع الدرج يتقدمه كبير مهندسى البلدية المعتمدين ، فى الضوء الخافت لمح شقا فى الجدار لم يره من قبل ، توقف ، اتخذ الوضع الصارم للمتفقد . اتجه ببصره الى الاستاذ الجامعى ممهدا لالقاء المسئولية . مد يده صوب الشق ، انتفض بغتة ، صرخة وعرة بددت جموده ، تورمت أصبعه بسرعة ، الحل الوحيد ـ كما قيل فيما بعد ـ بترها فى نفس اللحظة ، لكن .. أين المعدات ، أين من يمكنه القيام بذلك ؟

حية صغيرة ، دقيقة ، محنطة الآن فى متحف الاحياء الطبيعية بالجامعة ، تنتمى الى فصيلة نادرة جدا لا توجد الا فى الصحارى الجنوبية ، كيف وصلت هنا ؟

قيل تفسيرا . فى الزمن القديم استخدم المحاربون قنابل تقذف بالمنجنيق . لم تحو حجارة أو بارودا ، انما ثعابين فتاكة تم جمعها من بقاع شتى لقصف القلاع محدودة المساحة عند الحصار ، او المراكب البحرية عند التلاحم ، ويبدو أن البرج تعرض لحصار ما غير معروف الآن . وان منجنيقا محشوا بالحيات انفجر داخله وعشش بعضها فى الزوايا الخبيثة وتناسل حتى جرى ما جرى .

المهم .. راح العمدة الاعرج بسبب عضة ، ومع مرور الزمن بهت خبره ، عدا السخرية الهادئة التى تلوح عند استعادة حبه للتفقد .

البوابات السبع ..

.. يمثل البرج الى غير مدى ، الاحساس بحضوره قائم حتى وان أولاه ظهره ، أو حالت دونه جدران ، لانتصابه الفارة بعد انساني غامض ، فكأنه يرقب كل ما يجري بوسيلة ما ، ربما لهذا السبب تضمن المعتقد القديم عنصرا يجعل أهالى المدينة يتجهون اليه بوجوههم عند نومهم ، او يتطلعون اليه قبل رحيلهم ، والعجائز يلمسون أحجاره ويخاطبون بواباته الصغيرة ، بعبارات متوارثة ، أجرى قسم الاجتماع بكلية العلوم الانسانية بحثا حولها ، وأفرد له التليفزيون الاتحادى حلقة خاصة فى برنامج « أمسية ثقافية » .

يتطلع اليه بعد تجاوزه ، حجارة صغيرة قامقة الحمرة ، تماثيل صغيرة حول الافريز الرخامى أعلى المدخل ، فتحات دائرية متعافية على امتداد الارتفاع ، ثلاثمائة وست وستون ، عند شروق الشمس تنفذ أشعتها من فتحة معينة ، ولا يتكرر الامر الا بعد سنة ، وهذا عجيب !

طبقا للخريطة يلزم الجانب الأيسر ، منحدر قليلا ، الأقواس تحد جانبيه ، أعمدة مرمرية ، لوتسية التيجان ، يتغير لون البراميل الموزعة على الجانبين ، حمراء الآن ، هواء بارد ، منعش ، تفد اليه رائحة ما ، مبهمة ، مستعصية على الشرح أو التفسير ، تستنفر لحيظات نائية من ثنايا ذاكراته ، وقت خروجه الصباحى الباكر فى سنوات عمله الاولى ، يقف على محطة الحافلات ، يبدأ توافد طالبات المدرسة الثانوية ، كن نافرات النهود ، خفرهن باد وان بدت عيونهن هجومية ، هكذا يراهن الآن بعد مضى أكثر من ربع قرن ، يلمح اقبالهن على الدنيا ، يقفن متقاربات ، هامسات أو ضاحكات ، متطلعات خلسة هنا أو هناك ، عند لحظة معينة تقبل ، نضرة ، فواحة ، تقف مختالة فى سكونها ، فواحة فى حركتها ، حتى اذا هزت رأسها لتلملم شمل شعرها ، لظهورها زلزلة ، عند ركوبها المتمهل ترمقه خلسة ، فضولية ، مستفسرة ، تتصل العيون لثوان مارقات ، غير أن الامر لم يتعد حدود النظر ، لم يفض الصمت قط ، خجل أول العمر ، نما عنده وتبدد مع تقلبه فى البلاد والسنين ، أثر يبدو منه فى لحظات

التقارب الأولى مع كل أمرأة يشرع لاجتياز عالمها ، لكم دنا ، لكم اتحد، بعض من انصهر جسده داخلهن نسى ملامحهن ، عبثا يحاول التذكر، ولكن اذا هفت عليه تلك اللحيظات النائية ، واطل الوجه الذى لم يعرف الا النظر اليه من بعيد ، فان قلبه ليدفق ، كأنهـــا ماثلة ، شاخصة اليه ، لحظات نهارية ، لا تواتيه عند مروره بالمكان القديم، انما تنتفض حية اذا هب مثـــل هـــذا الهواء الهين ، انوثى اللمس والسريان ، يذكر قامتها ، سموقها ، اهتزاز ثوبها المسدل على أردافها وبطنها الأخمص بدءا من خصرها النحيل ، تدب عنده رغبة ، فكأنه يتمنى مضاجعة الهباء ، عناق الهدف ، ربما سادرت العالم كله ، ولو ظهرت أمامه الآن ، هل ستعرفه ؟ . يستعيد وقفته فى مواجهتهـــا أو بالقرب منها فيرى نفسه مكتملا ، كأنه يتطلع الى ذاته من خارجها، فلا يرى الا غريبا عنه ، احقا يمت الى نفســه ؟ ، تلك الملامح ، هذا التردد ، الأحاسيس البكر الغضة ، النزوع الى انطواء ، الشروع فى الحنين الوعر ما قبل الغيب ، ثقل الوحدة ، السعى الى الصحب .

فترة نائية ، منقطعة ، منبثة ، عمر مكتمل ، معلق ، لا يمكن فضه ، أو التعلق بوشائجه ، تتمهل خطاه عند المنحنى ، يستعيد اللحظات المندثرة فى ارض يطأها لاول مرة ، لم يتخيل انه بالغها فى هذا الاصباح المزهرية البعيدة . حتى لو انها تسعى الآن فى مكان ما ، فهى ليست موجودة بالنسبة له ، يتعلق باللامرئى ، وينتشى بالخواء! يتوقف ..

انه فى مواجهة بوابة حجرية ضخمة تتوسط الطريق ، تقســمه نصفين ، اشبه بقوس نصر ، لكنها ليست كذلك ، لا تؤدي الى شيء ، من فراغ الى فراغ ، كل الابواب تؤدى الى حيز محدود ، عدا تلك ، فمن أين الدخول ، والى أين الخروج ؟ ، حجارتها بادية ، مستطيلة ، صفراء ، لون مختلف عن الوردى الغامق الذى يوحد مبانى المدينة، عددها سبع ، اسهم صغيرة تشير الى مواقعها فى الخرائط والنشرات السياحية ، الغرض من بنائها مجهول ، خاصة انه لا توجد لوحات تذكارية ، أو اى اشارة تحدد تاريخا أو زمنا بعينه ، لا نقوش أو حروف أو نحت ، بوابات صارمة ، العارضة العلوية شبه مثلثة ، أطلق عليها السكان أسماء من خلال المعايشة والموقع ، تلك التى مر بها اسمها « الجامعة » ، اما البلدية فترقمها وتعتبرها من الآثار العتيقة التى يمنع المساس بها أو البناء بجوارها ، ويقال ان ثمة خطة للتنقيب عن أسرارها ، لكنها لم تتم بعد ..

للمدينة أربع بوابات رئيسية تتخلل السور القديم ، لا تزال بعض أجزائه قائمة ، كل منها تواجه احدى الجهات الأصلية ، منها تمتد الطرق المؤدية ، وضع أساسها الفلاسفة ، أما البوابات الداخلية السبع فمجهولة المنشأ .

يمضي متمهلا ، مسرورا لفرصة المشي المتاحة الآن ، فى موطنه لا يمكنه ذلك ، الانشغال دائم ، والارهاق واقع ، أحيانا يمضى اليوم بدون خلوة الى ذاته ، واذ يستعيد أيامه المتتالية لا يلمح حدثا بارزا ، أو أمرا ذا خلاصة ، فيضيق بالرتابة ، وذهاب الأوقات سدى ، يتسع الطريق .. فيستعيد ساحة فندق قديم اعتاد أن يمضى اليه طفلا بصحبة والده ، ليلتقيا بالقادمين من البلدة النائية ، وبعض الرواد الذين ارتبطت بهم الوشائج وأصول الصحبة ، لماذا تذكر هذه اللحظات النائية الآن ؟ ماذا استثارها ، وما الذى استدعاها ؟ .

يعجب لقانون الذكرى ، لماذا تفد لحظة دون أخرى ؟ ، ترد عليه شوارع فى مدن عديدة نزلها ، انه يمضى متمهلا ، مستكشفا مدينة جديدة ، ربما لن يبلغها مرة أخرى ، ولكنه يطلع فى الوقت عينه على مدينة أخرى تمتد داخله ، من شظايا أماكن أقام بها مددا متفاوتة ، مدينة تواتية ، تفاجئه فى أى لحظة فتطلعه على شيء من مكنونها ، ثم سرعان ما تحتجب ، الأماكن الحقيقية تلك التى يقدر على استعادتها ، أو تسترجعه هى ، حتى وان نأى عنها وابتعد ، ما يمر به الآن ، يراه من موقع لحظة آتية ، قد يبلغها ، فما الذى سيبقى . وماذا سيمثل ؟

هذا سور حجرى ، ينتهى بقضبان حديدية ، متعانقة ، تتخلله أبراج حجرية تنتهى بقباب صغيرة تتوجها نجوم خماسية مشروعة ، تمتد حديقة من حشائش خضراء ، زاهية ، درجة صافية من اللون الاخضر ، كأنها غسلت للتو بالطل ، بعد صفين من أشجار نحيلة ، مورقة ، يبدو المبنى الرئيسى لادارة الجامعة ، قديم ، صلب الحضور ، له وطاة ورصانة ، لا يمكن الاقتراب منه الا على مهل ، بتأن ، وثمة رهبة حذرة .

لا يؤدى المدخل الرئيسى مباشرة الى الدرج الرخامى ، انما الى ساحة فسيحة مربعة ، تطل عليها نوافذ مكرودة ، متشابهة ، لوحات عديدة للاعلانات ، أوراق شتى ، أبيض ، أصفر ، بطاقات ملونة من ورق مقوى .

محاضرة بالمدرج الثانى حول طرق تدوين التاريخ الوسيط .

دعوة لحضور جماعة مناهضة التفرقة العنصرية يوم الثلاثاء .
امسية شعرية ينظمها الطلبة الوافدون من الغرب .
اعلان عن فقد حافظة نقود بداخلها أوراق هامة .
دعوة أساتذة الدراسات العليا لبحث التطورات المقرر اتخاذها من جانب البلدية بخصوص الحد الغربي لكلية الدراسات العلمية .
اضراب يوم السبت لمدة ساعتين احتجاجا على تركيب سقف كهربائي متحرك لمسرح المدينة الصغير بدلا من السقف التقليدي .
دعوة للتبرع بالدم في المستشفى الجامعي .
بيان من الجماعة المؤيدة للثورة الفلسطينية .
على اللوحة المجاورة لافتة وحيدة مكتوبة بلغة تقليدية حول المؤتمر الذي جاء سدعوا اليه ، الاول في سلسلته تنظم على مدار السنة بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة .
قائمة المدعوين ، يقرأ الأسماء التي تسبقه والتي تليه ، أمامه وقت . حوالى ساعة ويبدأ الاجتماع الافتتاحي ، نصحه المغربي بالتزام الحذر ، في لهجته ، نظرته عند مصافحته ، شيء ما غير مريح ، كيف لم يلحظه في أنيته ؟ ، ربما غشاوة النبيذ الجيد ، يخفي المغربي اكثر مما يظهر ، يومىء ولا يكسر . يرجىء جولته بالحديقة وفرجته المتأنية على المبنى ، لابد من تسجيل اسمه ، حتى الآن كأنه لم يصل بعد .
في المدخل ابدى الظلال ، المثقل بانبعاثات اعمدة الرخام الخفية توقف . منضدة مستطيلة . مغطاة بملاءة بيضاء . تدون أوراق وتفتح ملفات وتراجع بيانات ، كتب مصفوفة ، وكوب من خزف تطل منه اقلام ، عندما انحنت بدا ردفاها ممتلئان رغم نحول قامتها ، حافة سروالها الداخلي ، اعتدلت فتلفتت ، تداركت أمرا يجعله قاومات مشيرة بأصبعها ، عيناها فسيحتان ، تطلعت اليه مبتسمة ، تستمهله حتى تفرغ ، يتخيل ملامحها في لحظات الخصوصية ، عند العناق ، بعد اجتياز بوابة عالمها الحسي ، لم تلفت نظره انثى الا رآها بعيني عقله عند انطلاق اسارها ، وانفلات عقالها ، كل منهن كون صغير مختلف ، الاصوات لا تتشابه ، كذا الغنج والوهز ، وفي ذروة الاندماج ، يتبدل الوجه الفني أمامه الى ما سيكون عليه بعد الطعن في السن ، والامعان في الشيخوخة ، بل يكاد يتلمس الهيكل العظمي الذي سيتفكك ، ويتذرى ، طاويا كل ماضج حوله يوما من اشواق ، وآلام وملذات لا تبقى .

تقبل عليه ، تبدى ودا وظيفيا ، الا أن ثمة مسافة غير منظورة تفصلهما ، تتأمل سفره ، تلقيت صفحاته ، تنقل بيـــاناته المكتوبة باللغة الافرنجية . تقدم اليه وريقات أربع لابد أن يخطها بنفســـه ، عديد من الاستفسارات ، تاريخ الميلاد ، الجهة ، جامعة التخرج ، سنته ، البلاد التى زارها ، الدرجات العلمية ، الحالة الاجتماعية ، هل زار المدينة من قبل ؟ هل يشكو امراضا معينة ، اذا ســـبق له المجيء ، فأى جهة كانت الداعية ، الجامعة أم البلدية ؟

عندما تقدم الى سفارة الدولة للحصول على تأشيرة الدخـــول ، ملأ استمارة مشابهة تماما ، أجراء مكرر ، فيما بعد علم أن السفارة لا ترسل البيانات الى الجامعة ، انما الى البلدية ، لان الضـــيف سينزل المدينة ويقيم بها ، الأمن يتبع البلدية ، به قسم خاص بشئون الأجانب الوافدين سواء لفترات قصيرة أو طويلة ، متصل مبـــاشرة بادارة الهجرة الاتحادية التابعة لوزارة الأمن ، وتعتبـــر من اقوى الوزارات نفوذا ، ويتولاها عادة أحد عتاة الحزب الليبرالى الحاكم .

عندما مدت البطاقة المغلفة لم ينتبه ، كان يستعيد البـــوابة المجرية ، قيامها الغامض فى الطريق ، ظهورها المفاجيء ، سيحاول رؤية البوابات الست ، ينزل المقابر الفرعونية ، الأبواب الوهميـــة ، أحقا كانت لمجرد تضليل اللصوص ؟ ، والأم تؤدى ، أو ترمز ؟ ، هذا محير ، دائما تؤدى الأبواب الى شيء ، لكن .. هذه ، ما الغرض منها ؟ يتأمل البطاقة . مدون عليها أسمه ، درجته العلمية ، وتخصصه ، توقيع مدير الادارة ، وقائد الحرس الجامعى ، لاحظ نقاطا سوداء بارزة غير متساوية ، تتصل مباشرة بمركز الحاسب الآلى فى البلدية ، اذا اعترض طريقه أى حارس أمنى ، فلابد من ابرازها . عنـــدئذ يضعها فى جهاز صغير به شاشة ، يضغط رموزا معينة ، عنـــدئذ تظهر كل المعلومات المطلوبة ، لكن الاطلاع عليها لا يعنى عـــدد طلب جواز السفر ، خاصة بالنسبة للاجانب ، وهو هنا أجنبى .

البطاقات حديثة ، تعميمها لم يتم الا بعد جدل علنى عنيف ، اعتبرتها الجامعة مساسا بحرية الانسان ، فالمعلومات الجديدة ليست تقليدية ، انما تشمل الحالة الصحية ، والاحوال النفسية ، والمزاج الجنسى ، والقدرة على الجماع . هكذا يمكن لأى جندى الاطلاع فى لحظات على أدق الشئون الانسانية . صحيح .. هناك قسم خاص بادارة الأمن يهتم بالشئون الداخلية . لكن افراده غير معروفين ، والمعلومات فيه غير متاحة الا لأهل الاختصاص ، صحيح ايضـــا

ما تردد عن امكان الوقوف على بعض الأسرار مقابل رشوة مرتفعة ، لكن لم يتم هذا الا فى أطر محددة ، ومقابل مبالغ باهظة يعجز عن دفعها سائر الخلق ، أما البطاقات فتجعل صفحة كل انسان مكشوفة ، مباحة ، وهذا صعب ، يتنافى مع الدستور القائم ، وحقوق الانسان التى أقرتها الأمم المتحدة .

قاد رئيس الجامعة الحملة ، ونظمت اضرابات عديدة ، ورفعت اللافتات الاحتجاجية فوق مبانى الكليات والمعاهد . وعقدت مؤتمرات صحفية ، ونظمت مسيرات ، لكن رئيس البلدية تصدى بحزم صارم ، أعلن أن الاحتجاج موجه فى جوهره ضد السلطة الاتحادية ، وهذا مخالف للمادة السادسة من الدستور ، وأكد أنه سوف يتصدى لأى مسيرة تتجاوز الأسوار الجامعية ، وقال انه تم تزويد الحرس ببنادق آلية تطلق رصاصات مطاطية تصيب الانسان بجروح غير قاتلة لكن من الصعب مداواتها ، واتبع تصريحاته بحضور تدريب لاطلاق هذه الرصاصات جرى فوق تل الفلاسكة المشرف على الحد الغربى ، ويقال ان الاربعين نزلوا عنده .

جرى تنظيم حملة مضادة ، أوضح خلالها ضرورة استخدام تلك البطاقات ، خاصة مع تزايد اخطار الجماعات الارهابية ، ونمو قوى المعارضة السرية . عمت البطاقات . ولم يستثن الغرباء ، وكل من تزيد مدة اقامته على ثلاثة أيام ، تقول الفتاة انها لا تغنى عن ضرورة الاحتفاظ بجواز السفر ، هذا متبع مع سائر الأجانب ، وما هو الآن الا عابر . هل رمقته الفتاة بنظرة ود خاصة ، مصادفة أو قصد ؟ ، لم يدر ، انما جاوب التحية بأحسن منها ، يمضى صوب السلم العريض مستنفرا بهجة غامضة ، متأبطا الحقيبة الصغيرة التى تسلمها ، أوراق المؤتمر وبيانات ومعلومات ارشادية ، ولسبب قديم غامض كنهه ، تساءل ، أين سيكون فى مثل تلك اللحظة ، العام القادم ؟

خلافات اجرائية ..

.. حميميــــــة البدايات ، مجاملة ، حذر ورغبة في سبر كنه الآخرين ، ما يترتب على دنو أطراف تلتقي أول مرة . كل جاء من مكان قصي ، لأيام متتالية ستتكرر اللقاءات صباحا ومساء ، اعتادها ، يتبادل العناوين وأرقام الهاتف ، يمضي متأثرا بلحظات الافتراق ، بعد الأوبة يختفي هذا وبعده ذاك ، تفقد الملامح ، تتبدد الخصائص ، تتداخل القسمات ، ما يتبقى شظايا ، اثر عودة أحدهم الى بلده في أقصى أمريكا الجنوبية ، أرسل اليه بطاقة يتمنى فيها عاما جديدا ، سعيدا ؟ وسطرا علق بذهنه يقول فيه ان المسافات قصية ، ولـكن اللقاء ليس مستحيلا ، كان أسمر البشرة ، ودودا ، دائم الابتسام ، والحديث عن طفله الوحيد ابن العامين ، أنجبه بعد عسر طويل ، كان شرقي الحضور والمودة ، يتوافد أعضاء المؤتمر ، يبدى بعضهم الرغبة في القربى ، يعرف أسماء بعض المشاركين فهـم من أهــل الاختصاص ، رجل طويل ذو لحية طويلة مدببة ، يميل منحنيا ليقرأ الاسم المكتوب على البطاقة المعلقة الآن على صدره ، يعتدل واقفا ، يهز رأسه مرات ، يقف البعض قرب المدخل ، عشرون دقيقة مضــت على موعد الافتتاح ، لم تبدأ الجلسة بعد ، علق أستاذ أكاديمي قصير القامة ، دائم الحركة ، قال أنها علامة غير جيدة ، أشار الى أهمية انضباط المواعيد ، وعندما فتح الباب الشاهق . المؤدى الى فــراغ مؤطر رخيم ، فيما بعد تكشف سبب التأخير ، اذ وقع خــلاف ، منه ترتيب الجلوس فوق المنصة ، من .. الى يمين والى يسار رئيس الجامعة ؟ ، التقاليد غامضة ، المناسبة تحل كل قرن زماني ، الرجوع الى آخر احتفال غير مجد ، كان الواقع مغايرا ، لم يمض على اعلان الدولة الاتحادية زمن طويل ، كان نفوذ المؤسسة الدينية راسخا ، قويا ، هذا ضعف خلال السنوات الخمسين الأخيرة التي تم فيهــا فصل الدين عن الدولة ، لهذا لم يكن أى احتمال لدعوة أحد رجــال الدين للجلوس فوق المنصة ، حدد مكانه في الصف الأول بين المقاعد المخصصة لعمداء الكليات النظرية .

بدات المناقشات ليلة امس ، وبلغت درجة الحدة فى بعض الاحيان ، حتى حسم الامر بقرار شبه جماعى ، ان يخصص المقعد الايمن لممثل السلطة المركزية ، اما اليسار فللضيوف ، اذن .. من ؟. المحليون او الاجانب ، اتفق على الوافدين من الخارج ، اذن .. كيف يتم الاختيار ، من الغرب ، عن الشرق ؟ ، من العلماء ، من الادباء ؟ ، من الكتاب الدارسين ، أو الصحفيين او المبدعين ؟ ، من ذوى المكانة او من ذوى الذيوع والانشاء ، أو من الحاصلين على جوائز معترف بها ؟ ان أى خطأ غير مقصود ربما يؤدى الى انسحاب البعض ، أو تقديم احتجاجات من السفراء فوق العادة المعتمدين فى العاصمة المركزية ، تم الاتفاق على تخصيص المقعد لممثل منظمة التربية والعلوم والثقافة العالمية ، كان يونانيا معدنى الصوت ، متوسط القامة ، غليظ العنق ، طويل شعر الراس ، فى عينيه تعبير مقيم عن الألم أو الشكوى من شيء ما ، دائم التطلع الى السقف ، محب لاطالة الحديث خاصة عند التعقيب ، أو تقديم الاقتراحات ، والاشارة باصبعه الى غير ذى قصد .

هكذا .. تم تفادى دعوة رئيس البلدية للجلوس الى يمين رئيس الجامعة كما جرى قبل ثلاثة قرون عند الاحتفال بالذكرى المئوية السادسة ، فى السابعة وقع أمر لم يتكرر على امتداد التاريخ المعروف ، كان رئيسا البلدية والجامعية شخص واحد ، استثناء لم يحدث من قبل ولا من بعد ، لم يستمر اكثر من ثمانية عشر شهرا ، عندما أصبح صعبا عليه تسيير دفة الأمور فى الناحيتين ، وعدت هذه التجربة من المستحيلات التى لا يمكن تكرارها .

ترتب على عدم دعوة رئيس البلدية الى المنصة الرئيسية ، ان الصحف الثلاث التى تصدر فى المدينة ، والمعبرة كلها عن وجهة نظر البلدية تجاهلت الاحتفال ولم ترد اخباره الا فى صفحة الحوادث المحلية والجرائم وبعض الاعلانات الخاصة بالمدينة . اما مراسلو الصحف الرئيسية فى العاصمة فيبدو أن علاقاتهم ومصالحهم مع البلدية الزمتهم نفس الموقف ، وزير السياحة الاتحادى أبدى قلقه من موقف البلدية ، خاصة بعد منع الملصقات الجامعية من شوارع المدينة ، عدا الأجزاء المحددة بالبراميل الحمراء ، قال ان فرصة ضاعت لا تتكرر الا كل قرن مرة ، كان ممكنا استغلالها بحيث تحدث

ردود فعل قومية ، كان ممكنا تدفق آلاف السياح على المدينـــة ، وحضور الاحتفالات خارج أسوار الجامعة ، والفـــرجة على موكب الاساتذة بالملابس التقليدية ، لكن للأسف لم يحدث هذا .

جانب آخر أثار جدلا ، فطبقا للتقاليد المدونة يتم اخراج المقعد الرئاسى من المخزن مرة كل سنة ، أثناء الاحتفال بتخـــريج طلبة الدراسات العليا . عمداء الكليات النظرية رأوا أن ظهوره يعنى اخلالا بالنظم المرعية ، لكن عمداء الكليات العملية أصروا ، وأبدوا دهشتهم ، ليس معقولا اخراجه فى الحفل السنوى ، وفى الحفل المئوى الذى لن يشهد كل المشاركين فيه الحفل القادم يتم اخفاؤه ، هكذا انتهوا أخيرا الى فتح المخزن وحمل المقعد منه مباشرة الى المنصة .

إغفاءة قسرية

.. قرب نهاية الجلسة ، هما عليه وجد ، اذ خيل اليه أنه مفارق لدياره منذ حقبة طويلة ، لم يستطع تحديد عمقها ، لكنها قديمة ، ذات عمق ، تحوى بعدا قصيا ، مع أن ما أمضاه هنا بعد الساعات ، سواء ليلة وسويعات نهارية ، فلماذا الاقصاء وشحط المدة ؟ داخله ثقل يستعصى على الفهم ، ويصعب على الاحاطة ، ما مصـــدره ، ما سببه ؟ لم يدر ، حاول التعلل بهذا السبب أو ذاك ، مثـــلا .. عتاقة المدينة ، واجهاتها الوردية المتشابهة والأبنيـــة التى تشربت ما يكفى من ألوقت ، الاقواس المتوالية ، المتصلة ، توحد أطـــراف المدينة بمركزها ، كأنه ينتقل من فناء الى فناء ، أو من حجرة الى أخرى فى بناية هائلة مفتوحة على الفضاء اللانهائى ، ولأنه اعتـــاد السهر ، كان يجثم عليه ضيق بعد انتهاء العشاء فى المطعم القـــريب من الفندق ، خصصوا للضيوف قسما منه ، قدموا لكل منهم عددا من البطاقات ، كتب فوق بعضها ، غناء ، والأخرى ، عشاء ، احصى ما تبقى ، ست فقط ، بقى .. ثلاث ليال فقط ، فى بداية اليـــوم الرابع يركب قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة ، يصل العاصمة ، يمضى ليلة لاغير ، ثم يقلع ، يضيق الآن بالترحال ، خاصة ما لا يحدد وقته ، ولا يختار جهاته ، أسفه الممزوج بالحنين الى أيام ذات اشتقاق فيها الى رؤية ما وراء الديار ، أماكن لم تقع عيناه عليها ، ومـــدن تختلف كل منها عن الأخرى ، لا تتشابه ، لكن .. الا يبدأ توقه الى التغرب بعد عودته ، واستقرار اقامته ؟ ، لم يلزم جانبا بعينه ، يحن فى ثباته ، وفى خروجاته ، كل هواجسه تشب خلال السنوات الاخيرة ، لا يدرى متى بدأ بالضبط خوفه من اغماض عينيه الى الابد فى أيـــام غربته ، لتتوالى على ذهنه المكدود تفاصيل ما بعد فناء وجوده ، العثور عليه فى الفراش ، الاجراءات التى ستتبع ، نقل الجثمـــان ، مكان المواراة ، وقع النبأ على من يعرفونه ، على ذوى القربى الذين انقطعت أو وهنت صلاتهم به ، ثم بدأ النسيان وتدرجه حتى اكتماله ، يذكر قولا قديما ، بنيت الدنيا على نسيان الاحبة ، وما المدينـــة ـ التى

يسمع الآن صوت رياح شديدة ، أستثنائية ، فى غير موعدها ــ الا درجات ، وزوايا من النسيان ، حتى ما بقى لا يماثل ما كان قائما بالفعل ، تتبدل الحوادث ، والسير ، من فترة الى أخرى ، فلا تمت العناصر الى الماضي بقدر ما تنتمي وتنسب الى الحاضر الآتي . حتى ما يتعلق بالفلاسفة الأربعين ، أو ما سيروى عنه اذا فاجاته المنية اثناء رقاده او خلال حركته فى أيامه المعدودات تلك .

خواطر لا يقدر على دفعها ، واخيلة لا يمكنه تبديدها ، وعندما اضطر فى احدى الليالى لبلع نصف قرص مهدىء حتى يرحل الى النوم بدأ عند صحوة أسي ، ومرثية منه اليه ، فكأنه مالك بن الريب، الذى رثى نفسه حيا ، قبل أن يرقبه الآخرون ميتا .

مع رحيله يبدأ توقعه لتلك الهواجم ، حتى رقاده فى الفراش يتغير ، يتكوم ولا يتمدد ، يتحفز لصد أذى المباغتة ، كثيرا ما يشق عليه الهجوع ، فتطلع عليه شمس نهار جديد بدون اغفاء ولو يسيرا، يحاول استعادة ملامح المدينة عبر الجزء الذى يقطعه مشيا ، عند انصراف الجمع رأى الفتاة النحيلة واقفة أمام عربة سياحية ، اشارت بيدها تدعوه ، أوما الى الطريق ، يفضل المشي ، هزت رأسها مرات سريعة ، متعاقبة ، بدت رشيقة ، واثقة ، عذبة النظرة ، ولى وعنده بهجة خفية وحنين الى اوقات لا يثق تماما انه عاشها .

تنفذ المدينة اليه داخل حجرته المغلقة ، فتلغى تشابهها بغرف اخرى نزلها فى بلدان متفرقة ، يلاحقه ثقل فراغها ، وغموض برجها ، وتوالى الاقواس المجرية الذى يمنحها بعدا دينيا ، كأن معبدا غير مسور ، غير محدد يتوزع عليها وينتشر فيها ، الليل طويل ، يؤكد ضرورة استبعاد النفار بينه وبين الأبنية والطرقات والنواصى ، أن يحاول رؤية ما لم يره خلال الأيام القليلة المتبقية ، خاصة البوابات السبع ، دائما قبل اقدامه على الرقاد يمتلىء بالمشاريع ، تتعاظم عنده النوايا ، وأحيانا الرغبة فى مضاجعة من لم يعرفهن بعد ، أو يستعيد لحظات متعة مندثرة ، وعند صحوه يتبدد كل أثر ولا يقوم أمامه الا السعي ، لعلّ وعسى !

يؤدى افعاله الطقوسية متمهلا ، تلك حافظة نقوده ، أما جواز سفره فدائما الى جواره ، فى المتناول ، كذا كوب الماء الذى يبقيه على مقربة خشبية ظما يحل ليلا ، لا يبقى الا خفقة قلب اثر استعادة لحظات توهج شاردة ، والتماس الرقاد ، والعبور برفق هين من صحو وتبدد الى غبوق واستكانة .

بنايات ..

.. يرن الهاتف ، جرس قديم ، ينبه بحدة ، فكأنه نذير ، المغربي يتحدث ، قال انه علم بخلو وقت ما قبل الظهيرة ، ويقترح جولة بالمدينة ، ابدى شكرا ، سيفلعه على ما لا يعرفه ، فى العاشرة تماما جاء ، نشطا ، أنيقا ، يرتدى قميصا خفيفا يبرز ملابسه الداخلية ، يحيط معصمه بسوار ذهبى حفر عليه الحرفين الاولين من اسمه ، بدهشة لاحظ شاربه المنمق ، هل رآه أمس ؟ ، ليس متأكدا ، جلس الى جواره ، قال ان المدينة لا توحي بحجمها الحقيقي لمن يصلها بالقطار ، لكن بالطائرة يمكن ادراك مدى اتساعها ، المطار على بعد أربعين كيلو مترا من المركز ، تلك مسافة كبيرة نسبيا ، المدينة اقليمية ، عندما فكروا فى اقامته أصرت الجامعة على اطلاق اسم احد علمائها عليه باعتبار الجامعة أساس القاطعة ، وأهم مؤسسة تعليمية وثقافية فى البلاد كلها ، لكن البلدية قاومت واعترضت ، هدد رئيسها بالتوقف عن تقديم أى مساعدة ، وقانون الادارة المحلية يمكنه من ذلك ، هنا قررت الحكومة الاتحادية انشاء المطار فى منتصف المسافة بين المدينة والبلدة التالية جهة الشمال ، وتشتهر بقنوات المياه والمصنوعات الخشبية المكسوة بالفضة ، يقصدها السياح للفرجة والتسوق ، قال المغربي لو اتسع الوقت سيصحبه لزيارتها ، أن شوارعها الفرعية مائية ، اغرب من البندقية ، ومن البصرة ، أما جسورها العتيقة فتعد منشآت فنية رائعة ، كذلك أعمدة الانارة .

قال انه سيغادر بعد يومين ، الوقت المتاح قصير ، قال المغربى ، ولماذا العجلة ، المدينة بها الكثير مما يجب رؤيته . قال انه مضطر للعودة بسبب ارتباطات عديدة ، ثم أنه لا يشعر بضرورة للبقاء ، للمؤتمر طابع احتفالى ، وليس علميا . تساءل المغربى عما اذا كانت الخلافات بين البلدية والجامعة واضحة ؟ ، قال انها تبدو كذلك ، وبالتأكيد لاحظها قبل غيره بعد أن نبهه اليها إثر وصوله ، انها واضحة فى كل الجزئيات . حتى فى قوائم الطعام . المطعم المخصص للضيوف يعلن انه ينفرد بتقديم الوجبات الجامعية ، يرجع مؤرخو الجامعة

عناصر تكوين الاطعمة الى الطلبة الأوائل الذين جاءوا من مسـافات قصية وحملوا معهم تقاليدهم وأمزجتهم ، اعتادوا الطهو فى أماكن اقامتهم ، ثم بطل ذلك بعد تشييد المطبخ الرئيسى الذى أقيم على نفقة الاثرياء ، وهذا سبب يقوله رجال البلدية ، اشارة الى دورها فى انشاء الجامعة وتدعيمها ، فهؤلاء الاغنياء من أهالى المدينة ، ولولا تبرعاتهم لما نمت الجامعة وتطورت ، المطبخ الجامعى أشتهر باعداده وجبات لكل الطلبة ، وكانت لوازمه مشهورة بضـخامتها ، حتى قدرت فى القرن الحادى عشر مثلا بمائة راس غنم ، وخمسمائة رطل سمن ، وثلاثة آلاف من الطيور ، وطنين من الخضار ، ومثلهما من الفاكهة ، الى غير ذلك من دقيق وسكر وتوابل ، لكل طالب راتب معين يوميا ، وفى البداية أكل الاساتذة من المطبخ ، لكن فى القرن الثالث عشر خصص لهم آخر ، ومعظم الوجبات التقليدية مرجعها طعـام الاساتذة الذى بلغ درجة عالية من الجودة ، بعضهم وضع مؤلفات فى كيفية اعدادها وفوائدها ، فثمة مأكولات مقوية للباه ، مدرة للمنى ، وأخرى تعالج أمراضا بعينها ، وثالثة تشحذ الذهن ، وتذهب بضيق الصدر ، اغرب هذه المؤلفات كتاب وضعه أستاذ فى الكيمياء ، ذكر فيه أطعمة تحوى ألوانا من اللحم بغير لحم ، وكبد مقلية بدون كبد ، وعجة من غير بيض ، وثريد بدون خبز أو أرز ، وحلوى بدون عسل ، أو سكر . . . يضحك المغربى ، يقول أن هذه معلومات جديدة بالنسبة له ، يصمت لحظات ثم يقول ، أن الخلاف أخطر مما يتصوره البعض ، وانه أشق ما واجهه عندما نزل المدينة منذ خمس وعشرين سـنة ، لكنه مع الزمن أصبح يفهم كلا الطرفين ، يقول انه على علاقة جيـدة برجال الحكومة المركزية ، ما من وزير يجىء الى المدينة الا تنـاول الغداء أو العشاء فى بيته ، انه الوحيد الذى يمكنه جمع رجال البلدية والجامعة فى مادبة واحدة .

يصغى صامتا ، حتى الآن لا يعرف شيئا عن طبيعة نشاطه ، لماذا يقيم هنا ؟ ، رجل أعمال ، لكن . . أى أعمال ؟ لم يفصح ولم يفسر ، ومن ناحيته لم يرغب فى الاستفسار ، يقين خفى عنده انه لن يراه مرة أخرى ، ثمة أسباب غامضة يستمد منها نفوذه ، لكنه لم يستطع تخمينها . بحيد بصره ، يرى جانب وجهه الايمن ، يزداد يقينـا بغموضه ، انه يخفى أكثر مما يظهر ، ظل ابتسامة سـاخرة على وجهه ، ما محور السخرية ؟ هل تتعلق به ؟ .

تسرع العربة ، الطرقات ضيقة ، المرور فى اتجاه واحد ، تنتهى

الاقواس الحجرية ، لكن على الجانبين تتوالى اعمدة المصابيح ، قديمة الطراز ، على مسافات متقاربة ، تبدو من بعيد متجاورة ، تعرض متاجر الماديات نماذج منها ، نحيلة ، رشيقة ، حوفظ على طابعها وطرازها عبر قرون عدة ، ثمة مصنع متخصص فى صيانة أجزائها ، واحلال جديد بدلا من التالف منها ، يدور حول ســــاحة مربعة ، تتوسطها نافورة تنفث الماء بتؤدة . عند بداية شارع متسع نسبيا ، مبنى رخامى قائم على اربعة اعمدة تعلوه بقايا قبة . أحد الاضرحة التسعة والثلاثين ، فيه يرقد واحد من الفلاسفة ، بالرغم من عــدد اكتشاف قبر كبيرهم ، يطلق سكان المدينة على كل ضريح « مثوى السيد الاربعين » ، يؤمنون أنهم حماة المدينة ، والذابين عنها كل شر، يرجعون انحسار الطاعون بسرعة زمن الوباء الأعظم الى بركتهم ، يقول المغربى ، البعض يردد همسا ان عددا منهم أقيم على فراغ ، أو دفن فيه مجهولون ، عابرون ، وربما بعض المجرمين العتاة الذين صلبوا ، أو قطعت رقابهم فى عصور بعيدة لقتلهم بشر لا حصر لهم ، أو لهتكهم أعراضا ، لكن لا يمكن الجهر بذلك فى مدينة تخرج كلهـــا ذات يوم معين فى كل سنة لتضع باقات الزهور على الأضرحة فى ذكرى نزولهم موضع المدينة ، وعند البوابات السبع تحية لكبيرهم الــذى مازال مرقده مجهولا .

يتجه يساراً ، تتقارب المبانى ، تقضام حتى ليصــــعب تحديد الفواصل بينها . يطلب المغربى منه التطلع جهة اليمين ولــكن .. بحذر ، ميدان كبير يتوسطه مبنى ممتد ، ضخم ، من ثلاثة طوابق ، لكنها على الطراز القديم ، مرتفعة ، نوافذ مستطيلة ، مغطاة بقضبان حديدية سوداء متعرجة ، تتلاقى عند المنتصف تماما حيث زهرة معدنية صفراء ، الزجاج مسدل عليه ستائر بيضاء ، لسبب ما خمن الطابع الرسمى للمبنى ، يوحى بالسرحية ، تتشابه أجهزة الامن ، وان بدا هذا ثقيل الوطأة ، مهيمنا طاغيا على ما عداه حتى ليتجاوز حدوده المادية الى سائر الاطراف .

فعلا .. لم يخب ظنه .

يقول المغربى ان هذا المبنى يعتبر اخطر المقار فى الناحية كلها ، من داخله يمكن رؤية كل شيء ، برغم ارتفاعه المحدود ، انه الفرع الرئيسى لادارة الأمن الاتحادية ، يتبع العاصمة ، مديره يعين بقرار رسمى ، علوى ، لكن ثمة علاقة قوية بالبلدية ، رئيسها له مكتب داخله ، لكن متى يتردد عليه ؟ اى واجبات يقوم بها على وجه الدقة ؟ ، هذا كله غير معروف حتى .. لذوى الاطلاع .

البناية ، وماشابهها ..

.. يقال ان شيخا جليلا مر بفخ منصوب ، واذا بطائر قريب منه ، فقال الطائر ، أيها الرجل الطيب ، هل رأيت أقل عقلاً من هذا الصياد ، نصب هذا الفخ ليصيدني فيه ، أنا لن أطير ولن أقع فيه ، مضي الشيخ الى قصده ، قضي حاجته ، وعند عودته راى الطائر واقعا فى الفخ ، فقال : عجبا ! ، قال العصفور ، اذا جاء الحين ، لم يبق أثر ، ولا عين ..

لماذا تطفوا هذه الحكاية الى سطح وعيه ، يستعيد تكاصيلها لكنه لا يقدر على استرجاع مصدرها ، أين قرأها ؟ متى سمعها ؟ لا يدرى ، ربما خشية غامضة من ظرف قد يؤدى به للتعامل مع هذا المبنى الغريب ، لكن .. ما علاقته به ، صحيح أن اسمه أدرج فى حيز ما داخله باعتباره ضيفا حل !، وكما تقضى النظم لابد من تسجيل كل العابرين ، للمبنى صلة وثيقة بتاريخ البلاد ، اذ يرجع تاريخ جهاز الأمن الاتحادى الى مرحلة الحروب السابقة على توحيد المقاطعات المتصارعة ، خلالها ظهر شخص لا ينتمى الى أهل البلاد الاصليين ، تناقضت الروايات حول انتمائه العرقى ، فأمه من الغرب ، وأبوه من الشرق ، وجده لامه من الجنوب ، وجده لوالده لا يعرف له أصل ، لكن من الثابت المقطوع به أن علاقته بالاجرام وطيدة ، بدأ صبيا صغيرا فى عصابة من الغجر الرحل تخصصت فى سرقة الاطفال الصغار وبيعهم لمن لا يستطيعون الانجاب ، ثم تقلب به الحال حتى أصبح من عتاة قطاع الطرق ، ورويت عنه أخبار تدنو فى كثير من جوانبها الى الاساطير ، فمن ذلك قدرته على الهرب ، حتى قيل أنه أعتقل وسجن فى كل سجون البلاد وقلاعها ، وأنه هرب منها جميعها ، فاذا كان قد سجن سبعين مرة ، فانه هرب سبعين ، لكن طرأ فجاة تحول غريب ، ماذا حدث بالضبط قبله ، هل جرت أتصالات ؟ هل تمت الاستعانة به ؟ لا أحد يدرى .

المهم .. أنه ظهر فى العاصمة المؤقتة ، بالتحديد فى مقر قيادة الجيوش الموحدة التى اخذت على عاتقها مهمة توحيد الولايات المتنازعة

بالقوة ، فى هذه المرحلة بدأ تأسيس جهاز الأمن الموحد ، ومما قيل عنه أيمانه أن وحدة البلاد الحقيقية لن تتم الا من خلال جهاز أمن قوي ، جاثم ، يمسك الأطراف ، ويحدد البؤر النشطة ، مثل هذا لابد أن يقوم على جهد عتاة متمرسين ، قساة القلوب ، وبالفعل أقدم، بذل نشاطا كبيرا لجمع أهل الخبرة ، هكذا وضع أساس هذا الجهاز الفريد ، والذى حظى فيما بعد بشهرة حتى عد مرجعا لأهل الاختصاص من كل الجنسيات ، توافد عليه رجال المخابرات الامريكية ، والسوفييتية ، والدول المستقلة حديثا ليتعلموا منه ، ليتقنوا الاساليب المتبعة . جاء المؤسس بنفسه ليشرف على تشييد هذا المبنى ، ويقال انه قسمه الى ثلاثة طوابق ظاهرة ، وثلاثة تحت الأرض ، وقسم كل طابق الى سبعة أقسام ، وكل قسم الى أربع ادارات منفصلة ، ومده المداخل المؤدية اليه ، حتى يمكن رؤية الداخلين اليه ، أو الخارجين منه ، لم تفتح نافذة ، ولم تهتز ستارة، اما الأبواب الجانبية الضخمة فموصدة منذ حقب بعيدة ، حتى فى أيام الاحتفالات الرسمية أو المناسبات أو نزول ضيوف مهمين بالبلاد ، ما من اعلام مرفوعة ، أو شارات بارزة ، فقط ، عدد لا حصر له من هوائيات الارسال والاستقبال ، بعضها مستدير ، والآخر نحيل قائم، وهذا الهوائى بالتحديد يتردد بين القوم انه مخصص للتصنت على النجوم ، وسكان الحجرات البعيدة ، فى الليل ترى اضواء خافتة منبعثة من وراء الستائر ، ويؤكد البعض ان ثمة أصواتا تنبعث فى بعض الليالي ، لكن .. لا يمكن تحديد مصادرها بالضبط ، أختير موقعه بعناية ، انه فى المركز تقريبا ، عند منطقة فادقة بين المنطقة القديمة حيث منشآت الجامعة ، والمنطقة الحديثة ، حيث المركز المالى والصناعى ، يشعر كل مقيم او عابر بوجود المبنى ، اقترب منه أو ابتعد ، أقبل نحوه أو أولاه ظهره ، لا يحيطه اى سور أو حاجز ، فقط رصيف عرضه أربعة أمتار ، مبلط بحجر قديم ، لم يجدد ، لم تجر له أى عمليات صيانة ، مع ذلك يبدو وكأنهم فرغوا منه بالأمس ، وبرغم عدم أعلان اى تعليمات بمنع الاقتراب ، فلا يسعى انسان المشى فوق هذا الرصيف ، ولا يقربه حتى الاطفال ، أو الحيوانات الضالة ، فكان سلوكا خفيا يولد مع سائر المخلوقات يقضى بتجنبه والابتعاد عنه ، وعندما عمت البلاد موجة من الحوادث الارهابية ، وتم تفجير محطة القطار الرئيسية فى المدينة ، وضبطت شحنة متفجرات فى مخدع رئيس البعثة التعليمية قبل انفجارها ، لم تتخذ

اى احتياطات حوله ، لم يظهر حراس ، ولم توضع حواجز كما جرى عند جميع المنشآت الحيوية ، لم تلح اى بادرة أو علامة تنم عن قلق او خشية ، عدا ملاحظة رصدها صحفي محلي ـ ولم تنشر ـ اذ ظهر هوائي جديد ضخم عند الحافة الغربية ، يشبه شباك الصيد المستخدمة فى البحار الجنوبية ، اما اغرب ما سمعه ، فهو القول بحركة المبنى ، اذ يؤكد بعض من اهالى المدينة انه غير ثابت ، يتحرك ، يكمل دورة كل نصف قرن ، الواجهة الشرقية التى تعلوها صورة من جص ملون لرأس المؤسس كانت جهة الغرب منذ خمسين سنة ، يؤكد ذلك بعض المعمرين ، انه يتحرك طبقا لنظام هندسى بارع ، بحيث لا تلحظ حركة ، ولا يدركها المقيمون المقيمون داخله ، او الساعون خارجه ، تماما مثل كوكب الأرض ، يدور ولا يدرك الاالمعرض الناتج ، ليلا ونهارا ، اما الحركة نفسها فلا تحس ، لا توجد صور قديمة توضح الوضع ، بل لا توجد صور على الاطلاق ، ويبدو أن ثمة اشعاعا خفيا ينبعث بوسيلة ما ، يفسد أى عدسة تصوير توجه اليه من بعيد ، من أى زاوية ، اما الصور الملتقطة بواسطة الاقمار الصناعية فلم تتضح بها اى معالم ، مكانة بقعة رمادية وكأنه ارض بباب .

مما يتردد ايضا من غريب القول ، اختفاء المبنى فى ليال غير محددة كل عام ، فى طقس صفو ، خال تماما من الضباب ، ولم يثبت ذلك ، اما اساتذة الجامعة وطلبتها ، فيقولون ان هذا الجزء المهيب ، الظاهر ، ما هو الا مدخل وغطاء لمساحات ممتدة تقع كلها تحت الارض ، تضم فيما بينها سجنا غريبا ، يتسع باستمرار ، كلما ولد طفل تفتح له عدة ملفات فى أقسام مختلفة من البناء ، وتشيد له زنزانة صغيرة ، معتمة ، خالية من الفتحات ، ربما نزلها يوما .

يضمر الجامعيون كراهية للمبنى وما يمثله ، لكنهم لا يجاهرون ، فجهاز الأمن الاتحادى له منزلة خاصة فى طول البلاد وعرضها ، اذ ينسب اليه ترسيخ الوحدة الوطنية ، وفض الخلافات ، العرقية ، والطائفية ، والدينية ، والقومية ، عدا خلاف واحد ابستعصى فضه ، انه القائم بين الجامعة والبلدية ، انه خلاف عميق ، قديم ، بدأ قبل قيام الدولة ، لم يعرف الى اى جانب يميل الجهاز برغم صلته العضوية بالبلدية ، وتداخل وتشابه بعض الاختصاصات ، لكن برغم تعقد العلاقة بين الجامعة والجهاز ، فانه من الثابت تعاون عدد من الاساتذة ، سواء فى تطوير الاجهزة العلمية الخاصة جدا ، أو البحث

عن وسائل جديدة فى مجالات الاستنطاق والتمويه وكشف المعلومات، وهناك عدد مجهول من الاساتذة والطلبة ينقل أدق ما يجـــرى فى الكليات النظرية والعلمية .

لكن .. اذا بدا المبنى مصمتا هكذا . فمن اين منافذه ؟

يقول البعض ان هناك مجموعة من المدربين تدريبا عاليا يقيمون باستمرار داخله ، ولاسرهم أماكن مخصوصة ، وانهم كيفوا ظروفهم على الاقامة الأبدية ، وهؤلاء هم قوم الملفات ، المكلفون بالنظـــر فى الاوراق ، والارشيف القديم ، ورصد المعلومات ، وتصـــحيحها ، وتقييمها ، واضافتها ، أو حذف بعضها ، أو مضاهاتها بعضـــها البعض ، كذا تحليلها ، ولهم منزلة خاصة . وعندما تمت عمليـــات التحديث وأدخلت الحاسبات الآلية ، لم يتم الاستغناء عن فرد منهم، بل اعتبروا هم المرجع والاساس ، فاذا حدث أى خطأ فى معلومة ما ، لا يتم تصحيحها قبل الرجوع الى الاضابير الورقية التى يسهر عليهـــا هؤلاء ، اشتهر عنهم حبهم للعمل ، وايثارهم البقاء داخل المبنى ، وكلهم انحدروا من أجداد تخصصوا فى قطع طريق الحرير ، والاغارة على القوافل المتجهة من والى الصين ، شقوا عصا الطـــاعة على كل حاكم أو ذى سطوة ، وسكنوا الاماكن الوحشة ، ثم نجح المؤســـس فى الاتصال بهم واقناعهم وضمهم .

لايمكن القول بوجود مدخل رئيسى ، للعاملين المقيمين خارجه ، أو الذين يتم أحضارهم طواعية أو قسرا ، علانية أو خفية ، هنــــاك عدة مداخل بعيدة ، بعضها عبارة عن مبان صغيرة ، متفرقة ، لا تثير الريبة ، أو الفضول ، عائلية الحضور ، منها تبدأ ممرات متصلة ، ودهاليز متقاطعة ، وصالات أشبه بالميادين الصغيرة ، وقاعات ، وربما يصل الغريب الى صميم المبنى بدون أن يعرف ، لكن العاملين الذين يترددون عليه يوميا . أو الذين يخرجون أو يدخلون فلا يعرف كل منهم منفذ الآخر . لا يوجد شخص واحد يلم بكل الاقســـام حتى المسئول الاكبر ، الاتحادى ، أو المحلى ، لكل طريق معروف ، مرسوم، لو اتخذ غيره لضل وعجز عن الوصول الى هدفه ، ولا يمكن للقوم سواء من أهل الداخل أو الخارج ، اجتياز مكان الى آخر بدون تصريح مسبق ، ذى لون معين ، مبرمج مسبقا ، لا تفتح البوابات الالكترونية الا بعد دقه فى مكان معلوم ، أما الاوراق الخاصة بتصميم المبنى ، وخباياه فمن أدق أسرار الدولة الاتحادية ، وكلمة المبنى فى جميـــع

لغات البلاد تعني مضمونه والاشارة الى دوره ايضا، لكنه ليس الوحيد الذى يلفه الغموض هنا .

هذا مبنى البعثة التعليمية الامريكية ، اثار تشييده فى نهـــاية الاربعينات جدلا ونقاشا فى الصحف والمجالس المحلية ، وخصصـت جلسة كاملة فى مجلس الشورى لمناقشته ، يقع قرب المستشــفى الجامعى القائم على تل مرتفع مكسو بالاشجار ، أول من اعتــرض عليه أساتذة الجامعة ، فلماذا تجىء بعثة أمريكية وتقيم على مقــربة من أعرق صروح العلم فى البلاد ، هل يعنى ذلك الشروع فى انشـــاء جامعة أمريكية ، خاصة ان النفوذ الامريكى فى تصاعد ، اذ انتشرت فى العاصمة الاتحادية مطاعم الوجبات السريعة ، والمشروبات الغازية ، والمحال التى تذيع الموسيقى الصاخبة ، أما المسلســلات الامريكية فتحتل مساحات زمنية واحدة فى قنوات التليفزيون المختلفة ، وتردد أن ثمة قناة خاصة ستتخصص لبث البرامج الامريكية مباشرة ، بالطبع واكب ذلك ارتباط اقتصاد البلاد بالمعونة الامريكية ، والدخــول فى حلف عسكرى متين . لكن هذا كله فى جانب ، والاقتراب من أعرق مراكز البلاد العلمية فى جانب آخر . اثر تصاعد الاعتراضات هدد السفير الامريكى فوق العادة ، انه فى حالة تعثر المشروع فلن تتدخل الحكومة الامريكية لدى صندوق النقد الدولى للمساعدة على جـدولة الديون المستحقة ، صدرت بعد ذلك تأكيدات من العاصمة الاتحادية تقول أن تمثيل البعثة سيقتصر على وجود بعض ممثلى مراكز البحث العلمى فى الولايات المتحدة لمتابعة بحوث خاصة لا يمكن اعدادها الا من هذه المنطقة ، نتيجة لموقع المدينة الفريد بالنسبة الى زاوية ميــل الكرة الارضية ، والحق أن اول من تنبه الى هذه الخصوصية نابليون بونابرت من خلال البعثة العلمية التى صحبته خـــلال حملته الى الشرق .

المهم .. بدأ تجهيز المبنى بعد اختيار الموقع ، وتقديم تعهــد مكتوب الى البلدية بمراعاة الطابع المعمارى العام . ثم أسند الجانب الامريكى العمل الى شركة مقاولات امريكية متخصصة فى أعمــال التشييد العسكرى فيما وراء البحار . سبب هذا ردود فعل سلبية فى مجالس ادارات الشركات المحلية ، لكن السفير الامريكى اقام حفلا هائلا فى حديقة السفارة الشتوية ، دعا أليه ممثلى شركات المقــاولة المحلية ، المسموح لها بالعمل فى المقاطعات ، انفرد بكل منهم ، سأل عن مقدار الربح فى حالة تنفيذ البناء ، بمجرد سماعه الرقم يخرج على

الفور دفترا صغيرا ويكتب شيكا مصرفيا ، مقبول الدفع ، مضمونا من بنك تشيترمانهاتن ، فرع بروكلين ، خرجوا راضين وعند معظمهم ندم لانهم لم يضاعفوا الرقم المتوقع ، اتفقوا على نشر اعلان يهنىء الزميلة الامريكية بالبدء ، وآخر عند الانتهاء من البناء .

بسرعة ، قامت كتلة خرسانية هائلة ، نوافذها مجرد شقوق مستطيلة تتسع من الداخل ، بحيث يمكن لقامة رجل بالغ الوقوف ، يرى الخارج ولا يمكن رصده أو مشاهدته ، أضيفت جدران خارجية، تطابق رسم المباني العتيقة،رصدت مربعات خرسانية ضخمة،لاتسمح الفواصل بينها الا بمرور شخص واحد بصعوبة ، اعتبرت حصدان لأى هجوم انتحارى بالعربات المفخخة ، وضع احتمال لكل خطر وارد، مع ان المدينة لا تقع فى مثلث الاضطرابات الشهير ، لكن بعد ما جرى فى طهران أثناء أحداث الثورة الاسلامية وجب اتخاذ الحوطة .

كل اسبوع أعتاد الاهالي ، رؤية شاحنة ضخمة تصل فى مواقيت محدود ، تحوى ثلاجة هائلة ، تقف امام الباب الجانبى بضع لحظات، يسبب هذا ارتباكا فى المرور لدقائق،تفتح البوابة وتزال الموانع وتختفى داخل المبنى ، انها تحوى المأكولات ، والمشروبات والبريد الخاص ، يستغرق هذا ست ساعات كاملة ، جميع اللوازم ترد رأسا من القاعدة الامريكية ذائعة الصيت فى البلد المجاور ، سبب هذا ضيقا لتجار المدينة ، لكن تبدو الأمور غير مألوفة عند وقوعها ، ومع تكرارها يعتادها القوم ، هكذا أصبح هذا المبنى جزءا من الواقع العمراني ، وان استمر حضوره غامضا ، يثير التساؤل ، واحيانا الكراهية ، وربما السخرية .

يقول المغربى ان الفندق الكبير مبنى آخر جدير بالرؤية ، يقع قرب الحديقة اليابانية ، لكن سيحتاج هذا الى وقت، تبقى ابتسامة على وجهه ، بين ارتسامها على فمه وزاويتي عينيه صلة ، سرعان ماتبدو تجاعيد عديدة متوالية ، ثمة شىء ما ، لا يمكنه الوقوف عليه، أو تحديده ، لكنه يبقى النفار بينهما ، أعتذر بحسم عن دعوته الى الغذاء ، وعندما اجتاز بوابة الفندق ، رأى الفتاة النحيلة ، الباسقة، من هيئة وجودها ، من لحظ تطلعها اليه ، من سمات انتظارها ، أدرك انها تتوقعه هو بالتحديد .

سعى مرغوب ..

.. ما من اجمل ، وارق ، وأوحى ، واثرى بالوعد ، والدعة ، مثل انثى تهيأت للقيام عندما تشع مكونات حسنها الترقب ، وتشرع نقاط حوافها ، مرسلة عبيرها صوب من ترغب ، ممهدة لحلول اللحظة التى سيصبح فيها المفرد جمعا ، والواحد اثنين .

لا يستدعى امراة ولجت عمره فى هذا المحط او ذاك الا ورأى طلاتها الأولى فى افتتاحيات اللقيا ، وبدء لحظات التدانى ، رب علاقة تدوم سنوات ، واذ تغرب شمسها ، تتحلل عنـــاصرها وتذوى ، لا يبقى من حميميتها الا لحظات قلائل ، ومضات تدلّ على جوهر حقب امتدت وظن عند اللجاج فيها انها دائمة ابدا ، لكن تفنى التفاصيل، وتندغم الجزئيات ، ولا يبقى ساطعا الا البداية والنهاية ، مفتتح القوس واغلاقه .

هكذا ايقن لحظة رؤيته تلك البنية الفادهة . ان هيئة انتظارها تلك ستجب ماعداها ، انها ستبقى فى معيته ، يسترجعها فى اقامته ورحيله ، فى سكونه وترحاله . تبدو مختلفة عن تلك التى رآهـــا واقفة أمام المنضدة المستطيلة ، توزع اللفات والشارات ، والبطاقات، وتبذل جهدا ، وتفنى قدرا من الطاقة أثار اعجاب الكافة ، حتى بات بعضهم بعبارات اعجاب ، وأسفر آخرون عن ود ، أما هو فلزم صمت بدافع من خجل قديم لا يتبدد الا بعد الايغال فى القربى ، وها هى تسعى اليه ، وتجهر صراحة ، فلم تأت الا من أجله ، تأسف لان قدومهـــا بدون مقدمات ، يرفع بدا معبرة عن احتجاج صامت ، لكنها تواصل القول ، حاولت الاتصال به فى الصباح الباكر ولم تجده ، ولأن ما تبقى من ساعات اليوم قليل ، وغدا الجلسة الختامية ، أما جلسة بعــد الظهر فلن تحوى الا تلاوة ابحاث مطبوعة ، وزعت على المشاركين ، تبتسم دافقة عذوبة ديانة ، تقول أن يحملها بثبت أسبقية الجامعة على البلدية فى تأسيس المدينة . تقترح عليه جولة لرؤية المعـــالم غير المدونة فى الكتيبات السياحية .

يتبدد ارهاقه بعد صحبة المغربي ، تتلاشى رغبته في التماس الهجوم قليلا ، حتى يبدأ ما بعد الظهر نشطا ، نادرا ، يبتسم ممتنا ، شاكرا ، يحل عنده ابتهاج ، ويخف امره ، يشعر انه مقدم على امر ، فما من عامل مبدد للوحدة ، للوحشة ، ليبوسة الوقت، مثل القربى من امرأة راغبة ، مرحبة ، ما البال اذا شرعت هي ؟ بسط يده لتقدمته ، شعرها مسترسل ، مستمر حتى نتوء ردفيها مثل فكرة سلسلة ، حاذاها ، فبدا جانب وجهها الايمن ، ذو حضور خاص ، في عينيها اختلاف ، وسن متامل في اليسرى ، شارد ، تنفرد به ، فيضيق منها ، يوجد اختلاف غريب عجيب عن اليمنى ، لا يبدو الا اذا تطلعت اليها بالمواجهة ، ولكن يوجد المغايرة بين الجانبين الايمن والايسر ، فكأنها اثنين في واحد ، أو شطران مختلفان تضاما معا ، وهذا من أندر ما رأى ، أما ملامحها فتوحي بابتسامة لا تسفر تماما ، لكنها موجودة في موضع ما منه ، ربما في مقلتيها ، أو في ثنايا غمازتيها ، أو من خلال انفراجة شفتيها ، ومن وقت الى وقت يبدى جبينها طيفا شجيا ، لكنه لا يقطع الأمل من ابتسامتها الخفية ، التي تبدو كوعد قائم بالرسو .

مضيا تحت الاقواس المجربة ، عبرا الطريق ، وعندما أبدى ترددا لحظة اقتراب عربة خاصة ، مدت يدها الى ذراعه ، قالت ان الشباب يقود بسرعة ، يتوقفون فجاة على بعد قليل جدا من خطوط المشاه ، هذا لم يكن موجودا من قبل ، سيء هذا ، لكن العمل ازاء تراخي قبضة رجال المرور ؟

في شارع جانبي ينتهي ببناء احمر اللون ، نوافذه مغلقة ، توقفت أمام سيارة صغيرة ، زرقاء اللون ، قالت انها استعارتها من صاحبة لها الليلة الماضية ، خصيصا لتلك الجولة ، انها لا تمتلك عربة ، تستخدم حافلة المكتب في ساعات العمل الرسمية ، انتقالاتها محدودة جدا ، لا تغادر مسكنها الصغير آلا نادرا ، مجرد انتهاء عملها تعود اليه ، نادرا ما تقضي الامسيات في الخارج .

تحذير هذا ؟ ، يقول مداعبا :

— ما من صاحب ؟

تلتفت اليه فجاة ، ظلة موجزة .

— نعم .. عندي صديق ..

بعد لحيظة ، تتابع .

— أنه في الهند ..

أوشك على مزيد من الاستفسار ، لكنه ازاء حزمها وايجازها كف ، عاد يفكر فيما قالته عن استمادتها سيارة صاحبتها خصيصا لتلك الجولة ، اذن أضمرت آلنية من الليلة الماضية ، متى بدأ اهتمامها ، متى أفرت شروعها ؟ ، كانت تبدو لاهية ، مستعصية ، أما أخبارها عن صاحبها فلا يدرى كيف يقبله أو يقيمه ، أنه يسعى باتجاه لحظة محددة تتبدد حواجز غير مرئية ، وتحدث الصلة ، اذا تجاوزها فلن تتحقق القربى أبدا ، بعد ساعات سيرحل ، يمضى الى مكان وتبقى هنا ، ربما لن يصل هذه المدينة ، لن يرها ، وهذا غالب، ربما تختفى صورته من وعيها بعد حين ، فلماذا يستثار فضوله حول صاحبها ؟ أما محاولته للاتصال بعالمها الانثوى فلها مشروعية ، ما عليه الا تلمس الاطراف والحدود ، ولها القبول أو الامتناع .

يركب الى جوارها ، عبيرها الانثوى طاغ ، ما من رجل وقعت عيناه على امرأة الا وشرع ، واذا لم يسفر فانه ينوى ، ويسأل نفسه ، هل تصلح لى وهل أصلح لها ؟ ، فلماذا يخرج عما يدركه من آلناموس ؟

لم تتردد عند لافتة ، أو مفرق ، طرق أضيق ، ذات اتجاه واحد ، لم يسلكها مع المغربى ، تتوالى أبواب خشبية ، ضخمة ، مغلقة ، الأرض أمامها ممهدة لدخول العربات ، علامات منع الانتظار، فى الفراغ الموحى بالسر .

يقول انه الجزء الاقدم من آلمدينة ، يوازى قدم الجامعة ذاتها ، هنا يقيم معظم أساتذة الجامعة ، خاصة آلكليات النظرية ، بعض أساتذة الكليات العملية يفضلون سكنى المنطقة الجديدة ، فى المواجهة بدا بناء اسطوانى ، مرتفع ، يؤدى اليه سلم عريض .

ــ انه الحصن المشيد . .

يبدى دهشة ، أى حصن ؟ ، لم يخبره آلمغربى به ، تتساءل . .

ــ أى مغربى ؟

ينبئها بلقائه ، تهز رأسها ، تقول انها تعرف أهالى المدينة ، خاصة الأغراب منهم ، أو ذوى الأصول الاجنبية ، لا تذكر ان بينهم مغربيا يطلعها على رقم الهاتف ، تقول انه سبعة أرقام ، وهواتف المدينة ستة لا غير . ربما فى العاصمة الاتحادية .

تدركنى حيرة ، لكنه يترجل مستجيبا لاقتراحها رؤية آلحصن المشيد ، تحرص على أن تتقدمه بضع خطوات فيمتلى ، تلامس

الأرض بأطراف أصابعها ، كأنه شروع فى رقص وليس خطوا ، يهفو
أين المدخل ؟ ، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، ويدرك انه بحاجة الى أنس خاص بعد جدب طال أمده ، يتقدم عند وصولها وانحنائها أمام كوة صغيرة ، وإذ تفتح حقيبتها يبادر ، متأهبا لدفع النقود ، لكنها تلوح ببطاقة صغيرة ، خضراء من ناحية، صفراء من جهته ، تقول انها تحمل تصريحات بدخول جميع الاماكن الأثرية ، وألهامة ، باعتبارها عاملة فى شركة سياحية .

اين المدخل ؟ ، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطرة مؤدية ، او الباب خفى ؟ ، يفاجأ بمصعد خشبى ، قديم ، يتدلى من أعلى الحصن ، مشدود بجنازير يصدر عنها صرير ، أشبه بدولاب صغير ، ينزلق بواسطة بكرات علوية لم يتبينها الا عند وصولهما الى السطح، أرهقه صعود الارتفاع الشاهق ، التأرجح ، البطء ، لم يختلس النظر الى الأرض التى راحت تنأى ، خشية دوار مفاجىء ، حتى عندما لاحت له أسطح البيوت المتجاورة ذات اللون الوردى ، متقارب الدرجات ، أما الافق فبدأ نائيا ، كان لابد من اجتياز أعلى الجدار من خلال درجات سلم ثلاث تم حفرها فى القرن الماضى ، وقفا فوق السطح الدائرى ، يبدو الحصن كله اسطوانة ضخمة من الحجر المصمت ، اما القلب فعبارة عن متاهة خفية ، معظمها يصرف بعد ، من ممرات ضيقة ، وأبواب حجرية ، حقيقية ، وهمية ، منافذ تؤدى الى نفس الداخل ، أبواب مستطيلة ، واخرى مربعة او دائرية ، لابد من اجتياز طريق تشير اليه الاسهم الفوسفورية ، تم تحديده بواسطة قسم التصاميم المعمارية فى الجامعة اختصارا لوقت الزائرين ، حتى يمكن الوصول الى غرفة الاقامة حيث تحصن واختبأ صاحب البرج ، يستغرق الوصول اليها ثلاثين دقيقة ، الا يغالى فى المعمار مرهق ، تميل الممرات ، أحيانا ترتفع ، تتقدمه المرافقة الباسقة ، رشيقة ، فتية ، تعرف التضاريس ، تحفظ الخبايا ، لا تتردد عند المفارق المتشابهة ، تبدو كينونتها المادية ، الرشيقة ، مصدرا لطاقة شابة ، متجددة ، قادرة على الامعان والتحمل ، حاول مغالبة خفقه المتسارع ، وتوالى انفاسه ، وضيقه بالهواء الراكد غير المتجدد ، أنه على مشارف كهوله ، يجتاز قنطرة فاصلة ما بين زمن الاسكانية والوشك على اضمحلالها ، قتامة تتزايد داخله ، رغم أن المبنى كله صمم للهرب من المنية ، وتضليلها ، هذا سبب بناء الحصن .

متاهة

الحصن قديم ، يرجع الى ماقبل التاريخ المدون للمدينة او الجامعة ، ربما الى المرحلة التالية لاستقرار ذرية الفلاسفة الاربعين ، من هنا يقول الجامعيون أن أسلافهم لعبوا دورا فى تصميم تلك المتاهة الغريبة . على أساس انهم ينحدرون من صلب الفلاسفة ، ويعتبرونهم النواة البعيدة للجامعة ، والعلوم كلها ، بدأ الامر عندما تولى محارب قديم الناحية ، كان محاربا ، شجاعا ، عنده اقدام ، وجرأة على الموت ، تلقى فى صدره سبعين ضربة سيف ، نجا منها ، ولكن بعد أن تركت علامات صعب اندمالها ، قضى الخمسين عاما الأولى من عمره فى مطاردة القبائل الجنوبية ، والتصدى لأهالى البحار الشمالية ، واخضاع المتمردين فى الجبال القريبة .

ثم استقر فى الناحية ، أوكل اليه تسيير شئون الخلق ، وتنظيم توزيع المياه ، واستغلالها بواسطة الصهاريج ، مع سكونه ، وبدء أيام راحته تغيرت أحواله وصارت الى عكس وخلف ، مال الى الصمت ، ثم نقل عن نسائه انه هجرهن ، وزهد فى اتيانهن ، وصار يخشى النوم ليلا حذرا من طول الهجوع ، وانعدام اليقظة مرة أخرى ، لم يكن يغفو الا مضطرا ولمدة ساعة لا غير كل أربعة أو خمسة أيام ، صار المحارب القديم الى خشية الموت ، والخوف من الفناء ، الغياب عن عالم الحس والمعنى ، حاول الحكماء المنحدرون من الفلاسفة معالجته خفية ، ولهم معرفة بالطب ، وعلم النجوم ، وصنوف المعارك الكفيلة ، خشوا ذيوع أحواله ، خاصة ان الناحية كانت على وشك خوض حرب ضد ثلاث مقاطعات متجاورة ، بسبب الصراع على نبع مائى فى الجبل القريب ، لمائه خاصية فريدة ، عند وضعه فى أناء يفور ، نسبت اليه فوائد .

صارت الناحية الى خطر ، واجمع الحكماء على اخفاء مرضه ، استجابوا بسرعة لمقترحه الذى بدأ غريبا ، وتؤكد الروايات أن واحدا من احفاد كبير الفلاسفة أوحى به اليه ، وأنه لم يصدر عنه ، لانه افتقد القدرة على التفكير بعد انعدام أوقات نومه ، وأخرى همومه ،

فى البؤرة يمكنه القبوع ، درء الخطر ، وتضليل العدم . شــارك صفوة الحكماء فى بنائه ، ويقال انه بدأ غريبا بمقاييس الوقت ، حتى حاد آلاعداء عندما رأوه يعلو وعجز رصدهم له عن استكشــاف حقيقته ، فظنوه طلسما يدفع الاذى عن اهالى الناحية ، فأحجموا وتراجعوا ، حتى الآن لا يعرف المكان الذى لجأ اليه المحارب القـديم للاختباء من الموت على وجه الدقة ، آذ يشمل الحصن على اربعين مكانا بديلا ، متشابها ، وصف الممرات والدهاليز المؤدية يملأ اربعين مجلداً لم تطبع بعد ، وتعتبر من نفائس الجامعة ، تسجل البعثـات التى نقبت على مدى المائة عام الاخيرة العثور على عدة هياكل عظيمة ، بعضها لبشر يبدو انهم ضلوا طريقهم اثناء محاولتهم البحث عن كنوز متوهمة ، والبعض الآخر لحيوانات منقرضة لا مثيل لهــا الان ، ولا يعرف احد لماذا ولجت المكان ، أو .. كيف ؟ لكن اغرب ما يتردد بين رجال المدينة ونسائها القدامى ، أن المحارب القديم لم يمت ، وانه باق حتى الان ، حى يرزق ، ويرجع ذلك الى ترتيب محكم اعده احفاد الفلاسفة بحيث تدخلوا فى دورة الوقت ، فاوقفوا اللحظة عند دخوله ، وان سكون حركته تلا ذلك ، فلا حركة الا مع نقله ، وتمامها يعنى انقضاء مدة ، تمكنوا من الغاء هذا . وهذا يطول شرحه ، ويصعب تفسيره ، وللامر علاقة باختفاء الامير الصينى ، كيف ؟ ، هذا ما لم يلم به أحد ، اما الفارق فيكمن فى انتظار قوم لعودة الأمير ، وانعدام ذلك بالنسبة للمحارب الذى هرب من الموت .

بالطبع .. يسخر رجال البلدية من ذلك ، وفى المقابل يتهمهم الجامعيون باشاعة مالايعقل ونسبته اليهم حتى يستخف النـاس بهم ، وتهتز مكانتهم عند الحد الأخير المسموح بوصول الأجانب اليه ، قالت مرافقته أن البعض يوقنون بوجوده حيا، لهم اشباع فى الخارج، خاصة فى ولاية نيفادا الامريكية ، يفد القادرون منهم كل سنة فى ميعاد معلوم لقضاء أسبوع على مقربة من الحصن ، يزورونه يوميا ويخاطبون الغائب جماعة باللغة القديمة .

لومىء برأسها ، هذا حقيقى .

قالت أن الحكماء نادوا فى الناس بعد دخوله الحصن ، ان المحارب القديم آن له ان يستريح ؟ أنه احتجب الى حين غير مقدر . غير معلوم ، سيرجع قويا ، سليما من كل عطب ، متجاوزا كل فناء ، وعنده الحلول للأمور المستعصية ، أما تدبير أحوال الناس فلابد من اسنادها الى رجل قوى ليمكن التصدى لمصادر الخطر ، خاصـــة

الذين يريدون الاستيلاء على نبع الماء الفوار ، بالفعل ،. اختاروا مبارزا شهيرا حارب تحت أمرته ، أطلقوا عليه ، نائب الغيبة ، برغم عدة قرون منقضية ، برغم اختلاف الدلالات ، وتبادل المواقع ، فمازال يوجد منصب فى الهيكل الوظيفى للبلدية يعرف بنائب الغيبة ، وهو المختص بالاشراف على المحطة الرئيسية لتنقية المياه ، وتوزيعها ، وتحصيل الأموال الخاصة بها من البيوت والمصالح ، اما الجامعة فتدفع مبلغا رمزيا .

يستفسر عن العلاقة بين الغيبة والمياه ، تلتفت اليه ، ابتسامتها رحبة ، فى اختلاف عينيها توافق وتماثل ، يجتازه وفق ، بتأثير انفرادهما أو بغالهما فى النأى عن الفراغ المنظور ، يخشى أن يبدو منه بدون قصد ما لا يليق ، تهب عليه ريح طيبة من زمنه القديم ، عندما كانت تغمره الرغبة فيبدأ ولا يكف ، حتى يتحول وجوده الى لفظ منهمر . يبدأ اخبارها بنبأ حصن قديم ، مندثر .

فى الزمن البعيد ، الآفل ، حيث لا يمكن تحديد علامة فارقة ، او سنوات قاطعة ، أو حوادث معينة ، عاش ملك جبار اسمه النمرود ، بسط ظل ملكه على فيافى ، ودانت له أمصار قصية ، وأخضع ممالك ، ثم تطلع الى السماوات العلا بعد أن قهر كل ذى سلطان فوق سطح الارض ، ماذا بعد وصوله الى الجهات الاربع الاصلية ، واجتيازه البحار السبعة ؟ ، فى احدى الليالى قرر بدء المحاولة ، على الفور جمع كل ذى علم . أمرهم بتصميم برج يصعد الى مالانهاية ، يتجاوز الغماء ، يدنو من الافلاك ، يمكنه اسر الشهب والرواجم ، التى تمرق أمام عينيه فى الليالى الغامقة ، ولا يدرى لها تفسيرا ، وجم العقلاء ومنهم أصحاب العلم الغزير ، لكن من يقدر على تحدى ارادة نمرود ؟

بدأ العمل لتصميم برج يصل الى السماء ، حشد أسرى الحروب ، والعبيد ، وجمع بلا حد من الفقراء ، وخلال عامين امكن له أن ينظر الى السحاب من أعلى ، وأن يرى الغماو من تحته ، بعد أن تجاوزه البناء ، لم يتوقف التشييد ، ولم تهدأ الحركة ، فى صباح يوم خرج النمرود ممتطيا صهوة جواده الأكحل ليتفقد العمل ، وليتطلع الى سموق برجه . الذى لم يكن ممكنا رؤية نهاية ارتفاعه عند الوقوف تحته مباشرة ، أو بالقرب منه ، انما لابد من الابتعاد مقدار غير قليل ، حتى يمكن مشاهدة حافته العليا التى تغوص فى السحاب ، لا يدرى أحد ، ولم يفسر المعاصرون او المؤرخون الذين جاءوا بعد ذلك

ما جرى ، ذلك أن النمرود نفض دماغه نفضة هائلة حتى روع المحيطين به ، وجزع المقربين منه ، ومنذ تلك اللحظة بدأت آلامه التى استمرت حتى موته ، قيل فى تعليلها ان حشرة صغيرة جدا ، مجهولة ، ذؤيبة ، نفذت من أذنه ، واستقرت فى مكان ما من رأسه ، كان طنينها يسبب له آلاما هائلة ، حتى لا تدركه الراحة الا اذا ضرب بالنعال ، نصحه أحد الحكماء بالكف عن محاولة الصعود الى السماء ، فما جرى مجرد عقاب دنيوى من الخالق الجبار ، لا تدركه الابصار ويدرك كل شيء ، غير أن أمره بايقاف البناء لم ينه الهه الفظيع .

تبدى مرافقته دهشتها ، ملامح طفولية ، صافية ، يبدو جانب منها لم يقف عليه حتى هذه اللحظة ، يهم بالدنو ، ولكنه يحجم ، يستبدل رغبته ، وشروعه الوشيك ، بالاستمرار فى اخبـــارها عن حصن آخر ذلك أيضا ، ولا يعرف وصفه ، أو خاصته ، وانه نبـــأ قديم دونته الكتب ، حول مهندس معمارى بلغ فى فنه مدى لم يسبقه اليه أحد ، ولم يعرف عمن سبقوه ، أو جاءوا بعده ، انهم طالوا رتبته أو وقفوا على مهارة تماثله ، فمن أعماله التى بقى ذكرها ، بنـــاية تدور مع أشعة الشمس طوال اليوم ، نوافذه تتسع اذا وهن الضوء وخفت ، وتضيق اذا اشتد وسطع ، كذلك المسجد الذى ذكره كل من شاهده ، أو صلى به من الرحالة الغرباء ، والتجـــار الذين دونوا مشاهداتهم ، والشعراء الساعين ، والصوفية السائحين ، والبلغـاء المحدثين ، مسجد تتخلل جدرانه عدة فتحات يدخل منها الهواء ، فاذا اشتد أمر الرياح سمع من على بعد مسيرة ثلاثة أيام بلياليها ، صوتا جميلا ، مختلفا عن النغمات البشرية ، يسبح بحمد الله وشكره ، لا .. ليس هذا أغرب ما شيد ، انما ذلك الحصن المنيع ، اذا استدعاه ملك البلاد والتصرف فى شئونها ، طلب منه أقامة بناء يتحدث عنه ويعجب منه أبناء الازمنة المقبلة ، على الفور ، بدأ يشـــحذ أروع ماعنده ، صمم حصنا منيعا ، قويا ، بديعا ، لم يفهمه أحد أثنــاء العمل به ، ولم يتعرف انسان ، على صورته المكتملة ، لم تتفتـــح ملامحه الا قبل الفراغ بفترة قصيرة ، تحوى فصول السنة الاربعــة متجاورة ، تحوى فصول السنة الاربعة متجاورة ، من شتاء بارد ، وصيف قائظ ، وربيع وخريف ، ثم أجرى الماء بدون ماء فى مواضع معينة ، ونصب مناظر بحيث يرى الجالس فيها القليل كثيرا ، والقطرات المحدودة بحرا بلا حد ، ومحيطا صعب الخوض فيه ، بتخلل الجدران قنوات صغيرة يسرى فيها المسك السائل فى دورة مغلقة بلا حد ، أما

جدران الحصن فصممت بحيث تبدو للساعين اليه أو حوله في أوقات الأمان ، وأيام الدعة ، لكن . . اذا لاح خطر ما ، فان لونا معينا ينتشر بترتيب معلوم لقلة محدودة فيختفي المبنى كله عن الانظار ، وبذلك يصد المدافعين اى هجوم ويمكنهم اتيان العدو من حيث لا يدرى .

يوم افتتاح الحصن ، صحب الملك المهندس الى أعلى نقطـــة في الحصن ، قال ان العمل عظيم سيخلد اسمه ، لكن كيف يثق الا يبنى مثله لمن سيجئ بعده ؟ ، تطلع المهندس اليه ، أدرك ما يجول بخاطره ، قال انه لا يمكنه تصميم آخر مثله ، اذ وضع خلاصة عمره هنـــا ، وهنا أشار الملك الى اثنين من حراسه ، أمسكو بالمهندس الذى بدا مستسلما ، وكأنه توقع ما نزل به ، أوثقوا يديه وراء ظهره وشيعوه في الفراغ ، قيل للناس أنه أضمر الخيانة ، وقصد الهرب ليشـــيد برجا آخر يفوق ما بناه هنا . وانه لقى جزاءه العادل ، لكن في اليوم التالى جرى ما لم يتوقعه أحد . اذ خلع أحد مساعديه الى الملك . واخبره بما كتمه المهندس العبقرى ، مالم يطلع عليه أحد ، ما الحكاية الآن ؟ ، لقد أفضى الى معاونيه الثلاثة بسر ، هذا الحصن العجيب ، المنيع ، يوجد به حجر واحد لو دفعه طفل صغير باصبعه لســـقط البناء كله ، يتداعى ولا يبقى منه شيء ، قال المساعد : انه ولا غيره على دراية او علم بمكان الحجر ، وأنهم ايقنوا باطلاعه الملك على كل شيء . بدأ الهم يجثم على الملك ، لم تفلح كل وسائل الاســـتنطاق والاستجواب مع المعاونين وكبار المعلمين المشاركين في البناء ، ظل موضع الحجر خفيا غامضا ، مستورا ، كيف تمكن الاقامة في موضـــــع بقائه مرهون بحجر صغير ، لو تحرك مصـــادفة سينهار التشـــييد كله ؟ ، ربما تعثر به هو ، أو أحد الجند أو الخدم وهم كثر ، ربمـــا اتكأ عليه أحدهم ، ربما دفعه طفل باصبعه ، بمقدمة حذائه ، عندئذ سيصبح اضحوكة الملوك ، ونادرة السلاطين ، امر باخلاء الحصن ، دخله حذرا ، منفردا ، توقف أمام الأسوار ، والمطالع ، والفتحات ، والحجرات ، والقاعات ، تساءل المقربون عن سبب تأخره في الانتقال الى بنائه الاسطورى ، غمغم ولم يفصح ، حتى خمن البعض وجود أمر يشق عليه ، لاحظوا شروده ، وتلفته الدائم ، واتجاهه المفـــاجيء الى الحصن ، مرة نهارا ، ومرة ليلا ، تفحصه الجدران ، اصغاؤه الى ما قد ينبعث منها ، امره العمال بالدخول لتفحص الاروقة ، ثم صراحة المفاجيء فيهم ان يبتعدوا ، ومع مضى الوقت بدأت تنتابه رجفات وخضات عجز الأطباء عن علاجه منها ، وبرغم حرصه على ابقاء السر

مكتوما ، خشية سخرية الخلق منه ، ولكن من يحيطون به أخفوا عنه ان الأمر ذاع وانتشر ، حتى ان الغرباء صاروا يتجنبون المشى على مقربة من الحصن ، لم يطلع على ذلك حتى احتضاره العسر ، بعده .. امتنع رجال الدولة عن الاقامة فى الحصن ، أو الدنو منه . دام ذلك عددا غير معلوم من السنين حتى نسى الأمر ، وبقى الناس بين مصدق ومكذب لما تردد فى الزمن القديم ، عاد الحظو داخل الحصن ، وبهت اسم الملك الذى أمر ببنائه ، لكن اسم المهندس تناقله للناس ، وصار ماجرى له مثلا يتردد ، فقيل .. جزاء سنمار ، طبعا .. نهبت أشياء كثيرة من الداخل ، مثل أخشاب الصندل الهندى التى بطنت بها بعض القاعات ، كما جفت قنوات المسك ، وفسد نظام الفصول الأربعة ، ثم تحول الى طلل مبهم ، غامض ، لا يربطه الناس باسم المهندس الذى راح ظلما ومازال اسمه يتردد ، آخر من استخدمه الجيش المملوكى الذى اتخذه كمخزن للاغراض البالية ، التى استنفدت مدتها ولا تزال بقايا البناء لكن لم يعرف انسان موضع الحجر الخفى ..

ـ حتى الآن ؟

يومىء .

ـ نعم .. حتى الآن .

ترفع يديها ، متماستان ، مبسوطتان ، يضوى ألق الدهشة الطفولية فى عينيها ذواتى الظلال .

ـ رائع ، مدهش .. لم اسمع ولم اقرأ مثل هذا ..

يبدو منها جديد ، تلك الايماءة الموجزة ، لا توقيت مسبق لها ، ولانذر بأدبه ، قلقلت عنده رواسى قديمة ، وحركت غوامض كامنة ، وأشواقا مجهولة المصدر ، ومرائى مبهمة بلا لفظ ينطق ، أو حس برصد ، لزمن بديع لم يمر به ، وأن حن اليه ! ذقنها الدقيقة ، مرفوعة ، شماء ، غير انها تطرق فجأة ، صمت مباغت لم يتوقعه بعد حماسها الدافق ، بعد صمت يسير تقول انهما أمضيا وقتا فى التجوال ، ولابد أنه جائع الآن ، أعتادت أن تأكل شيئا خفيفا عند الخامسة ، أما وجبة طعامها الرئيسية فعند العشاء ، لماذا تبدو أكثر نأيا الآن ؟ ، حتى نزولهما بالمصعد اليدوى القديم ، وركوبه الى جوارها لم تفه بحرف ، بل بدت مهمومة بشىء ما ، هيئتها ، تحديقها ، الزماه الصمت ، تمضى السيارة فى حركة دائرية ، عند بداية الطريق القصير المؤدى الى الحصن من الجهة الاخرى ، بوابة فى الفراغ ،

مماثلة تماما ، النتوء شبه المثلث العلوى ، قبل أن يستفسر تقول :
ــ انها بوابة الغيبة ..

تجتاز السيارة شارعا مرصوفا بحجارة وردية اللون ، لكنــه عريض ، تمضى فيه المركبات عبر اتجاهين ، لكنه بعد لحظات خيــل اليه اتساع الطريق مع استمرار التوغل فيه ، يتطلع الى الوراء ، ماهذا ؟ لم ير امتدادا لما يفارقه ، لما تقطعه العربة ، فكأن الشـــارع يطوى طيا بعد اجتيازهما مباشرة ، ولون الضوء .. أنه مختلف تماما الى الوراء عنه فى المواجهة ، يميل الفراغ الى صفرة قاتمة فكأنه وقت ما قبل الغروب ، لكن فى المواجهة يسطع النهار ، الوقت لم يقتـرب بعد من العصر ، فأى افول فى الخلف ؟ يشك فى أمره ، أو بلون الزجاج الخلفى المرئيات ؟ ، لكن .. اذا صح ذلك فهل يخفى الموجودات ، الواجهات ، المعالم ، النواصى ، يمعن حائرا ، لكنها تلمس ركبتــه برفق ، تقول ان هذا مخالف لقانون البلدية المنظم للمرور ، يقــول انه يلحظ مالم يعتده ، مالم يتأكد منه ، تلتفت ناحيته ، تبدو ملامحها جادة ، تماما كما تقف فى مدخل القاعة ، تجاوب الجميع بابتســامة جادة الصدق ، قالت أن الغرباء لا يتآلفون مع المدينة بسهولة ، يستمر تحديقها الى الطريق ، مبدية صدا ، وعدم مجاوبة ، ربما تعللا بقوانين المرور التي تحرم الحديث تماما خلال القيادة او لحرصــــها على الا تخوض فى حوار يخص أمورا ، او ظواهر معينة فى المدينة ، لــكن عندما لاح الميدان ، وظهر المبنى الذى رآه منذ ساعتين تقريبا ، الذى دار حوله صباح اليوم بصحبة المغربى ، لم يمنع نفسه من الانحنــاء الى أقصى قدر يسمح به الفراغ الضيق للعربة .

ــ غير معقول !!

تجاوبه ، غير ملتفتة الى دهشته :

ــ هذا اخطر مبنى فى الناحية كلها ..

لم ينتبه الى تشابه ايقاع لفظها مع كلمات المغربى الا منذ استعادة تلك اللحظات فى الليل ، قبل نومه ، لكن ماشد انتباهه ، ما لفت نظره الى حد حبسه انفاسه ، تغير المعالم ، الميدان المحيط بالمبنى مغاير لما رآه فى الصباح ، الم يكن مرصوفا بالحجارة ، انه مفروش الآن بالقار ، المبانى المطلة الم تبدو اطول ارتفاعا ، الان .. كلها دون المبنى ، بل ان هــذه العمارة المســتطيلة ، ذات الشرفات الخشبية فى أقصى الميدان ، لم يكن لها وجود بالمرة منذ ساعات ، يقطع بذلك ، لم تقع عليها عيناه ، فى البداية شك ، ربما جاءه من جهة مغايرة ، لكنه

دار حوله ونبهه الغريب الى الداخل والخارج ، اما مالم يدع له مجالاً للشك فى التبدل ، التغير ، فالمبنى نفسه ، الطلاء متغير ، نعم .. هذا اللون الأصفر الذى تخالطه خضرة لم يكن له وجود ، كذا وضع النوافذ فى الطوابق الثلاثة ، رآها من قبل متجاورة ، متراصة فوق بعضها ، لكنها الآن متباعدة ، مواقعها متبادلة ، فراغ يعقبه نافذة تحت ، خلو فوق ، عجيب ، اما القضبان الحديدية السوداء على هيئة اغصان تلتقى حول زهرة من نحاس فلا اثر لها ، يلتفت اليها ، يوقن انها تدرك حيرته ، لا تفصح ، لا تومىء ، لا تبدى اشارة، لن تشرح ، لن تفسر ، يخف عنده تأثيرها الانثوى ، يسفر المبهم فيها ، تتجاوز الميدان بسرعة ، يلتفت بحركة لا ارادية ، ياه .. يبدو الميدان والمبنى بعيدا ، كأن الزجاج الخلفى من عدسة هائلة ، تقصى الموجودات برغم قربها ، لا يتناسب ما يراه مع المسافة المحدودة التى قطعتها العربة فى الطريق الذى يميل الى صعود ، السيارة تتوقف قرب ناصية رمادية ، يتوقفان أمام مبنى قديم من حجر ، سلالم مرتفعة تؤدى الى ممر بدون حاجز يؤدى الى درجات اخرى ، تنتهى الى مصطبة حجرية عريضة تؤدى الى مدخل المطعم ، قديم ، رائحة طهو طيبة ، الابواب خشبية غليظة ، والسقف منخفض ، مدجج بأكواب من خزف ، وأخرى من زجاج ، ومن معدن ، أحجام مختلفة ، ومصادر متعددة ، مصابيح يدوية فى الاركان ، وشموع نحيلة فى أطباق من زجاج نقى تتوسط الموائد ، ولانه جائع فعلا ، ولدنوه من المائدة ، ولطابع العتاقة فى المكان ، عاوده حماس ، وانبثت داخله طاقة رغم حيرته ، تساؤله عن الميدان ، كيف سيجده اذا عاد اليه الان ؟ ، والطريق التى تطوى بمجرد المرور منها ، وهم ، أو حقيقة ؟ أو شيء ثالث يستعصى عليه ادراكه أو سبر كنهم ، بل .. هذا المطعم ، المكان الذى يوجد فيه الآن ، هل سيجده اذا جاءه غدا فى التوقيت عينه ؟ ، أم أن الهيئة ستتبدل ، والمكان سيتغير ، ربما جرى تحول خفى لا تدركه عيناه ، لا يلم به بصره ، اللهم .. هل سيجد الفندق فى موقعه ، غرفته، حاجته ؟ يتحسس حافظته ، ويلمس حافة جواز سفره باطراف اصابعه داخل جيبه ، يعود ليلتفت حوله ، الوقت بين الغداء والعشاء ، رجلان فقط يجلسان الى منضدة قصية ، أحدهما يرتدى زى البحارة ، لكنه لم يستطع استنتاج اسطول حربى او تجارى ؟ . ولم يسأل رفيقة جولته ، أحدهما يضرب المنضدة بقبضته بين حين وآخر ، ماذا يفعل ، كيف يتصرف لو قام احدهما فجاة وهاجمه طلبا

الانثى التى تجلس اليه ، لو تحرش به لأى سبب ما ؟ يدركه خوف الغربة ، والوحدة ، وعدم درايته بفنون العراك ، حتى فى أيام دراسته البعيدة تجنب الشجار ، ونأى عن العنف ، وان لم يحل هذا دون فورات انفعالية تتفجر داخله حيث لا يتوقع .. تسعى به أحيانا الى هلاك مبين !

يتبادل النادل التحية مع صاحبته ، يعرف كل منهما الآخر ، يبدو نطقها عند حديثها اليه مختلفا ، أكثر تأنقا ، انثويا ، تحدد ما تطلبه، مشيرة بيديها ، ترجع من لحظة الى أخرى لتتطلع الى القائمة ، لم تستطلع رأيه ، ربما تخصص المطعم فى صنف واحد ، أو تعرف طبقا معينا تريده أن يتذوقه .

عندما وضع طبقي المقانق ، الأول أمامها ، والثاني ناحيته ، تطلع الى القطع المبرومة ، المستطيلة ، تذكر باعة السجق الواقفين بعرباتهم عند نواصي الحى القديم ، وفراغ ليلى مزدحم بأضواء شتى وضجيج قومه .

الطبق بيضاوى ، المقانق مرصوصة بالعرض ، عند الحافة قطع صغيرة جدا من جبن له ملمس الزبد ، توسطت المنضدة زجاجة نبيذ وردى أشاعت عنده بهجة ، يعدل النادل وضع كاسين ليتلقيا الشراب ، يفاجأ بيدها تلمس يده ، تشير الى كأسها الفارغة ، من الأصول المرعية أن يقوم الرجل بذلك بعد تذوقه عينة صغيرة وابدائه ايماءه الرضى ، على الفور يبادر ، يصب مقدارين متساويين ، يرفع كأسه مبادرا لشرب نخبها ، بعد تذوقه الحسوة الاولى من المشروب المترف القديم ، تتلاق نظراتهما ، يقع تماس لحظى مارق ، لكنه لا يصل الى نقطة التواطؤ الخفى ، أو الاتفاق الضمنى على بدء الصلة، وميلاد العلاقة ، وقوع الخصوصية ، بدت له متوحدة بلحظتها ، تسعى الى صفو لم تصله بعد ، فيها فرادة ، ود لو فض أسرارها ، واطلع على دخائلها ، نفذ الى قدس أقداسها ، يلوح تورد من خلال شحوب وجنتيها ، يحاول المقارنة بين المذاقين ، نبيذ المغربى النادر، وهذا الذى يبدأ التعرف اليه الان ، يخيل اليه أن مذاق تلك الزجاجة الطف وارق ، ايرجع ذلك الى الجودة ، أو .. الى الصحبة ؟ ، قال القدامى أن المعول كله على النديم ، والنديم مشتق من الندم ، لأن ذلك ما يعقب فراقه وابتعاده ، هل سيندم على فراقها ؟ ، كيف سيذكر صحبتها بعد انقضاء الوقت ؟ ، لا يدرى، لكن الأمر مشوب بما يحاول نسيانه الآن ، ومن ذلك غوامض المدينة ، ورؤيته مالم يسمع

به من قبل ، وبقيته المخفى ان ثمة شيئا ما سيقع ، ماهو ؟ . لا يدرى، ربما خوفه المحدث من مكروه قد يقع فى غربته فلا يمكنه دفعه ، لماذا اختارته هو بالذات ؟!

عند تأهبها لتناول الطعام ، تشير الى المقانق ، تقول ان هذه نوعية لا توجد الا فى المدينة ، هذا الحجم ، وذلك المذاق الناتج عن تركيبة خاصة جدا يقوم بتصنيعها معمل عمره ثمانية قرون ، ومازال يعمل بالوسائل اليدوية ، انه متخصص فى تصنيع اللحوم ، جزء من انتاجه يصدر الى العاصمة الاتحادية ، يقدم فى المطاعم الكبيرة والفنادق العريقة . لكن المذاق لا يكفى ، لابد من رصها بالعرض ، وتغطيتها بهذا الجبن الخاص .

تتوقف لحظات ، تقطع واحدة الى نصفين ، تغمسها فى الجبن ، تتذوقها متمهلة .

ـ هكذا .. يجب أكله ..

يتبع خطواتها بحرص ، تبتسم مبتهجة ، تقول انه يبدو متقنا للتقاليد من أهالى المدينة ، تقول .. ان البلدية أصدرت لائحة منذ ثلاثمائة وخمسين عاما تنظم اكل المقانق ، بعد ظهور اكثر من نوع ، تفاوتت الاحجام فى السمك ، والطول ، والمذاق ، كثير منها جاء من مدن اخرى ، ولكن رئيس البلدية وقتئذ ، كان محبا للمقانق ، متعصبا لانتاج هذا المصنع ، أقدم على اجراء سخر منه البعض وقتئذ ، اذ أصدر مرسوما بلديا بمنع دخول المقانق ، وسرعان ما ظهر تعبير « المقانق الاجنبية » ، فرض عقوبات على أى بائع أو مطعم يقدمها، وتعدد الحراس رقابتهم على المداخل المؤدية لمنع القادمين من حمل اى صنف من المقانق ، خلال هذه الفترة كثرت الشكاوى الكيدية، اذ لجأ بعض من يضمرون غيظا من الآخرين الى أرسال شكاوى يتهمونهم باكل المقانق الاجنبية أو او أخفاء كميات منها ، فى البداية لم تبذل الشرطة أى محاولة للتحرى ، انما تبادر الى مداهمة الجهة المشكو فى حقها ، طبعا .. أدى هذا الى التحرز واتخاذ الحيطة ، حتى تم بالفعل قطع دابر الحقائق الاجنبية ، وكان البلاء الحقيقى أن تشتهى امرأة حامل نوعا منها ، عندئذ يضطر الزوج الى صحبتها اذا كان قادرا ، والسفر مسافات بعيدة لأكل المقانق المرغوبة ، أو البقاء مع دوام الرعب من ظهور قطعة مقانق فى جسم المولود لعدم تلبية رغبة الام ، أحيط هذا الصنف الوحيد برعاية كبيرة ، خاصة بعد مجىء عدد من الرسامين المشهورين وابداعهم لوحات للطبيعة الصامتة،

كانت أطباق الفانق عنصرا رئيسيا فيها ، لكن ثمة اختلاف لا يلحظه الغريب العابر ، ذلك ان أطباق الفانق فى تلك اللوحات تحتوى على الأصابع مرصوصة بالطول ، وليس بالعرض ، ويرجع هذا الى موقف التزمته ادارة الجامعة وطبقته بصرامة فى مطاعمها ، ومادبهـــا ، اذ نصت لائحة البلدية على وضع الفانق بالعرض ، والجبن فى الطـرف الايمن ، لكن فى الجامعة قرروا ، رصها بالطول ، والجبن فى الناحية اليسرى .

لماذا ؟

حفاظا على التميز والاستقلالية ، لكن .. هذا داخل اســوار الجامعة فقط ، وبالطبع كان الفنانون يأكلونها داخل المطاعم الجامعية ، المهم .. طبعت صورها على البطاقات البريدية فى نهاية القرن الماضى بعد ذيوع الصور الفوتوغرافيـــة ، وخصصـــت لوحات الدعاية السياسية ، طبعا مع صور الفتيات الجميلات ، شاع الأمر ، وقصده الأجانب ، وتضمنت قوائم الشركات الأجنبية وبرامجها تناول وجبة فى المدينة ، وفى الرحلات المرتفعة التكاليف يذكر هذا المطعم بالذات ، اذ انه أقدمها ، وافضلها ، ظهر فى المقاطعات الأخرى ، وفى العاصمة مطاعم تخصصت فى هذا الصنف بالذات ، يعلق أصحابها شـهادات تثبت انتماء حقائبهم الى المدينة ، ومع زيادة حركة السائحين القادمين من أمريكا انتشرت فى فنادق البلاد التى حرصت فى أعلاناتها على نشر صورة طاه من أهل المدينة متخصص ، ويحمل شهادة خاصـــة من البلدية تثبت انه اجتاز الاختبارات الخاصة باعداد الفانق ، الآن يعتبر اهم طبق يقدم فى العواصم الأجنبية خلال الاسابيع الاعلامية ، ومن علامات المدينة ..

— مثل الكافيار الروسى ، والمكرونة الايطالية .. والشمبانيا الفرنسية ..

يبتسم

— والفول الدمياطى ، والملوحة الصعيدية ، والسمك البورسعيدى ، والفطير الشرقاوى ..

تتطلع اليه جادة ، مقطبة ، مستفسرة ..

— اطعمة مشهورة عندنا ..

— لم اعرفها .

تعود على مضغها الانيق ، المتمهل ، لم يستطع الوقوف على المذاق الخاص ، لا يأكلها الا نادراً ، لكن ما بدا له مثيرة ، حماسـها

اثناء اطلاعه ، عند خروجهما التفتت فجأة فى لحظة هم فيها بتركيز البصر على ردفيها المتناسقين ، المتناغمين ، البارزين فى غير افراط ، ابتسامة مختصرة تشى بادراكها ما يغمره ، يخجل ، لكنه يفاجأ بقولها :

ــ ترغب فى رؤية بيتى الصغير ؟

يتساءل ، هل تتوالى الأمور بسرعة هكذا ؟

ــ طبعا أرغب ..

يتطلع الى الفراغ والابنية خارج المطعم ، الضوء النهارى مغاير ، لما كان عليه عند دخولهما ، طبيعى .. الم تمض ساعة أو أكثر ، يجلس الى جوارها ، يربط حزام الامان ، احساسه بالمغامرة ضعيف ، أهى الرغبة الخفية المصاحبة للاقتراب من أى امرأة جديدة ؟ ، تماما كهيبة الوصول الى أرض غريبة ، أو التأهب لدخول مدينة مجهولة ، أو بناء مبهم ، لم يشرع مرة الا وتردد ، بل وكاد يحجم ، كيف سيجدها ؟ هل سيمكنه اداؤها ؟ ، ماذا لو فشل ؟ ، وكثيرا ما جرى له ذلك فى المرة الأولى ، معظمهن يدركن ويفهمن ، بل يقدمن المعاونة ، مبديات صبرا جميلا ، اتهيبه هذا له صلة ؟ ، أم لصحبته هذه المرة من تبدو مستعصية ، غامضة ؟ أم لانشغاله برصد تحولات لا يعلم اهى حقيقة أو متوهمة حتى الآن ، داخله أو خارجه ، يلتفت .. يمتد الشارع راسخا ، متصلا ، يوشك على اليقين أو ما رآه عند اتجاههما الى المطعم كان بتأثير اضطراب ما ، ربما الارهاق ، تتوقف العربة أمام بناية من خمسة طوابق ، عند نهاية الطريق جسر للسكة الحديدية ، تقول ..

ــ هنا يبدأ الجزء الحديث .

تدور حول العربة ، تنظر الى العجلات ، تشد مقبض الباب ، تتقدمه تجاه المدخل ، تضغط ارقاما فى لوحة مستطيلة ، تصدر تكة معدنية الوقع ، بسرعة تدفع الباب ، يشم رائحة رطوبة ، لكن عبيرها الانثوى يصله واضحا ، يقوى أو يضعف من انثى الى اخرى ، مجمل الروائح شتى ، لا يتشابه أبدا مع آخر ، كثيرا ما اثاره ، لكنه الآن هادىء ، متهيب ، لا يوجد مصعد ، سلم ضيق ، الابواب مصمتة ، ما من أصوات أو اشارات تدل على حركة ما ، عند المنحنى نافذة تطل على المبانى الخلفية ، يلمح اصصا للزهور .

تقف فى الطابق الرابع ، حلقة مفاتيحها مثقلة ، للباب ثلاثة اقفال ، لابد أن هناك ما يستدعى هذه الاستحكامات كلها ، الارقام

المعدنية ، الاغلاق المحكم ، تبتسم ، تدعوه الى الداخل ، يخطو حذرا، متطلعا ، مخيفا باحكام أي بادرة ربما تشي برغبته التي تتاجج الآن بتأثير وحدتهما ، وشبه يقين انهما بمفردهما فى المبنى كله .

اللون الأبيض غالب ، الجدران ، المكتبة ، المقاعد ، من المدخل يمكن الاحاطة بالمكان كله ، صالة صغيرة ، حجرة داخلية للنوم ، سرير عليه غطاء من الصوف الملون ، الوان متداخلة ، ممتزجة ، تفيض صخبا صامتا ، الى جوار الفراش مكتب صغير ، فوقه كتب عديدة ، لم يدقق عناوينها ، وصحف مطوية ، جـريدة البلدية ، يعرفها اذ رآها عند الباعة فى السوق ، اطلعه المغربى على عدد منهـا عندما حدثه عن تجاهل صحف البلدية للاحتفال الجامعى . فى الصالة مقعد مستطيل ، يمكن أن يتمدد فوقه المرء اذا أضطر الى قضـاء وقت طويل ، أما الفراش فمن الصعب اتساعه لاثنين متجاورين ، يفيض المكان اناقة ، وحسن ذوق ، الا ان وحدة عميقة تخيم عليه ، يقول انه مكان جميل ، تتساءل بسرور ، احقا ؟ ، يومىء مؤكدا فى عين الوقت الذى يفكر فيه ، كيف يشرع ، باى خطوة يبدأ ؟ ، المهم أن يبدى هدوءا ورسوخا ، لا يدرى لماذا طفا على سطح وعيه نغم قديم مصاحب لكلمات تبعث عنده شجا .

شجنى يفوق على الشجون ..

الح عليه النغم حتى شرع فى ترديده لكنه كف ، يود أن يلم بعالمها الداخلى ، من هى ؟ . من أين قدمت ، والى اين ؟ ليتها تحـدثه عن صاحبها ، عن عائلتها ، عن أشواقها ، ليتها تخبره .. كيف تفكر، كيف تراه ، يود أن يفض مغاليقها النفسية والحسية معا .

يسألها عما اذا كانت تمضى أوقاتا طويلة هنا ؟ ، تقول أنها تمضى نهايات الأسبوع هنا ، لا تخرج ، خاصة فى الشتاء ، بعد عودتها من المكتب او من جولة تأوي الى عالمها هذا ، تسأله عما اذا كان يفضـل الشاى أم القهوة ؟ ، يقول انه لا يشعر الآن بالحاجة ، تجـلس فى المقعد المواجه أمامه ، يستفسر عن أصحابها ، عن أقاربها فى المدينة ؟ تقول أن والديها يعيشان فى الجانب الآخر من المدينة ، صديقتهـا الحميمة على سفر الآن ، اما صاحبها فيقيم الآن فى الهند لفترة ، يسألها عما اذا كانت تنوى السفر اليه ؟ ، تتطلع صوبه ، التفاتة حادة مفاجئة ، مصاحبة لتحديق عينيها ، يمنحها هـذا تفردا ، وغموضا ..

ــ هناك مشكلة !

اجابة باترة ، تقطع عليه أي محاولة للاسترسال ، تمضي الى المطبخ ، يتأمل الكتب ، يسند حقيبته الجلدية التي يعلقها دائما الى كتفه ، يلمح سريرها ، يتخيلها متمددة ، محملقة ، مغمضة عينيها ، في ثياب النوم ، أو عارية تماما ، لم تلمح اى بادرة استثارة عنده ، خيل اليه أن ثمة رائحة مطهر ما ، يقول دهشا ..

ــ هذه كتب عن مصر ..

يجيئه صوتها قريبا

ــ نعم ..

يقلب الكتاب ، يحمل غلافه الوان العلم الثلاثية ، دليل سياحي شامل ، على الغلاف الأخير يلمح خاتما مستديرا لمكتبة شـــهيرة وسط القاهرة ، هل زارتها ؟ أوشك على الاستفسار لكنه احجم ، انها تقف خلفه تماما ، تمد يدها ، طبق مســـتدير به ثلاث كعكات ممتزجة الألوان ، قالت انه نوع نادر جدا ، لا يمكن أن يتذوقه الا في هذه المدينة ، يعجن بالعسل الجبلي ، صيني المصدر ..

ــ مثل الفانق؟

تجيبه بجدية

ــ لكن هذا يخص الجامعة ..

تقول أن هذا العسل لا يستخدم الا لتلك النوعية من الكعك ، يفرزه نحل من نوع نادر ، لا يمتص الا رحيق زهور صينية دقيقـــة جدا ، ترجع الى زيارة أمير صيني في الزمن القديم ، غير الامير المختفي في البرج ، أهدى الجامعة أصال تلك الزهور التي تخضع منــذ عصور لرعاية خاصة من أساتذة كلية الزراعة ، كمية العسل الناتجة محدودة جدا ، يوجه نصفها لصناعة هذا الكعك الذي لا يخبز الا في نهـــاية السنة الدراسية ، والنصف الآخر يعلب في أوان خزفية ويخصص للهدايا الرئاسية .

تتدفق بالكلمات ، عندما تصاعد شروعه الداخلي بسرعة ، لو ارجأ فلن يخطو أبدا ، يمد يديه ، احداهما لتناول الطبق ، الاخرى ترتفع أصابعها الى شفتيه ، يلثمهما برقة ، غير انها تنفر الى الخلف ، تلفظ برفض يصعب تصدعه ، أو النفاذ من خلاله ..

ــ من فضلك ..

مناقشات أولية

.. يؤثر المشي ، كعادته منذ وصوله ، من الفنـــدق الى مقـر الاحتفال ، يتذوق طلاوة اقبال الصبح ، وبدايات النهـــارات التي سيذكرها فيما بعد ، لم ينتظر مع بقية المدعوين المتجمعين بعد الافطار في الصالة الرئيسية .

اليوم ، يرغب في الانفراد ، استعادة صحبتها أمس قبل تكرار اللقاء ، قبل رؤيته لها بعد قليل ، لا أثر لخجل عنده ، لكن ثمةحيرة بعد انصرافها ، ونزوله أمام الفندق فوجىء بمغادرتها العــــربة ، اتجاهها نحوه ، تصافحه بقوة ، بيد ضاغطة ، تجذبهناحيتها ، تقبله بمبادرة حادة ، مباغتة ، قبلة خاطفة ، محايدة ، مجــــرد برقيـــة غامضة ، سريعة ، انحنى ، أبدى امتنانا لحرصها على رفقته ، واسفه لما بدر منه ،

ترقرقت ملامحها ، لاحت نيرة ، بسامة ، غير أن شجنا بدا ، حل به ، أن يراها مرة اخرى ، خطر له هذا ، لماذا أيقن ؟ ، بعـــد ذهابه انفرد مستعيدا طلاتها ، وصمتها المفاجىء ، والحزن العالق بشرفتي عينيها ، تأمل بطاقتها ، كان اسمها الاول يخلو من الحروف الثلاثة التي تضاف الى أهالي المدينة الاصلاء ، التابعين تماماللبلدية، الذين لم تربطهم بالجامعة أي صلة ، وهي حروف السين والكاف والياء .

اما اسمها الثاني فلا يسبقه حرف التعريف « آل » ، وهـــذا ما يميز الجامعيين ، سواء الدارسون ، أو الاساتذة ، أو من كان على صلة وثيقة ، مثل متعهدي توريد الاشياء الضرورية ، من اغـــذية الى اثاث الى حبر أو ورق .

الى من تنتمي ؟

الى الجامعة ، أو البلدية ؟

ربما كانت مغتربة ، ذات أصول اجنبية .

منذ أن فارقها أمس لم يغادر حجرته الا صباح اليوم ، ها هـو يسعى ، بعد ساعة تقريبا تبدأ الجلسة الختامية ، يمشي واثقا ، كأنه عاش عمره كله يجوس تلك الشوارع ويعبر هذه النواصي ، لكنه بعـد دقائق يبطىء الخطى . ماذا لاحظ ؟

الا تبدو الاقواس والاعمدة الحجرية أقصر ؟
الا تلوح المفارق أضيق ؟
لن يستفسر ؛ لن يلجأ الى أى عابر ، بنفسه سيحاول التأكد من عدم تبدل الثوابت ، من امتداد الطرق فى عين مواضعها ، ومثول المداخل فى أماكنها ، مضى الشوارع الى ذات الاتجاهات ، تقاطعهما عند المواضع التى سبق له عبورها ، المرور بها ، هذا أغرب واشق ما مر به منذ وصوله ، لولا اصراره على الوصول بمفرده لتوقف ، لانثنى راجعا الى الفندق ، ثمة تبدل مؤكد ، على يقين منه الآن !

هذا عجيب ، صعب ، من الحقائق المفروغ منها أن المكان ثابت، والزمان متغير ، أما الانسان فعابر ، وهو هنا طارىء الوجود ، مؤقت المدة .

يسترجع الصورتين المتضادتين ، المختلفتين للميدان ، لمبنى الأمن ، يحار ..

تحوى المدينة أمورا تستعصى على الادراك ، أو النفاذ عبرها ، كاد يمضى ليلة امس الى الميدان ليرى أى هيئة أمسى عليها ؟ ، ليتأكد ، ليثبت ، لكنه خشى فقدان الطريق ، وأخطارا خفية ربما تحدق به ، أرجأ مشروعه .

عند انتقاله من اليقظة الى النوم ، أومأ براسه تجاه الفراغ ؛ لماذا يهتم وكأنه مقيم ابدأ ؟ ، كأن الليالى والأيام ستكر عليه هنا ، ليتبدل الميدان ، فليتحرك المبنى المهيب ، قاتم الحضور ، ماذا يعنيه!

لن يتبقى من المدينة الا الحيرة ، وصحبة عابرة واصداء لظلال بعض المداخل المهيبة ؛ العريضة ؛ الرحبة ، خاصة المنشآت الجامعية ، ولون السماء عند العصر ؛ وصوت عصفور غريب وقف مرة واحدة على نافذة غرفته ، والبرج ، وسموق الحصن المشيد ، وانتقال خطو الباسقة داخله .

تنتهى الاماكن التى تطول بها الاقامة أو تقصر بعد مغادرتها الى أطياف ورؤى لا رابط بينها ، مروقها يثير معنى ، وقد لا يوحى بشىء على الاطلاق .

غير ان هذه المدينة تخلف عنده حيرة ، بل .. وخوف ، فما يبدو له كل لحظة محير ، عجيب !

المهم الآن ان يتأكد من الطريق ، يعرف هذه الناصية ، والعلاقات البيضاء التى تحدد مسار المشاة ، بعدها يلوح البرج فوق المبانى .. يمد الخطى ، كأنه يخشى اختفاء العلامة الفارقة ، الثابتة التى الم بها .

البرج ..

اذن ام تتبدل الشوارع ، المؤكد أنها أضيق ، لكن يجب ان يطرح عنه الآن انشغاله بكل ما يلحظ ، موعد رحيله يقتــــرب ، ليؤجل انزعاجه حتى والا سيصير الى ما انتهى اليه عالم الفيزياء المعروف، حكايته تروى داخل اسوار الجامعة بمزيد من التأسي ، يرددها رجال البلدية بسخرية ، بل أوعزوا الى رسام الكاريكاتير بتناولهـــا فى الصحيفة اليومية الأولى ، لكن أثار ذلك عند الناس استهجانا ، وحرر بعضهم رسائل بدون توقيع فكف ، ذلك أن هذا الاســـتاذ كان من ابناء المدينة الاصلاء ، ولد بها ، ونشأ ، وتلقى تعليمه بمراحله المختلفة فى مدارسها ، حتى أنتهى الى الجامعة ، فنبغ ولمع فى علم الطبيعية مع انه كان ابكما ، اصما ، لا ينطق ولا يصغى ، وعنـــدما شاع أمره ، وتليت ابحاثه أكثر من مرة فى المنتديات والحلقــــات ومراكز البحث ، اقبلت عليه وسائل الاعلام ، الا انه اعتذر عنها ، بذلت محاولات عديدة حتى أن التليفزيون الامريكى عرض مليونين من الدولارات مقابل اجراء مقابلة لمدة ساعة معه ، تحاوره خلالهـــــا المذيعة المشهورة بربارة التى يتهافت رؤساء الدول على المثول أمامها والاجابة على اسئلتها ، مليون له ومليون للجامعة ، ومع ذلك اعتذر وأيده فى ذلك المجلس الاربعينى للاساتذة ، مع ان الجامعة كانت فى امس الحاجة الى المبلغ لتجديد المعامل التجريبية ، والستائر التى لم تتغير منذ القرن التاسع عشر ، البلدية شنت هجوما مستترا ، ثم سافرا ، فظهور الاستاذ فى البرنامج مع بربارة وبينهما مترجمة أو مترجم يستخدم لغة الصم والبكم فيه خدمة لقضية المعوقين ، ليس فى المدينة فقط ولكن فى العالم كله .

رجال الجامعة اكدوا ان هذا الهدف الانسانى لا يحرك البلدية ، انما هناك هدفين محددين الاول استغلال البرنامج المقترح فى الدعاية لتنشيط السياحة ، خاصة أن عدد الافواج الامريكية اقل بكثير مما هو متوقع ، الثانى هو المبلغ المعروض ، المليونان سوف يحولان الى البنوك المحلية وهذا يزيد من رصيد العملة الصعبة فى المدينـــة ، ويوقف الارتفاع المستمر فى سعر الدولار ، هذه الاسباب كلها شرحها رجال البلدية بالتفصيل ، ولكنها قوبلت بصد ورفض حازمين ، من هنا يمكن تفسير الشماتة الشديدة العلنية بعد أن جرى للاســـتاذ النابغة ، وتفصيل ذلك انه خلال انشغاله بدراسة حزام الكوكبات بين الأرض والمريخ ، وبعد ان أجرى حسابات معقدة ، أيقن من احتمال

اصطدام أربعة منها بكوكب الأرض خلال المليون سنة القادمة ، خاصة اذا تماست المدارات .

النتائج لاقت أصداء واسعة ، وتردد اسمه فى العديد من عواصم العالم ، وظهرت شروح عديدة ، ورسوم توضيحية ، وتكسيرات شتى ، ولكن ماجرى داخله هو كان مختلفا ، لم يتوقعه احد ، ذلك ان الحقيقة العلمية التى توصل اليها الحت عليه حتى شغلته تماما ، وصار يفكر فى الانفجار المهول الذى سيقع لحظة الصدام ، وما سيحدث من زلازل وفيضانات ، وانقلابات فى الطبيعة بل ان قوة التصادم اذا زادت على حد معين ربما تؤدى الى تفجير الكوكب وتحوله الى حزام جديد من الكويكبات ، عندئذ تفنى الحياة التى لا يوجد حتى الآن ادلة مقنعة على ان ثمة قرينا آخر لها فى الكون الشاسع .

فى نومه ، فى يقظته ، فى حركته ، فى ثباته ، ألح عليه الأمر وطغا، قل وسنه ، وطال سهره ، وعجزت اشاراته عن التعبير عما يمر به من خوف واضطراب عظيمين .

ولما بدأ أمره فى الشيوع ، عرض عليه زملاؤه دخول المستشفى الجامعى لبضعة ايام ، فقط .. لاجراء فحوص عادية ، او لالتماس الراحة .

رفض .. وفى احدى الليالى القى الحرس الجامعى القبض عليه عند مدخل القبو الجامعى الممتد تحت الأرض حيث الكنوز والنفائس ، اقتيد الى التحقيق ، فهذا موقف لا تجدى فيه شفاعة زملائه ، ولا شفقة الاداريين القدامى . خاصة انه صرح بنواياه . عندما قال انه يريد الوقوف على سرج الحصان الذى ركبه الاسكندر الأكبر عند غزوه بلاد فارس . كذلك الحصول على كأس البللور الصخرى التى دفعها سليمان الحكيم الى شفتى بلقيس ملكة سبأ وسقاها ماء الورد .

كثيرا ما تردد مصادر الجامعة وجود السرج والكأس ، لكن لم ترد اى تفاصيل عنهما فى قوائم المقتنيات التى يسمح باعدادها ونشرها كل مائة عام مرة . لهذا من غير المسموح به مجرد التفكير فى طلب الاطلاع عليهما ، وادرجا فى المقتنيات المحرمة .

تأسف الناس على الاستاذ النابغة ، ورثاه بعضهم حبا ، وتذكره اصحاب المتاجر ، وعمال المطاعم ، ومحصلو الشركة المحلية للنقل ، والعاملات فى المسرح الكبير ، ودار السينما الصيفية ، كان لطيفا ،

كريما ، خجولا ، سريع البديهة ، يفهم ما يقال له من حركة الشفتين ، وتعبيرات الوجه .

اليس أمرا مؤسفا ان ينتهي مثله الى المستشفى الجامعي ، وأن يوخز بأبر الحقن حتى يمكنه النوم ؟

مصادر البلدية رددت ما يشاع عن مس يصيب الاساتذة فجأة . وذكرت بعض الروايات بمصير الفيلسوف الذى كان أول من نطق عبارة : صباح الخير .

ترى من خطا فوق هذه الأرض قبل الف عام ؟ . قبل الفي سنة ؟

ترى من سيتطلع الى هذا البرج بعد الف . الفي عام ؟ . من سيعبر هذه الناصية بعد قرن من الآن ؟ . اى صور ستتوارد على ذهنه ؟ وماذا سيثيره ذلك الوجود المحيط من تداعيات ؟

يجتاز الباب الرئيسى متسائلا ، هل سيعبره مرة أخرى يوما ما ؟ هل ترقبه الباسقة ، الرقيقة من مكان ما ؟ . يمشى متئدأ ، متمهلا ، يهفو قلبه الى لا شيىء يمكن تعيينه أو تحديده ، بعد لحظات سيراها ، سيتوجهان ، خلف المنضدة المستطيلة ، فوقها مطبوعات شتى ..

أين .. أين هى ؟

فتاة أخرى ، أقصر ، اكثر امتلاء . كان ممكنا له التفكير فى احتمال ذهابها هنا أو هناك ، ظهورها بعد قليل تفيض حيوية ، تتدفق نشاطا ، ترتب الكتيبات ، تخاطب هذا ، تومىء لذاك ، تنتقل من أول المنضدة الى آخرها ، تفتح الدرج الصغير لتبدل نقودا أو لترد ما تبقى ، تعيد ترتيب الأوراق ، غير أن يقينا خفيا آكد له استحالة ظهورها .

يومىء محييا .

تجاوبه القصيرة بتحفظ باد ، هل من اللائق أن يسألها عن زميلتها ؟ تردد .. لكنها عندما خاطبته باسمه ، دهش ، خاصة انها لم تتجه بعينيها الى البطاقة الصغيرة ، المعلقة الى صدره ، تتساءل عما اذا كان يحتاج الى خدمة ما ؟

ــ أتمنى ابلاغ تحياتى الى زميلتك ، سنرحل غدا فى ساعة مبكرة .

ــ أى زميلة ؟

يتطلع مبتسما ، يشير الى حيث تقف ، تنظر مرتابة ، تشير بكلتا يديها الى صدرها ..

ــ لم افارق مكانى منذ اول يوم ..

ــ لكنها ..

تشير الى الحاسب الآلى ••

ـ آسفة •• عندى شغل ••

تلمس المفاتيح الصغيرة ، المستديرة • يبتعد متمهلا ، شاكا فيما عنده • متخنا بالحيرة • يلج القاعة ، المكان كله في حالة تاهب لاستقبال الأعضاء •

زجاجات المياه المعدنية المعبأة من النبع الفوار الذى دارت بسببه الحروب وسفكت دماء ، الاطباق المستطيلة التى لا تستخدم الا فى الجامعة ، كل اطباق المدينة مستديرة ، البيوت ، المطاعم ، المقاهى ، أقراص الحلوى المصنوعة من عسل ينتج فى مناحل كلية الزراعة ، اشتهر بجودته ، ولسعة مميزة لمذاقه ، تماما كتلك التى تناولها أمس من يدها ، يستعيد اصرارها على أن يأخذ ما تبقى ، عنده واحدة فى الفندق ، تمثل امامه ، تقف بسموقها ، بجديتها ، بلين ملامحها ، بصدها الحاذر لمحاولته التقرب ، اقبالها المفاجىء وتقبيلها • لو يعرف الطريق الى منزلها لمضى الآن ، لترك بطاقة تحمل سطورا وداعية • يذكر صندوق البريد الصغير المعلق الى الجدار بعد المدخل ، فتحته ، تناولت خطابات ونشرات اعلانية ألقت بها فى صندوق المهملات المطلى بلون أبيض ، لم تقرأها ، مؤكد ذلك ، لم يقصه انسان عليه ، لم يطالعه فى كتاب ، رأى وسمع ، أين هى أذن ؟ أين ؟

يتأمل السقف ، التماثيل الصغيرة ، أطفال مجنحين ، نساء نصفهن الاعلى آدمي برى ، أما الاسفل فبحرى ، لهن ألق الهى ، وأوضاع ربوبية ، هذه القاعة للاحتفالات النادرة ، فيما يتم تنصيب رؤساء الجامعة عبر طقوس مهيبة ، فى مبنى البلدية القديم قاعة مماثلة جرى تجهيزها منذ أربعة قرون لتنصيب رؤساء البلدية • لكنها خصصت لاغراض أخرى ، مثل أقامة المعارض الهامة والاستثنائية ، مثل معرض الآثار الفرعونية الذى استمر ثلاثة أشهر ، وشهده اربعمائة ألف متفرج ، وما زال رجال البلدية يرددون هذا الرقم بفخر ، وان أرجعه الجامعيون الى أهمية الآثار ذاتها ، والدليل تواضع أرقام الزوار المترددين على المعارض الأخرى ، وبالطبع لا يخفى الغرض الاقتصادى من استغلال المكان وهذا مالا يمكن ان تقبله ادارة الجامعة •

الاعضاء لم يصلوا بعد • اعتاد مثل هذه الاحتفالات والمؤتمرات • الابحاث ، التوصيات ، القرارات ، تكرار وجوه المدعوين ، بعضهم يقدم بحثه فى أكثر من اجتماع ، يغير المقدمة ويعيد صياغة بعض السطور ،

يتابع ساخرا حماس البعض ، افتعالهم النقاش ، معظم وقته يشرد ، لا يوجد الا بمثوله الجثماني ، اما مشاركته الفعالة فلحظه القاء بحثه ، أو ابداء بعض الملاحظات ، يردد احيانا ، المهم تسديد نفقات الاقامة وبطاقة السفر بالمشاركه ، باثارة جدل ما • لا يهتم بما يدور فى خلفيات الحفل ، أولى اهتمامه لتجميع الدراسات المطبوعة بمناسبه تأسيس الجامعة ، أما رغبته فى التطلع الى الفسيفساء الملونة فى سقف المدخل الرئيسى فتتجاوز استعداده للمشاركة فى المناقشات آو الاصغاء الى ما يلقى من بحوث •

كثيرا ما صد النوم وقاوم الاغفاء أثناء الجلسات المطولة •

أمس •• قالت له الباسقة ـ التى لا يدرى أين مسعاها الآن عندما يلتحق أبناء المدينة بالجامعة يمرون باضطراب ، طوال مدة دراستهم ولاؤهم جامعى ، حتى اذا تخرجوا وعملوا فى مصالح البلدية ومنشآتها انقلبت احوالهم ، ولزم جهدهم بما يخالف ما تلقوه عبر سنوات ، يمر الكثيرون منهم بأزمات حقيقية رغم الدورات التمهيدية المكثفة التى تنظمها البلدية بغرض معلن هو التعريف بتاريخ البلدية ونظمها ، ولكن جوهره ازالة أى أثر للولاء الجامعى •

قالت أيضا ان مشاكل عديدة تنشب داخل العائلات ، اذا ضمت الواحدة شقيقين ، احدهما جامعى ، والآخر بلدى ، لا يمكن الا للأسر الراسخة احتواء مثل تلك الأزمة •

اشار المغربى فى حديثه اليه •• صحيح ، أين المغربى ؟ لماذا اختفى ؟ الليلة سيجرب رقم الهاتف ، سيطلب من بدالة الفندق الاتصال ، سيحاول الاصغاء اليه ، أو انه وهم لا وجود له هو الآخر ؟ • حدثه عن صلة الجامعة والبلدية بالخارج ، صحيح ان العلاقات بالدول والمنظمات الأجنبية من اختصاص الحكومة الاتحادية ، لكن تراثا طويلا من الممارسات ليس سهلا تجاوزه • البلدية لها علاقات وثيقة بمدن العالم ، وللجامعة صلات قديمة بالهيئات العلمية المماثلة ، وكثير من خريجيها يتولون مناصب هامة فى دول مختلفة ، خاصة فى البلاد النامية ، وأحيانا يذكر لقب الوزير مقرونا بتخرجه منها ، التنافس قديم • مصادر البلدية تردد دائما ان عدد الملوك والرؤساء الذين زاروا أو كاتبوا عمدة المدينة أكثر من أولئك الذين اتصلوا بالجامعة • لكن الاساتذة يقولون ان عدد الشخصيات العلمية والادبية الذين اقاموا صلات مباشرة أو غير مباشرة لا يمكن حصرهم ، ثم يتساءلون بترفع :

من يذكر الآن اسم العمدة وقت قدوم شكسبير ، وحضوره عرض احدى مسرحياته على المسرح الروماني القـديم الذى توجـد بقـاياه الآن قرب كلية الفنون الدرامية • من يذكر رئيس البلدية عندما جاء الفيلسـوف العربي ابن رشد ، والقى دروسا في المنطق لمدة سنة كاملة ؟

التفاصيل عديدة • لو اهتم بكل منها لأفنى وقتا وجهدا ، ان وجوده هنا عابر ، انما جاء ممثـلا لهيئته بدلا من زميـل اقعـده المرض ، اذا شارك فمن قبيل المجاملة ، والحرص •• حتى لا يقال بعد سفره انه لم ينطق حرفا • الحقيقة انه يقمع فضولا عنده ورغبة فى الالمام ، خاصـة بعد تحذير المغربى من أخطار ربما تكون خفية الآن ، غير انها دانية • تظهر فجأة ، لم يكف عن رصد ما يسمعه ، ما يمر به ، يرجىء كتـابة بعض السطور في مفكرته الصغيرة التى اعتاد حملها فى جيب سترته الى ما بعد اقلاع الطائرة ، ربما اطلع عليها أحدهم !

ساعة معصمه ، ساعة القاعة ذات البندول الذهبى •

ثمة تأخير • لم تفتتح الجلسـة فى موعدها • لم يأت بقية أعضـاء الندوة بعد ، ثلاثة من ممثلى البلاد الشمالية ، يتهامسون ، فيما يلى ذلك علم أن الخلاف حول البيان الختامى بدأ ليلة أمس ، عند دخوله المصعد لحقه رجل نحيل ، من جزر المارتنيك ، طوال الايام الماضية لم يتبـادل معه الا الايماءات • سأله عما اذا كان سيحضر الاجتماع الذى سـيعقد فى الغرفة رقم اربعمائة وسبعة ؟ •

استفسر عما يجرى ؟

قال المارتنيـكى ان بعض الزملاء اقترحوا ضرورة مناقشـة النص الختامى للبيان ، بعضهم حصلوا على نسخة منه ، أما الهدف من اللقاء فاتخاذ هدف موحد •

تساءل : ممن ؟

قال المارتنيكى : من البيان الختامى •

استفسر : من سيتخذ الموقف ؟

قال مبتسما : ممثلو الجنوب •

اضاف مبتسما ، هذا تعبير مهذب يراد به بلادنا التى يعتبرونهـا فقيرة ، فى تعبير آخر يقولون ، نامية ، وبكلمة أكثر صراحة يقولون ، متخلفة •

قال انه مرهق ، جال اليـوم فى المدينـة ، اما ما سـيتوصل اليه الزملاء فسيطلع عليه صباحا ، تسـاءل : الن تتـاح الفرصة لمناقشـة

البيان فى الجلسة الختامية ؟ أجاب المارتنيكى أن تقاليد الجامعة تتيح ذلك لكن لابد من اتخاذ موقف ·

رفع يده باسطا أصابعه الخمس عند وصول المصعد الى الطابق الثالث ، « هاى » نطقها بلهجة امريكية · لحظتها فكر : انه لا يحب هذه التحية ، جاوبه مومئا بدون نطق · علم بما جرى فى النقاش الليلى ، لم يندد ، ذلك أن مضمون ما جرى تردد مرتين ، الاولى عقب الافطار ، والثانية فى القاعة ، أول مرة امتد الحوار الى ما بعد الفجر ، بعض الأعضاء لم يغمض لهم جفن ، ذهبوا الى الجلسة الختامية بدون نوم ·

قال أحدهم انه لا يتخيل صدور البيان بدون اضافة فقرةمقترحة ، تتكون من أربعة سطور تضم خمسا واربعين كلمة ، اغفالها يعنى أهمال كل القضايا الحيوية التى تعانى منها الشعوب النامية ، وعلى راسها بقايا الاستعمار والاستغلال والقهر · قال ان المناسبة لا تتكرر الا كل قرن ، التالية ستحل والعالم خال من جميع المشاركين الان،بل لايدرى أحد اذا كان الكوكب سيكون سابحا فى مداره ! · أخطار عديدة تهدد البشرية ، منها الأرض ، والكون ، ثقب الاوزون ليس ببعيد تهدد وما يترتب عليه من تدفق الأشعة فوق البنفسجية ، وارتفاع حرارة الكوكب ، الاستاذ النابغة لم يكن مبالغا عندما انشغل بخطر اصطدام أحد الجبال الطائرة ، هناك أيضا المذنب هالى ، كل الحسابات تؤكد انه عندما يظهر المرة القادمة سيقترب الى ادنى مسافة ، هذا لم يحدث فى المرات السابقة ، اما الناتج عن التلوث فأمر ذو مضاعفات بلا حد ·

المهم ، ان يكون البيان الختامى وثيقة شاملة · بحيث تصبح مرآة ملخصة ، مركزة للعصر ·

بعد نطقه المقدمة ببطء وتمهل ، تلا نص الفقرة المفتوحة ··

غير أن الأمر لم يكن بالسهولة التى لاحت فى البداية ، على الرغم ان المجتمعين فى الغرفة يمتون الى جانب واحد ، بعد طول جدل تم الاتفاق على خطوط عامة ، وتحفظ شخص واحد · انه سفير سابق تجاوز السبعين ، وان بدا أقل عمرا لسواد شعره ، وهمته البادية ، ديلوماسى قديم ، ومن طبيعته تجنب الانحياز الصريح الى هذا الجانب أو ذاك ، لكن احد الحاضرين ذكر أسبابا أخرى منها حرصه الا يغضب الجامعة أو البلدية حتى توجه اليه الدعوة فيأتى مرة أخرى ·

تعرف الى هذا السفير واقترب منه خلال اليومين الماضيين ، بدا

هادئا ، حريصا على خفض صوته ، والانحناء مبديا احترامه عند اللقاء . اذا واجه من لا يعرفه يبادر بذكر اسـمه ، ثم يقول على مهل : سـفير سابق فوق العادة .

لمح في عينيه حزنا قديما ، خاصة اذ يتحدث عن زوجته الاولى التى عاشرها اربعين عاما ، لم يختلفا مرة واحدة ، ولم يرتفع صوت احدهما في مواجهة الآخر ، ثم يكرر جملا بعينها .

« خطفت مني خطفا .. »

« مثلها لا يعوض .. »

« كانت تؤنسني وتريحني .. »

صحبته عندما جاء الى هذه البلاد مطلع الخمسينيات ملحقـا أول ، أمضيا فى العاصمة الاتحادية أربع سنوات من أجمل سـنى العمر . انجبا ولدين . الاول تجـاوز الثـلاثين الآن بأربعـة أعوام ، هاجر الى كندا ، وخلال احدى رحلاته الى المكسيك تعـرف بأدريانا ، انجبا طفلة واحدة ، يرسل اليه بطاقة فى رأس السنة تحوى سـطرا أو سطرين لا غير .

« يكفيني ذلك ، المهم أن اطمئن عليه .. »

الثانى في الخامسة والعشرين ، اسـتقر به الحال فى تايلاند ، لا يعرف ان كان متزوجا الان أم لا ؟ لكنه يدير شركة تصدر العمال الى دول الخليج ، انهما مشغولان دائما ، لكن الاصغر يتصل به هاتفيا كل شهرين أو ثلاثة ، لوطأة الوحدة أضطر الى زواجه الثانى ، ثم الثالث ، أما امرأته الثانية فكانت فنانة تشـكيلية مرموقة ، أقامت معرضين فى أحد مقاهي باريس ، سبق زواجها أربع مرات ، طلبت الانفصال بهدوء ، وعندما سألها عن السبب ، قالت : انت مهذب أكثر من اللازم ! . قـال انه لا يفهم ، اجابته بحدة : تنام معى وكأنك تقـدم أوراق اعتمـادك !! قال ان كلا منهما تجنب الآخر تمـاما بعـد انفصـالهما . اما الزواج الثالث فتم بعد سنة ، واستمر ستة شهور رغم انها قريبته .

« كانت قاسية .. قاسية جدا .. »

سأله عما اذا رأى حفيدته ؟

« صورتها .. صورتها فقط .. »

ملامح السفير ، ايقاع صوته ، حضوره ، استعادة مراته رغم قصر العلاقة ، غير انه تفهم صمته ، وايثاره النأى عن الآخرين ، كان بمعنى وقتا ! ، كثيرا ما تذكر هدوءه وامتثاله وسعيه الذى لا يرى فيـدركه حنين ممتزج بأسى .

منه علم والم بما جرى في الاجتماع الليلي ، حول منضدة مستطيلة تحلق أربعة ، الآخرون قعدوا فوق السرير ، جاء ممثل عن الجامعة ، استاذ بكلية الطب ، مشهود له بفهم احوال القلب واجراء الجراحات المعقدة ، خاصة زرع القلوب في الأجساد العليلة .

جاء شاب نحيل ، طويل ، شقرته باهتة ، يبرم طرف شاربه الأيمن بأصابعه ، لم يدر أحد وظيفته ولم يعلن عنها عندما ذكر اسمه وقال انه من رجال البلدية ، يمكث دائما في قاعة الاجتماعات ملتزما الصمت والتطلع الى المتحدثين بحدة ، وتدوين بعض الملاحظات في دفتر حجمه مغاير .

وصل أيضا بعد بدء الاجتماع بربع ساعة الرحالة التركي ، شاب هائل التكوين ، مترامي الأطراف ، غليظ الرأس ، حلته رياضية بيضاء من قطعة واحدة ، مرصعة بعلامات شتى لهيئات ومؤسسات وعلامات تجارية لمنتجات شتى من السيارات الى المياه الفازية ، ورموز مدن ومقاطعات ، لصوته صدى مصاحب له وهذا غريب . بدأ رحلته منذ عامين وسينهيها بعد ثلاث سنوات واربعة أشهر وخمسة ايام ، حيث يصل في السابعة صباحا من اليوم الأخير الى مدينة هيروشيما ، هدفه الدعاية لانقاذ الكراكي المهددة بالابادة في المحيط الهادى ، هيئات دولية عديدة ترعى مشروعه ، وتساهم في تكاليف سعيه ، يحمل اغراضه على ظهره ، حقيبة ضخمة من القماش الصناعي المتين ، جيوبها عديدة ، منها المستدير والمستطيل والاسطواني ، تحوى قائمين من حديد يمكن تحويلها الى سرير ، يثبت أعلاها نموذج للكرة الارضية يعلوه مصباح كهربائي صغير ضوؤه أحمر ، يدور كالمصابيح المعلقة فوق عربات الاسعاف والشرطة ، وعلى الجانبين بمحاذاة كتفيه تنبثق اعلام مختلفة ، ربما للدول التي مر بها ، أو البلاد التي سيعبرها .

ما حير السفير وصوله بالطائرة الى العاصمة الاتحادية ، وبالقطار المغناطيسي الى المدينة ، اين رحيله مشيا الى هيروشيما ؟

قال التركي انه كان على مشارف طريق الحرير العظيم عندما وصلته الدعوة لحضور الاحتفال المئوى ، باعتباره رمزا للانسان المدافع عن بقاء الطيور ، بعد نهاية الاحتفال سيرجع ليستأنف رحلته من النقطة التي جاء منها .

بعد أن تلا ممثل الجامعة نص البيان ، تقدم عالم النبات الأفريقي

وتلا الفقرة المقترح أدراجها • قال انه تم ترجمتها الى خمس لغات حية درءا لسوء الفهم ، وأن التوصل الى هذه السطور تم بعد مناقشات مطولة •

قال الطبيب ممثل الجامعة انه لا يرى أى مانع ، خاصة ان المعنى واضح ، متوازن •

رفع الاشقر يده ، بدا هادئا ، لهجته استنكارية ••
ـ تخيلوا ياسادتي وقع هذا على رجال البلدية ••
ثم قال :
ـ الاحتفال لا يتم فى فراغ مكانى أو زمني يا سادتى !
قال السفير اطلق عليه « السيد سادتى » ، اذا بدأ حديثه
قال « ياسادتى » ، اذا أجاب « ياسادتى » ، عند القاء التحية .
« صباح الخير ياسادتى » « كل شيىء على مايرام ياسادتى ؟ » •

قال الافريقى ، أن تساؤله يفتح بابا لابدمن توضيحه قبل عبوره أو الطرق عليه ، فالجامعة لها صورة عامة ، واخرى خاصة ، الأولى فى العالم كله ، والثانية فى دول الجنوب ، وهناك بعد خفى يربط الطرفين أو الجانبين ، فيما يتم الآن محاولة اقرار علاقات متوازنة ، بعد ان سيطر الشمال حقبا طويلة • الخطر يطل الآن بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وتقدم النظام الغربى ، اضافة الفقرة أمر مهم للتعبير عن اوضاع جديدة لم تدر بخلد أحد قبل سنوات قليلة ••

قال الافريقى انه يجب أخذ ذلك فى الاعتبار بغض النظر عن دعاوى بعض المؤسسات داخل البلاد •

هنا تردد صوت الرحالة التركي الضخم ذى الصدى •
ـ والكراكى ؟
تطلع اليه الجميع ، تساءل الطبيب ••
ـ أى كراكي ؟
ـ كراكي المحيط الهادى المهددة ••
مد الأشقر يده ، بسط اصابعه ••
ـ أصغوا اليه ياسادتى ••
قال التركى
ـ انما جئت من أجل هذا •

اتجه الأشقر مباشرة الى الأفريقى ..
ـ لو فتحنا الباب ، لن ننتهى .. كل منا لديه مايرغب قوله ..
بعد صمت قصير قال
ـ يا سادتى ، مثل العبارة المقترحة ستؤدى الى تأجيج خلافات حادة نحاول انقاذ المدينة منها بعد رحيلكم ..
تردد مرة أخرى الصوت العميق المصحوب بالصدى ..
ـ اننى مصر على الاشادة الى وضع الكراكى ..
قام الأشقر بارما شاربه .
ـ سادتى .. هذا ضار جدا !

مناقشات ختامية

.. ثلاثون دقيقة بعد الموعد ، اكتمل الحضور ، مناخ خفي مختلف عن الافتتـــاح ، ثمة ترقب ، تربص ، رئيس الجـــامعة يرتدى الزى التاريخى المتوارث ٠

ذكر بجلال المناسـبة ، وشـكر الضـيوف الذين قطعوا مسـافات شاسعة للمشاركة في احتفال لا يقام الا كل قرن ٠

تمهل قليلا ، قال انه سيتلو البيـان الختـامى الذى سيصبح من وثائق الجامعة ٠

بالطبع .. لن يلم بكل القضايا التى طرحت أو نوقشت ، خاصـة ان التنوع في الحضور غير مسـبوق ٠ لذلك يرجو ترحيب الجميع بما سيقال ، وأن يدرك كل من لديه فكرة أو قضية ملحة انه ليس ضروريا ذكرها بالتفصيل ، بنصها الحرفى ، هنا افكار عامة تتضـمن المبادىء العامة ٠ فى البيان ما يجمع أكثر مما يفرق ، وما يقرب يفوق ما يباعد ٠ اما حق ابداء الملاحظات فمن التقاليد الجامعية العريقة ٠

بدا الرجل مهيبا ، وقورا ، راسـخا مـكانه ، ودودا أيضا، لاحظ البعض جلوس الأشقر الى يمين الطاولة المخصصة للكتبة ، رغم توافر الأجهزة الحديثة لكن الطريقة القـــديمة حوفظ عليهـا ، حيث جرت العادة بتدوين ما يلفظ طبقا لطريقة الاختزال القـديمة ٠ أما الرحـالة التركي فظهر عند طرف المائدة اليسرى ، لم يحضر الجلسات السابقة ، أثار مشكلة عندما أصر على دخول القـاعة حاملا حقيبتـه التى يعلوها المصباح الاحمر الدوار ٠ بعد جهد أقنعوه مخـالفة ذلك للنظم المعمـول بها ٠ اضطروه الى تركها عند مدخل المبنى ٠

نبرات رئيس الجامعة واضحة ، ثمة نظام خاص لتكبير الصوت فى القاعات ، يعتمد على تصميم المبـانى ، نتـوءات بمقاسـات وارتفـاعات محددة ، تجاويف فى الجدران وزوايا تسهل انتقال المويجات وترددها ، لا مثيل لذلك ، ترتيب لا تفصح الجامعة عن هندسته ٠

انه مثقل باغفاءة تراوده ، يحاول اسـتنفاد قواه كاملة ، التركيز على ملابس الاساتذة والوانها ونقوشـــها ، محـاولة قراءة اللافتـات

الصغيرة امام الأعضاء ، اسم الضيف ، درجته العلمية ، البلد الذى جاء منه ، أو تسـديد البصر الى نقوش الجـدران ، الزخارف المتشـابكة ، الأغصان المورقة ، تتخللها وجوه اطفال ، عيونهم واسعة ، شبه دامعة ، يستعيد ما قرأه عن هذه التصميمات عن الفنانين الكبار الذين تعاقبوا على نقشها وابداعها ، درجات اللون البنفسجى التى لم يجر توليدها من قبل ولا من بعد .

يستنفر من خبايا ذاكرته واقعة جرت فى الزمن الصينى المنقرض ، عندما تبارى فنانان أمام الامبراطور .

شرع الاول في رسم غصن شـجرة ، بعـد فراغه منه حام عصفور وحاول أن يحط فوقه .

قال رجال الحاشية : لا يوجد أمهر من ذلك .

الفنان الآخر رسم بابا في جدار ، كل من يقصده ، يحاول عبوره لكنه يفاجأ بصد مصمت .

حاد القوم !

مثل ذلك جرى فى بلاد فارس ، اذ أقدم رسام على تصوير غصون وزهور وطيور ، يظن الناظر اليها انها حقيقية . جاء آخر ، اتجه صوت الجدار الأبيض ، الناصع .. المواجه ، لم يفعل شيئا الا انه راح يصقل السطح حتى ظهر عليه التعب لما بذله .

حار القوم فيما يقوم به ، لكن .. شيئا فشـيئا اتضـحت معـالم لوحة ، لم تكن الا المقابلة .. حتي ليحار الناظر بين الأصل والصورة ، رئيس الجامعة يذكر جملة فيها الجذع والغصن . لم يدر ما سبقها .

يوشك الوسـن أن يدركه ، يرى مدخل المطعم القـديم ، صعودها الدرج ، رائحتها الغريبة المتفردة ، تمتمة شفتيها ، اشـارة أصابعها ، صندوق بريدها ..

وهم أو حقيقة ؟

أصل أو ظلال ؟

الأيدى تصفق .

لكن الكعكتين فى الغرفة ، ما تبقي من هديتهـا ، مذاق المقانق لم يمح بعد .

هل غفا ؟

المعانى هائمة ، عامة ، غير مفصـلة ، تتـوارد عليه صور عديدة ، لحظات مارقة ، سرعان ما تنحدر آلى المنطقـة المعتمة من الذاكرة . عدا

ملامحها المقترنة بقسمات من عيون حياته ، صـدى حضـورهن قربه ، جلوسـها الى جواره ، فى العـربة ، فى المطعم ، انفرادهمـا المؤقت فى البيت ، الطريق الذى يطوى بمجرد قطعه •

واقع أو توهم ؟

مبنى فرع الامن الاتحادى ، الحصن المشيد ، بوابة الغيبة ، بوابة الفلاسفة ، الطرقات التى تضيق اليوم وربما تتسـع غدا ، يود مفارقة هذا كله ، لو أن زميله لم يرقد مريضـا لما عرف طريقه الى هذه المدينة الغريبة ، المحيرة ، لو يرجع الى غرفته الآن ، يغفـو ، لا يفيـق الا قبل مغادرته غدا ، يضيق الآن بمكثه ، ثمة مالا يريح فى المناخ كله •

يدنو كل ترتيب من ذروته ، لا ينقص الا الاذن بدخول المصورين ، ثم تبدأ المغادرة •

لكن •• ها هو الاستاذ الافريقى يرفع يده ، متبعا الأصول المرعية ، أى خروج عنها أمر مخل لا يقبله المسـئولون ، مهمـا كانت شـخصية المتحدث •

يمسك رئيس الجامعة بالجرس الفضى ، المزخـرف بعروق نحيلة من الذهب ودوائر صـغيرة من الفيـروز والمرجان • يهـزه بحـركة محسـوبة ، مقدرة ، ليرن مرتين لا غير ، يعنى ذلك الاذن بالحـديث ، ثـلاث تعنى الرفض ، امـا اذا اصر الطـالب فاربـع رنات تعنى الاذن للحرس الجامعى بدخول القاعة وارغام المخالف على الخروج •

وريقـات فى يد الاسـتاذ الافريقى ، يقربها من عينيه ، يلتفت الى المنصة ، يبدأ بجملة تتردد كثيرا فى المؤتمرات :

« شكرا •• سيدى الرئيس » •

انه مضطر الى ابداء ملاحظة ، يبدو أن خطأ وقع ، قبل التطرق الى التفاصيل يجب التـأكيد على اسـتثنائية الجلسـة ، كل كلمة تلفظ ستصبح موضع بحث وتأمل وتفسير من الأجيال المقبلة ••

البيان الذى تفضل السيد الرئيس بقراءته منذ قليـل سيتلى فى مقدمة الاحتفال القادم ، أى •• بعد مائة سنة ، كل من سيصغى اليـه لم يفد بعد الى الدنيا ، وكل من سمعه لن يكون موجودا وقتئذ ، ستقوم كيانات ، وتتحلل نظم وتتبدل أوضاع •

يتوقف لحظة ثم يستأنف •

بعد التنبيه ثمة مدخل لابد منه ، تليه مقـدمة لايضـاح القصد ، واظهار الغاية ، اما المدخل فيتعلق باجتماعين عقدا ليلة أمس وصـباح

اليوم ، في الأول تم الاتفاق على صياغة فقرة محددة تتضمن اشارة واضحة الى امور جوهرية تمس الشمال والجنوب معا • فى الثانى جرى تفاهم ضمنى على التلميح الى مضمونها أو الاشارة اليه ، الأمر اذن لا يتعلق بنص معين ، بمحدوديته أو اطلاقه ، لكن •• الصلة وثيقة بشقين ، الاول يتعلق بجوهر ، والثانى متصل بمبدأ •• يتطلع الى الأشقر ، الشاب يبرم طرف شاربه •

يقول الافريقى ان أحد السادة الحاضرين جاء قبل الحفل وقال انه اجرى اتصالات مع جهات ذات شأن لم يفصح عنها ، وأن الرأى اجمع على ابداء كل وجهات النظر مع وضع الفروق الجوهرية فى الاعتبار ، وانه لا مانع من ذكر الفقرة كاملة ولكن بعد تغيير صياغة جملة واحدة ، اذ استقر رأى السادة المجهولين على أن تكون هكذا :

« اما عن العلاقات بين الداخل والخارج ••»

بدلا من الصيغة الأصلية :

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل •• »

يقول ان عددا من الزملاء أعربوا عن تحفظهم ، الا ان الموافقة على التعديل تمت احتراما للمناسبة وحرصا على درء البلبلة ، لكن وقعت المفاجأة بعد تلاوة البيان التاريخى ، اذ لم ترد من قريب أو بعيد ، وهذا مثير لدهشة جميع الزملاء الذين اختاروه ممثلا لهم ، وناطقا بلسانهم ، اجلالا للحدث التاريخى ••

يتطلع الى المنصة ، يعود الى اطراقة عابرة ، يرفع رأسه ، صوته متمهل ، وقور ، كأنه بدل تبديلا •

يقول ان سائر أعضاء دول الجنوب وممثلى جامعاتها يوقفون استمرار مشاركتهم الفعلية على ادراج النص ، وفى حالة الاستجابة فانهم يتمسكون بالجملة الاصلية •

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل •• »

يتطلع الى المنصة •

« شكرا سيدى الرئيس •• »

سكون متحفز ، مجلل بالنذر ، تتبدد عنده أى محاولة للاغفاء ، ينتهى شروده ، كأنه واصل القاعة للتو ، مع انه لم يفارق مقعده • فيما بعد علم أن سابقة كهذه لم تحدث خلال الاحتفالات السابقة التى تسجلها الوقائع المدونة ، كتبت صحيفة اتحادية معلقة فى اليوم التالى • ان تناقضات العصر تعقدت وتشعبت بحيث اثرت على احتفال

مهيب كان مخططا له أن يكون الأكثر فرادة ، حيث ان الجامعة ستوصف بعده بالألفية •

يميل رئيس الجامعة الى الامام ، صوته خفيض لكنه واضح ، يبدى الود ، يقول انه ليس ممكنا صياغة بيان يأتى مرضـيا للجميـع ، لكن الانفاق ليس مستحيلا •

يرفع الرحالة التركى يده •

يرفع ممثل السوق الاوربية المشتركة •

يتجاهل رئيس الجـامعة يد الرحالة ، يرن الجـرس مشـيرا الى الثـانى • يتطلع الجميع اليه • انه بدين ، عمره متقـدم ، عليه هيبة ، جفونه غليظة ، مسدلة ، مما أضفى عليه رخاوة ولامبالاة •

قال انه أصغى بعناية الى كلمة الزميل الافريقى المحترم ، بداية • يعلن اتفاقه مع الخطوط العريضة بالفقرة المقترح ادراجها ، ولكن •• يتمهل أثناء اتجاه بصره الى الاستاذ الافريقى •

يشير بأصـــابعه قائلا ان ثمة ثلاثة أحوال ، فاما تقييـد ، واما تبديل ، واما اطلاق ، فاذا قيل بالتقييد حذفت الفقرة الى حين ، بمعنى انه يمكن اضافتها الى النص خلال المائة عام القديمة ، اما فى المتن واما فى الحواشى ، واذ جرى تبديل يبقى المعنى مع تغيير الصياغة ، اما اذا وقع الاتفاق على الاطلاق •• فلتبق الفقرة •

صمت لحظات ثم استمر •

- ان ما يحيره حقا ذلك السطر الذى أشار اليه الزميل الفاضل ، اذ يثير علامات استفهام عديدة بما حواه من اشارة الى الخارج والداخل ، لماذا الاصرار على بقاء الصياغة كما وردت ؟

يتطلع الى المنصة ، نبرات صوته لا توحى بالتوقف ، لم تتغير ولم تهن ، فجأة نطق بعد لحيظات سكوت •

« شكرا •• سيدى الرئيس •• »

يرفع الرحالة التركى يده ، يبدو غاضبا اذاء تجاهله •

تلح عليه فى هذه اللحظات ملامح المغربى ، خاصة نظراته الجانبية والمعانى الغامضة فى عينيه ، صمته المثقل بالاحتمالات •

ينتبه الآن الى تطلع الافريقى صوبه ، يجلس فى مواجهته تماما ، لم يتبادل حوارا طويلا ، التحية وجمل عابرة ، عادية •

ترتفع أربع أياد فى القـاعة ، يقـول رئيس الجـامعة مبتسما انه لا يدرى من طلب الكلمة أولا •

يشير الرحالة الى صدره بيسراه بينما يمناه مرفوعة • الأشقر يبرم طرف شاربه ، يومئ صوب التركي •

اصوات تؤكد أنه ممثل اكاديمية العلوم الهندية •

تعلو نداءات خافتة من نهاية القاعة ، غير ان ممثل هيئة الفيزياء السوفييتية تلقى الاذن بالكلام •

« شكرا •• سيدى الرئيس » •

لم يدر أحد السبب ، هل لقربه من المنصة ؟ • أكد آخرون ان للمتغيرات الجارية فى المعسكر الاشتراكى دخلا كبيرا • قال البعض انما اراد الرئيس احتواء أمر لا مثيل له من قبل • فى البداية أبدى مرحا لكن ردود الفعل هددت باهدار تقاليد حوفظ عليها عصورا متتابعة ، أخذ عليه كثيرون تبسيطه • فيما بعد سخرت صحف البلدية من الادعاء بالحفاظ على التقاليد • انتقادات عديدة وملاحظات معادية أبديت • ما جرى فى القاعة صار موضوعا للجدل ، تخطى حدود الجامعة والمدينة والبلاد كلها ، كل حاضر أثار الأمر بعد أوبته ، اماكتابة واما شفاهة ، كما أدلى الرحالة التركى بتصريحات معادية فى كل مرحلة انتهى اليها ، رغم السماح له بالحديث قرب نهاية الجلسة بشرط الا يتجاوز دقيقة ونصف • هاجم رئاسة الجامعة وموقفها اللامبالى من حماية البيئة وتجاهلها لوضع كراكى المحيط الهادى ، واشاد بموقف البلدية التى قررت اقامة معرض ، واصدار طابع بريد محلى • والاعلان عن مسابقة لتصميم ملصقات حول ضرورة التكاتف لانقاذ الكراكى •

كل رأى قيل برز له مؤيدون ومعارضون • ليس المشاركون فحسب ، انما من القوى المختلفة فى المدينة ، وفى العاصمة الاتحادية ، وفى البلدان التى ينتمى اليها المدعوون ، بل تردد الأمر فى اقطار نائية لم يمثلها أحد •

فى معظم العواصم الغربية أكد المعلقون والمراقبون للتيارات الخفية أن اصرار ممثلى الجنوب على ايراد الفقرة بنصها انما يعكس جوهر الأزمة بين الشعوب المقهورة والدول الغنية المسيطرة •

اشاد الناطق بلسان البيت الأبيض الى دور مؤكد للمنظمات الارهابية خاصة العاملة فى منطقة الشرق الاوسط ، وانتهز الفرصة ليهاجم منظمة التحرير الفلسطينية مؤكدا ان ما قدمته حتى الآن من تنازلات لا يعكس الموقف المطلوب منها •

فسر البعض مقاومة الدول الغربية للنسطر القائل بعلاقات بين الخارج والداخل ، على اساس الرغبة القوية فى اعلان موقف موحد ضد الحركات الاصولية في الشرق ، واشارت وسائل الاعلام الغربية الى اتفاق الاتحاد السوفييتي مع الغرب بوضوح وصراحة وبدون موارية ٠

قيل فى المدينة ، وفى منتديات العاصمة الاتحادية ، وأندية البلياردو الشهيرة فيها ، ان الصراع القديم ، الكامن أيضا ٠ فكلمة الداخل تعنى البلدية ، أما الخارج فتشير الى الجامعة ، هذا معنى متفق عليه ، مستقر منذ القرن الثامن عشر ، وازداد رسوخا بعد تأسيس الدولة ، وأصبح مفروغا منه بعد الحرب العالمية الأولى ٠ صحيح ان البلدية مرتبطة باتفاقيات تآخ مع مدن شتى ، وعمدتها دائم السفر لتلبية الدعوات ، ولكن ينظر اليها دائما باعتبارها من الشئون الداخلية ٠ أما الجامعة فشهرتها عالمية ، وطلابها من جنسيات شتى ، وعند ورود ذكرها فى أى مكان بالعالم ، انما يعنى كيانا قائما بذاته ، حتى قيل ايهما ينسب الى الآخر ، الجامعة الاعرق ؟ أو الدولة القوية الأحدث ؟

هذه نقطة تمثل حد الهرج ، مناقشتها أو اثارتها علانية يتضمن مخاطر شتى ، صحيح أن البلاد فيها أكثر من عشرين جامعة ، وفى العاصمة كلية شهيرة لدراسة المناظير الضوئية ، يقصدها علماء أمريكا واستراليا ودول الحزام الأمنى ، برغم ذلك فان سمعة الجامعة تطغى على هذا كله وتتجاوزه ، وعندما يدعى أحد اساتذتها الى دولة ما يجرى الاعلان عن وصوله قبل مدة كافية ، وتنشر اعلانات عديدة عن المحاضرة التى ستلقى ومكانها ، ويجرى التنافس للحصول على دعوة ، وتتولى السفارات المجهود الأتم ٠ باعتبار وصول الاساتذة فرصة دعاية نادرة للدولة الاتحادية خاصة منتجاتها الزراعية والصناعية ٠ أما زيارات اساتذة الطب العاملون بالمستشفى الجامعى التاريخى ، فيجرى الاعداد لها وتجهيز الحالات المرضية قبل موعدها بخمسة أعوام ٠

برغم ارهاقه ، وحاجته الى اغفاءة ما بعد الظهر ٠ الا أن حيوية أينعت ، ورغبة فى الاصغاء استعرت ، وان تجاهل نظرات الاستاذ الأفريقى الحاثة له على المشاركة ، فى لحظة معينة خطر له أن يرفع يده طلبا للحديث ، لكن رئيس الجامعة اعلن فى تلك اللحظة انه سوف يتحدث بصفته أستاذا للمنطق ، وليس رئيسا لهذه المؤسسة العلمية العريقة ٠

بالفعل ٠٠ قام ، ابتعد عن مقعده ثلاث خطوات ، أولى ظهره

للمنصة ، استقبلها مرة أخرى بعد حسر غطاء رأسه ، يوجه كلماته الى القاعة بصوت هادىء • يقول انه يتحدث أيضا باعتباره مواطنا يعيش في هذه المدينة الجميلة ، العريقة ، ان ما يرجوه التوصل الى حد ادنى من الاتفاق ، واستحالة التعبير عن وجهات النظر كلها أمر لا خلاف عليه ، فاذا قال نفر بابقاء السطر ، وقال آخرون بتحويره ، فيجب الا يؤدى ذلك الى وقوع النفاد ، واذا كان الجميع قد تصافحوا فى بداية الحفل ، فما يرجوه أن يودع كل منهم الآخر بدون ضغينة •

يقف •• ما رغب قوله كأستاذ للمنطق •• انتهى • يعود الآن الى صفته الرئاسية ، يتجه الى الموضع الذى استدار عنده ، يرتدى غطاء الرأس •• يرجع الى مقعده •

مرتان أخريان تخلى عن صفته الرئاسية ، عندما أعلن انه سيتحدث كأستاذ لغويات ، وأفاض فى شرح الفرق بين معنى الداخل والخارج ، لكنه لم يبد رأيه صراحة حفاظا على تقاليد موقعه ، حتى أثناء حديثه كأستاذ للمنطق فى المرة الاولى ، وللغويات فى الثانية ، وبصفته زميلا فى الاكاديمية الطبية السويدية ، لم يعرف أحد سبب اختياره هذا ، مع انه عضو عامل بعدد من الأكاديميات البارزة ، ومراكز البحث الطبى المتقدمة • علل البعض ذلك بحياد السويد كدولة • ولمح آخرون الى جهوده غير المعلنة للحصول على جائزة نوبل ، خاصة عندما قال انه سيعلن نبأ لا علاقة له بالنقاش الجارى ، لكنه يمس كل انسان ، اذ تمت المرحلة الأولى من مشروع علمى ضخم انجز فى تكتم ، محوره امكان تحديد الأجل الذى يمكن للفرد من النوع الانسانى أن يعيشه فى هذه الحياة الدنيا •

تطلع الجميع بدهشة ، وسمع الجالسون الرحالة التركى يردد بصوت خافت ان هذا كفر وعبث ، بينما نظر اليه الأشقر مومئا معلنا موافقته لما تمتم به خفية •

قال رئيس الجامعة ان الابحاث يمكن ان تبدأ عند اليوم السابع من مولد الطفل ، وبعد فحوص معينة ، واجراء تجارب خاصة ، يمكن وتطورات الجهاز العصبى ، ليست الناتجة عن تفاعلات داخلية فحسب ، انما تلك الناتجة عن هجوم ميكروبى خارجى ، نتيجة وهن تحديد الأمراض المتوقع اصابته بها ، وتغيرات الدم والأنسجة والغدد جهاز المناعة ، سيتم تقسيم العمر الى مراحل ، وتحديد الوهن الذى يبدأ عند كل منها • وصولا الى اللحظة التى يكتمل فيها مشروع الوجود

الانساني ! • حيث تكف الصور عن التدفق عبر المخيلة البشرية ، وتنتهي الصور ، وتنطفيء اللمعات المتوارثة ، والمكتسبة ، وتفسد المخيلة الى أبد أبيد •

قال انه لا يؤخذ في الاعتبار طبعا الحوادث القدرية مثل الحوادث والكوارث وبغتات الوقت الخارجة عن طوع الأرادة الانسانية •

ثم قال انه سيتم توزيع ملفات على السادة المشاركين يتضمن كل منها تحليلات طبية أجريت بواسطة المستشفى الجامعى ، متبعة وسائل جديدة تماما لا تعتمد على أخذ عينات ، أو اجراء قياسات ، انما تستند الى المراقبة ، والآثار المتبقية ، هذا ما جرى طوال الايام الماضية بدون أن يشعر أحد •• انها مفاجأة ، لكنه يرجو أن تكون سارة •

بعد انتهائه مباشرة ، دخل القاعة ثلاثة يحملون ملفات أنيقة ، يحمل كل منها اسم عضو مشارك ، عدا اثنين ، الأشقر والرحالة ، أبدى التركي غضبه وقال ان الموقف ضد الكراكي صار سافرا ، ولكن أحد رجال الادارة قال ان التجارب اجريت على الذين التزموا ببرنامج الاحتفال ، خاصة أماكن الاقامة ، مؤكدا ان الرحالة نزل ضيفا فى استراحة البلدية ، وانه لم يكن يأتي الى الفندق الا لتناول الوجبات الثلاث ، حيث حصل على دفتر الاذونات الموزع على الجميع ، ويسمح له بدخول المطعم فى أوقات الطعام المقررة ، مع ان استراحة البلدية تتضمن مطبخا يقدم الوجبات الجاهزة !

ينقل البصر بين الرحالة الذى استنفرت ملامحه فى اتجاه الغضب ، وبين الملف الموضوع أمامه منذ ثوان •

اسمه مكتوب بحروف آلة حديثة جدا ، البعض شرع فى تقليب الأوراق ، يبدون الدهشة ، لم يقدم على فتح حلقه ، أرجأ ذلك ، لكم تخيل قدرة الانسان على ابصار مالا يعلمه ، وسبر كنه المجهول ، وان لم يدر ، كيف ستمضى الحياة فى تلك الظروف ، عندما يعلم الانسان انه مفارق الى الأبد ، عند حد معين • فرق شاسع بين رحيله بعد خمس ثوان مع جهله بذلك ، وبين عيشه مائة عام أخرى مع علمه انه راحل فى لحظة محددة ، اذا اطلع على لحظة اكتمال الدائرة وقعت الاحاطة ، اذا تماست البداية بالنهاية كان العدم ، لاراد عندئذ ولا ناجع ، المعرفة الأتم باعثة على القلق ، واحيانا •• الحيرة ، قيل قديما ، لو أطلعتم على الغيب لأخترتم الواقع •

يطيل التحديق الى المنصة • رئيس الجامعة يبتسم مرهقا ، كأنه

أراد بتوزيع الملفات والاعلان عن هذا المشروع العلمي الغريب أن يفصل بين المتناقشين الى حين ، او يطوى الخلاف كله ٠

يستدعي الى ذهنه ، أو تتوارد عليه لحظات تجواله في ممرات الحصن المشيد ، صحبة الباسقه ، تقدمها بخطو واثق ، ما البنيان لله الا محاولة تقترب في جوهرها من هذا المشروع ، درء خطر الموت ، اكتشاف أبعاده ، وان أختلفت الوسيلة وتباينت المقاييس ٠

في لحظة معاينة أقدم على المشاركة ، طوال الساعات المنقضية تتبع النقاش لا غير ، مضمرا رايه في هذه الحجة أو تلك ، بعد اتضاح طرفي الخلاف ، مرات عديدة تطلع اليه الاستاذ الافريقي ، حاثا اياه على المشاركة ، باعتبارهما يمتان الى قارة واحدة ٠٠ ربما ! ، أحد الاسباب المؤكدة كراهية مفاجئة تجاه الأشقر ، لم يكف عن برم شاربه خفيف الشعيرات ٠

طرح لامبالاته جانبا ، وسخريته من احتدام الجدل حول معنى السطر الذى تركز الخلاف حوله ، بل أوشك على كتابة ورقة يطلب من الافريقي الملاينة ، فالتاريخ لن يتوقف ، والواقع لن يتبدل ، نتيجة ترتيب كلمة الخارج والداخل ، عليه الانتباه الى تبدل المعنى عند ترجمة الجملة الى لغات أخرى ، سيصبح الخارج داخلا ، والداخل خارجا ٠

هكذا ٠٠ في لحظة معينة ، رفع يده ، وبعد سماعه الجرس ، نطق : « شكرا ٠٠ سيدى الرئيس » ٠٠

يحرص على ضبط نبرات صوته ، خروجها متسقة ، هادئة ، متناغمة ، مع تصعيده بطيء ٠

يقول انه سيوضح هدفه مباشرة ، اذ يرى ضرورة الابقاء على الفقرة كاملة بالصيغة التى طرحت بها صباح اليوم قبل بدء الاجتماع الختامي ، واستبعاد أي احتمال للمساومة ، وبالتالى ابقاء عبارة ـ الخارج والداخل ـ كما هى ٠

يتوقف لحظات ٠

الأشقر يعبث بشاربه في عصبية وحدة ، هنا يقرر تصعيد حدة لهجته حتى يزيد توتره ٠ يشير بأصبعه ، يمعن فى ايراد التفاصيل ، الأثار المترتبة على الموقف المضاد ، تأثير ذلك على العلاقات الودية ، تأويل المواقف بين الظاهر والباطن ٠ بين مفارقات الوقت ، ومتضادات الفهم ، ينحى باللائمة على ممثل الاكاديمية السوفييتية ، يقول ما تحرج

الأفريقي من نطقه · يلمح الى زمن قريب كانت فيه المنظومة الاشتراكية تناصر أحلام الشعوب المستضعفة وتؤازرها ·· هنا يرفع العضو السوفييتي يده محتجا · لكن رئيس الجامعة يسمح باستمرار الحديث ، فيمعن في شرح مضار حذف الفقرة ، أو تغيير الجملة ، ومحاسن الجمع بينها وبين البيان ·

« شكرا ·· سيدى الرئيس » ··

بعد توقفه ، ساد سكون ، يحاول السفير السابق أن يتوارى بحضوره ، الابقاء على ملامحه محايدة ، اما الرحالة التركى فيتبادل نظرات حادة ، سريعة مع الأشقر ·

كما أدرك فيما بعد ، كان الموقف كله معلقا بنطقه فطبقا للتقاليد لابد أن يتكلم الجميع ، واذا لزم شخص واحد الصمت يستمر النقاش حتى شروعه ·

يومىء الاستاذ الافريقي راضيا ، مبتسما ، ممتنا ، استاذة مغربية تفارق مقعدها ، انها دقيقة الحجم ، منمنمة الملامح ، تقترب منه ، تميل عليه ، تحييه بحرارة ، تهمس قائلة انها تعجبت من صمته مع المامها بمواقفه القديمة ، لكن بعد نطقه تدرك الآن أن كمونه تضمن قدرا من الحذق والصيانة ، اما هدوءه البادى فيخفى تأججا ، حقا ·· انها تحييه ·

تميل ، تقبله مرتين ·

يدركه خجل ، يود أن يسألها عما اذا كانت تعرف المغربى المقيم ، لكنه أحجم ، في عينيها شروع في قربى ومودة ، الا أن دافعا عنده لم يتحرك ، وحافزا لديه لم ينبض ، ربما لانشغاله باختفاء الباسقة ، أو لفتوره وبدء انزوائه ، تراجعه الى منطقة اللامبالاة التى بدأت عنده منذ سنوات قريبة ، اثر توالى الخيبات العظمى ، وتكاثف الركود ، وتحلل العناصر ، حتى انه يسر كثيرا ويسرى عنده ابتهاج دفين ، لأنه لم يقض في الحرب زمن اشتراكه واقدامه غير هياب ، غير هياب ، غير مبال بالخطر ، بمواجهة الموت من أجل معنى أو قضية · غير ان الأحوال مضت بعكس ما قدر لها ، أصعب ما عرفه ، ما عاناه ، وأضنى مرقده ، وقوع النفار بينه كفرد ، وبين اتجاه خاطىء لمجريات كبرى ، مع ادراكه الاتم لكامن الخطر ، وقلة حيلته ، ومحدودية تأثيره · هذا وعد صعب ، يدركه الكمد اذا شرع التفكير فيه ، كل استعادة لموقف قديم

دنا فيه من الخطر بمثـابة مردعة له عن تـكرار ذلك • يدرك الآن ان حديثه بعد صمت كان محاولة للثأر من شجون طال تراكمها •

يسعى اليه الاستاذ الافريقى ، ممثلو الدول الجنـوبية ، وحوض الكاريبى ، أقطار الانديز ، جنوب شرق آسـيا ، يسعى الى الانفراد فى غرفته ، متبتا عنهم ، مع انهم تطلعوا اليه حائرين ، متعجبين من صمته المكين الذى تفجر عن حسم لم يتوقعه أحد ، ولم يدر بذهن ••

اللحظة وتداعياتها ..

•• عند استعادتها مرغما ، لا يمكنه تحديد ما قبلهـا أو بعدها ، حتى لتبدو منفصلة عن كل سياق • منفصـلة ، منقطعـة ، منتظمة ، تلك لحظات تمثل علامات فارقة ، لا تنسى ولا تمحى ، تؤطر ما قبلهـا وتحدد ما بعدها ، تشطر الوقت والحظة وتقلب المشروع •

بعد يقينه من حلولها • من اكتمالها ، بدأ هبوط عنده حتى أقعى •

بدت ملامحه موسـومة بالواقعـة ، ثمة غـامض ، خفى ، لا يبين ، يغادره الى الأبد ، وطارىء مجهول لم يعهده يحـل به ، اذن •• وقع ما خشيه دائما ، ما احتاط منه ، ما أقصاه بالمخيلة حتى عن هواجسـه ، لكنه يعود ليبحث من جديد ، ربما فات بصره ، يحدث أحيانا أن تغيب عن دائرته أشياء محط عناية قصوى ، مع انها قائمة ، ماثلة ، لكن فرط الاهتمام يحجبها وهى فى المتناول •

يرتب محتويات الحقيبة ، يتطلع هنا •• هناك ، ينفض الأغطية ، يدور مطلا على الزوايا والأركان ، يقف متوسطا الحجرة مثقلا بالسقف والجدران المتقاربة ، وسكون الجماد ، وانتفاء الصديق •

يبذل محاولة للثبات ، لاستيعاب ما جرى ، لاستعادة التفاصيل ، لبدء تصرف أمثل يمكنه من تجاوز المحنة •

عبثا يحاول استعادة آخر لحظة وقعت عيناه عليه ، بالتأكيد كان فى حقيبته عندما اطلعت عليه الباسـقة فى المطعم العتيـق ، بعـد أن تأملته ، ودهشت لكثرة التأشـيرات اعادته اليه مرة أخرى ، نعم •• هذا مؤكد •

ما تلا ذلك ؟

لا يعرف ، لا يدرى ، يصعب عليه استعادة ما كان ، مع أن الوقت دان ، واللحظـات لم تنأ بعـد ، يمنعـه من اسـتعادتها ، من تدقيـق تفاصـيلها ، شـيىء لم يقدر على تحـديده بالضـبط ، كأنه يلغى كل القسمات ، يجتهد ، يسعى ••

لسـبب ما تلح عليه قسـمات ابيه الراحل منـذ عشرين عاما ، اذ يتذكره يرى ملامحه الباقية فى الصـور المعلقـة فى البيت ، أو التى

يحتفظ بهـا بين اوراقه ، صـور ملتقطـة خـلال الاعـوام الأخيرة من حياته ، لايستعيد حضوره الذى كان ، لمحات ، شذرات هنا ، هناك ، لكن تعجز ذاكرته عن اقتناص موقف يطول أكثر من دقيقة واحدة عبر حياة امتدت أكثر من سبعين عاما ، عايشه وأحتمى به وسعى اليه أكثر من ثلاثين ، وعندما قضى فجأة فراه الأسى ، لكنه الآن عاجز عنالتشبث بملمح ولو عابرا ٠

هل وهنت الصلة ؟

هل تقطعت الاسباب ؟

أو يمعن فى الا يغال نأيا عن الأصول ؟

لماذا يلمح عليه أبوه المندثر الآن ؟ ، ألفقدانه الهوية ؟

بالقطع ، لم تفارقه الحقيبة فى القـاعة ٠ أحد المشـاركين هندى ، تطلع اليه كأنه يتساءل عن جدوى حمل الحقيبة خلال لحظة يفارق فيها المكان ، الا يعنى ذلك اعلانا منه بعـدم الثقة فى الآخـرين ؟ لكنـه فكر وقتئذ ، عليه ألا يعبأ ، المهم ٠٠ أن يلازم أوراقه ٠ هل كان الجواز داخل الحقيبة عندئذ ؟

لا يمكنه القطع ، صعب الجزم ، ٠هنا يبدأ الشك ، يجتهد فى وقف اضـطرابه ، تخلخله ، تهمى عليه صـور نائية لا تمت الى ما يجتـازه بصلة ٠

رجل يجلس القرفصاء فوق جسر قريب من قريته ، ناصية حارة قديمة ، مصباح قديم يرسل ضوءا واهنا متعبا ، نزول مطـر ، رائحة تين ، توفق مياه فى جدول الى أرض زراعية ، خطى أقدام فى شـارع مزدحم ليلة عيد ، فتاة تتطلع اليه ، انفها رومانى ، ملامحهـا غلامية ، لكن قدها شرقي الانوثة فى تكوينه وتأوده ، شخص ما يقـول ان كل انسان ينتج زمنه الخاص ، عليه أن يوجه وقتـه ، يقف فى مـكان ما ، ميدان قديم ، لم يستطع تحديده ، ينتظر العبور الى الناحية الأخرى ٠

الى أين ؟

لا يدرى !

كل مايتعاقب على ذهنه يرتبط بأبيه ، حضوره ، سعيه ، يحـاول اقصاء الواردات الغريبة ، لا يدرى مصادرها أو بواعثها ، يبدو أن ذلك كان ضروريا ليفصل بين لحظة اكتشاف ضياع هويته ، وبين محاولته ترتيب ردود أفعاله ، ومواجهة الآنى و الآتى ، بل يتجاوز حالة حيادية كأن ما جرى وقع لغيره ، لا يخصه ٠

يفارق غرفته بعد تيقنه الفقد ، يجتاز الممر صوب المصعد ، منتبها الى الرائحة الفندقية المتكررة فى أسفاره ، رائحة مفروشـات ، وأثاث واصداء ، وطعام ، وأسرار شتى •

يتجه الى موظف الاستقبال ، باختصار شديد يقول انه فقد جواز سفره ، وبطاقة الطائرة •• ما يريده ، اتخاذ الاجراءات القانونية •

موظف لم يره من قبل ، شـاب ، هادىء ، مهـذب ، دبلوماسى الملامح ، يتساءل بثبات عما اذا كان يتهم شخصا من العاملين بالفندق ؟•

يقول انه لا يعرف بالضبط ، لـكن هنـاك اجراءات معينـة يجب اتخاذها ، ثم ان الوقت المتاح له مجرد ساعات •

يتطلع اليه متسائلا عن اسمه ؟

ينطق مجيبا بالنص الثلاثى الكامل •

ينظر اليه متمعنا ، كأنه يستوثق أمرا ما ، يضغط أزرار الحاسب الآلى ، حركاته بطيئة ، وجهه كأنه قد من شمع ، يفكر •• هذا الشخص الذى لا يعرفه ، سيمضى بعد انتهاء عمله الى بيته ، الى صـاحبته ، الى امرأته ، الى ركنه المفضل ، الى مدينته ، مكانه حيزه ، سترته ، غطاؤه ، أما الاغتراب فعـورة ، تجـريد من كل واق ، يرفع عينيـه تجـاهه ، يتساءل :

ـ انت ضيف الجامعة ؟

يومىء ، يتابع ••

ـ ضيافتك تنتهى غدا ، يجب تسليم الغرفة قبل الثانية عشرة ••

كأنه لم يصـغ ، لم يدرك ، لم يفهم ، كل ما يعنيـه حد الاقامة ، يعيـد ما قاله ، يؤكـد على ضرورة بدء الاجـراءات المتبعة حتى يمكنه الاتصال بسفارة بلاده فى العاصمة الاتحادية •

يجيبه باقتضاب ، ان الخطوة الاولى ، ابلاغ الشرطة ، الرقم •• فى الدليل •

يصغى الى صوت غليظ ، بمجرد اصـغائه اليه قال « أهلا » كأنه يتوقعه أو ينتظره ، يقول ان مثل هذه الحالات مسئولية القسم الخاص ، مواعيده صباحية فقط •

يقول انه مسافر غدا •

تكة صغيرة تعنى اغلاق الخط •

فى قاعة الطعام يلمح استاذا جامعيـا ، نشـطا ، قيل عنه انه من

الشخصيات الهامة التى تلعب دورا وسطا بين البلدية والجامعة بهدف تهدئة الأمور واحتــواء الأزمات ، تردد انه مهــدد بالاغتيــال من احدى الجماعات الارهابية المتطرفة العاملة بالمدينة ، بسبب آداء يرددها أثناء القائه محاضراته ، لم يفصل أحد طبيعة هذه الآداء .

يصغي صامتا ، يجيب بكلمة واحدة .

« مشكلة » ..

ينصح بالذهاب الى القسم الخاص صباح اليوم التالى ، انه الاجراء الوحيد الذى يعلمه ، تلك حادثة غير مسبوقة ، لكنها ..

« مشكلة » ..

يعود الى غرفته ، يتصل بعاملة البدالة ، يملى عليها الرقم ، يقول ان صديقا مغربيا كتبه ، وانه يقيم فى المدينة ، تؤكد العــاملة ان هذا الرقم لا يوجد في سائر الولايات ، العاصمة الاتحادية خلو منه تماما ، لابد انه فى بلد آخر .

اذن .. فى الأمر شيىء ، لكنه يعى تمــــاما اللحظــات التى أملى المغربى فيها ارقام الهاتف ، لم يخطىء كتابتها ، يحاول اقصاء ملامحــه الملحة عليه ، غموض ابتسامته ، يفتش ملابسه من جديد ، محتــويات الحقيبة ، متمنيا ، راجيا ، بزوغ اللون الأخضر للغلاف وحافة البطــاقة مطلة منه ، يدركه نصــب ، يجــلس الى حــافة الفراش مكتمــل الوعى بالفقد ، بالانقطاع ، بوقوع العثرة .. يردد بصوت مرتفع :

« اين ساكون غدا ، مثل هذه اللحظة تماما .. »

مفتتح إجرائى ..

•• أدلج في النعـاس بيسر ، بسرعة رحل من اليقظة الى النوم ، عكس لياليه المماثلة السابقة على سفره ، يذكر أرقه ، انتفاء هجـوعه ، جلوسه في الفراش يأسا وانتظاراً لانبلاج الصبح •

الليلة •• اختلف الأمر ، نوم كمد أوغل فيه كالهرب •

لم يتناول افطاره ، مبـاشرة •• الى القسـم الخـاص ، الادارة من الشرطة التي يقع مقـرها في مبنى البلدية ، المدخل من البـاب الجانبي ناحيـة الغرب ، أطلت نذر وضـعه الجـديد ، عنـدما طالبـه موظف الاستعلامات بما يثبت هويته •

يقول انه جاء ليبلغ عن فقد جوازه ، الأمر عاجل ، ساعات قليلة جدا تفصله عن موعد سفره •

يردد الموظف كلمة واحدة ، بلهجة مقاربة للاستاذ الجامعي عندما لفظ كلمة واحدة •

« مشكلة •• »

استفسر عما اذا كان لديه أى اثبـات للهـوية ، أى بطـاقة محلية حتي ؟ • عضوية نقابية ، رخصة مرور ، اشـتراك نادى •• أى ورقة عليها اسمه وصورته •

عند سفره يكتفى بجواز سفره ، لا يحتاج شيئا من هذا ، يطلب منه الانتظار ، يرفع سماعة الهـاتف ، يدير رقمين فقط ، من الصـعب الاصغاء ، ليس لنطقه اللهجة المحلية الصعبة ، انما لقدرته على الهمس ، يعجب •• كيف يمكن سماع صوته عند الطرف الآخر ؟ ، هذا مخـالف لخصاله ، يتحدث دائمـا بصـوت مرتفـع حتي ليسـمعه من يقف على مسافة ، ينتهي الموظف ، لا ينظر اليه ، يراجع أوراقا ما ، ثمة رائحـة مجهولة المصدر ، مرتبطة بالمكان ، تشبه فراغ المستشفيات ، مطهرات ، محاليل ، طلاء الجـدران الأبيض ، لكنـه هنا رمادى ، قاتم ، يقف في مواجهة عجوز ، لابد انه أحيـل الى التقـاعد منذ زمن ، من اين جاء ؟ ، كيف ظهر فجأة ، ملامحه موصدة ، يشير اليه موظف الاستعلامات أن يتبعه •

عجوز صـامت ، بين الحين والآخر يتطلـع ، يومىء ، الابواب على الجانبين مغلقة •

يوما ارسلوا في استدعائه ، حددوا الوقت والمـكان ، مبنى ادارة المباحث العامة ، قرب ميدان لاظوغلى ، عمارة قديمة ، مستطيلة النوافذ ، كابية الظـلال ، كل العـاملين يرتدون الملابس المدنيـة ، غير ان شيئا ما لا يبين يوحي بهيئتهم الوظيفية ، فجأة •• عند منحنى أحـد الممرات ظهر اثنان منهما ، يمسكان شخصا معصوب العينين ، موثق اليدين من خلف ، يتعمدان دفعه في اتجاه الجدران ، بعد اصطدامه ، أثر تحقـق البغتة يعيدان وجهته صوب الفـراغ ، يأمرانه بجفـوة أن يمشي ، ألا يتوقف ، يمضي رافعا رأسه شأن من لا قدرة لهم على الابصار ، حقا •• لماذا يرفع المكفوفون رؤوسهم دائما ؟

لا يدري •• لكنه جفـل يومها ، رؤية القهـر أصعب من وقوعه ، سماع الانين أوعر من صدوره •

كل خطوة يتوقع فتح أحد الأبواب ، أن يصدر صراخ ما ، أن يبدو شخص موثق ، لكن •• لم يحدث شيىء ، وان جثم حضور المبنى عليه • في المواجهة ساعة قديمة ذات بندول ، لم يتبق على موعد القطار سـوى ثلاث ساعات وعشر دقائق ، بدأ سفر المشاركين منذ السادسة صباحا ، حتى الثانية عشرة لن يتبقى واحد منهم ، يعي وضعه لحظة اثر الأخرى ، تتصاعد خشيته أضعاف لحظات اكتشافه فقد الجواز ، يتوقف العجوز امام غرفة مغلقة ، يفتح الباب •

ضابط شرطة أو موظف مدني ؟

لا يدرى ، لم يستفسر ، لا محل لذلك ، بعد اصغائه الى ما قال ، امسك قلما من رصاص ، دون ملاحظـات ما ، سأل عن الاسم الرباعى وليس الثلاثى ، عن جهة الميلاد ، محل الاقامة الدائم ، الجهة التى يعمل بها ، تاريخ دخوله البلاد ، اسم شركة الطيران النـاقلة ، البـلاد التى زارها خلال السنة الاخيرة فقط ، حالته الاجتمـاعية ، رقم الجـواز •• جهة اصداره ، وتاريخه •

يحفظ البيانات كلها عدا تاريخ الاصـدار هذا ، لم يكن واثقـا ، السادس والعشرين أو السابع والعشرين ؟ ، أبدى ترددا ، فطلب منه أن يستوثق ، اى خطأ ضار جدا •

لم يفصح عن ضيقه وتحفظه من طريقة توجيه الأسئلة ، كأنه موضع اتهام ما ، آثر الا يجزم •

ـ اذن ‥ لا تعرف‥

ـ نعم ‥

يستفسر عن وسيلة وصوله الى المدينة ، ما موعد القطار ، القيام ، الوصول ، أي درجة استقل ؟ هل تحدث الى شخص ما أثناء الرحلة ؟ كيف انتقل من المحطة الى الفندق ، هل يذكر رقم عربة الاجرة ؟

ـ لكن الجواز كان معي بعد وصولي ‥

بجفاء يقول انه يطلب الاجابة بدون تعليق ، السؤال الذى قد يبدو له بلا معنى ، ربما يكون هاما جدا بالنسبة للاجراءات ، ان كل النقاط لم تحدد عبثا ، بعد لحظات قال انه غير ملزم بتقديم مثل هذا الايضاح ، لكنه يقدر ظرفه •

ـ اذن ‥ لم تأت هنا من قبل ؟

قال انه لم يزر المدينة الا هذه المرة ، لكنه عبر مطار العاصمة منذ سبع سنوات ، لم يخرج من المطار •

سأل عن علاقته بالجامعة ، كيف بدأت ؟ متى ؟

يصغي باهتمام الى اسم زميله الذى لم يحضر بسبب مرضه المفاجىء ، يستفسر عنه ، هل يتشابه تخصصهما ؟ لماذا تم اختياره هو بالذات ؟ هل وصلته دعوة بديلة ؟ كيف ؟ بالبريد العادى أو المسجل ؟ أو البرق ؟ ، هل تربطه علاقات شخصية بأحد الاساتذة ، خلال اقامته فى المدينة ‥ بمن التقى ؟

يتطلع الى رقم الهاتف الذى أملاه عليه المغربى ، يقول باختصار ان مثل هذا لا يوجد ، يطلب ذكر أوصاف المغربى ، خاصة طوله ، يسأله عما اذا كان مارس الحب مع الباسقة عند زيارتها فى البيت ؟

يطلب منه التأني والتدقيق •

يكف ، يتوقف عن الاجابة ، يردد ضرورة سفره اليوم ، المشكلة ليست بطاقة الطائرة ، معه ما يكفى للسداد مقابل أخرى جديدة ، لكن الجواز لب المشكلة ، لابد من اجراء بلاغ رسمى ، والحصول على صورة معتمدة لتقديمها الى السفارة فى العاصمة الاتحادية ، بعد الاعلان عن الفقد فى احدى الصحف المحلية ، ثم يمر اسبوعان ، فاذا لم يظهر مردود ، يحق له استخراج وثيقة سفر مؤقتة ، قال انه يعرف الترتيبات لخبرته السابقة فى السفر ، لو امكنه الحصول على صورة المحضر الرسمى اليوم يمكنه اختصار الوقت ، سيتوجه مباشرة الى السفارة ، لعلهم يبدون مساعدة خاصة بعد اطلاعهم على مركزه العلمى •

يرفع الموظف أو الضابط ـ لا يدرى ـ عينيه ، فيهما سخرية ؟
ـ كيف سيعرفون موقعك وانت بدون أوراق ؟
يقول انه ربما التقى بمن يعرفه ، ان الصحف تنشر عنه أحيانا •
يهز رأسه ، يقول ان الأمر ليس بهذه البساطة ، ثمة اجراءات عديدة حتى اذا ظهر الجواز الآن فوق هذه المنضدة •
يفتح الباب ، يلتفت ، يراه مغلقا ، سمع فتحه •• هذا مؤكد ، باب قديم ، ثقيل ، ملامح الرجل جامدة ، أوشك على سؤاله ، هل فتح الباب أم لا ؟ ، لكنه احجم ، خاصة عندما قال بتأن رسمى •
ـ نحتاج وقتا ، السفر ومغادرة المدينة اليوم الى أى جهة أمر مستحيل ••
ما طبيعة الاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة العثور على الجواز ؟
يجيب بلهجة رسمية ، محايدة ، انها مسئولية القسم ، المهم أن يتجه مباشرة الى ادارة الجامعة ، أن يستخرج منها خطابا رسميا يثبت انه كان مدعوا الى المهرجان أو الحفل كما يطلقون عليه •
هذا الخطاب سوف يثبت للشرطة أهم نقطة الآن ، شخصه الذى لا يعرفون عنه شيئا ••

عود غير مرغوب

الى من ؟

الى من يتجه بالضبط ؟

يمشي مسرعاً ، مقر الجامعة غير بعيد ، الى درجة ما ٠٠ يعرف الآن المعالم الرئيسية ، ما يرجوه ألا تتبدل ، الا تختفي ، الا تتغير مواقعها ، يعجب للخاطر ، لكنه يوقن الآن انه ما من شيء ثابت هنا ، ما من أمر مؤكد ٠

يبدأ عنده حذر ، وخشية ، أن يقع له ضرر أثناء عبور الطريق ، أن يفقد وعيه فجأة ، كيف يستدلون عليه ؟

يبتعد اذا حاذى أحد المارة ، يتجنب النظر الى العيون خوفاً من تحرش مفاجيء لا يدرى مداه ، يسعى عبر هامش غير مرئي يحيط به نفسه ٠ يتوقف لحظات ، ورقة بيضاء صغيرة يخرجها من حافظته ٠ لا يدرى مصدرها ، من الفندق أو الجامعة ؟ ، لا يهم ٠٠ ، يكتب سطورا معدودات ٠ اسمه ، وظيفته ، كيفية فقده الهوية ، عنوانه في القاهرة ، رجاء الاتصال بسفارة البلاد في العاصمة الاتحادية ٠

يضعها في جيبه ، يتذكر الاطفال الصغار ، الفقراء ، المتخلفين عقليا ، الحفاة ، فوق ثيابهم سطور بخطوط غليظة توضح الاسم والعنوان ، يهز رأسه تأسفاً وحسرة ، لكنه سرعان ما يخفي انفعالاته ، ربما لمحها من لا يعرفه فيفسرها بما لا يدريه ، ابواب الاحتمالات لا حصر لها الآن ، انه واثق من سماع صوت الباب في غرفة التحقيق الكابية ، كيف جرى ذلك ؟ ، ألم يحذره المغربي من عصابات المافيا ، تخصص بعضها في سرقة الجوازات لاستخدامها في أهداف شتى ٠ لكن أين هو ؟ لماذا أعطاه رقماً غير حقيقي ؟ ، هل قابله فعلا ؟

يبدو السور الخارجي فيشتد كمده ، لم يتوقع أمس العودة مرة أخرى ، وفي مثل هذا الظرف ، حتى الأمس كان ضيفاً يقابل بترحيب ، يصغى اليه اذا طلب ، يهتمون به اذا سعى ، الآن ٠٠ يخشى الفراغ المحيط به ، انه مجرد ، مكشوف ، مهدد بما يجهله ، بما لا يدرى كنهه ، عرضة للفقد النهائي ، بلا وسم ، بلا رسم ، اما اسمه فلا دلالة له ،

الحادية عشر •

ساعة وتحل لحظة مغادرته الفندق • حقيبته في الغرفة ، مهيأة ، مغلقة ، توحي لمن يراها بتأهبه ، مع اقترابه من مبنى الادارة يتهيأ للحظات محورية •

يبدو عسر الأمر منذ البداية •

عند البوابة الخارجية أوقفه الحرس الجامعي • ثمة خط فاصل بين الباب والطريق ، غير مسموح بتجاوزه رغم تراص البراميل الحمراء على جانبي الشارع حتى الناصية بما يعني تبعيته للجامعة ، لكن خروج الحرس الجامعي من البوابات في الزى الرسمي من الأمور التي لا يمكن التهاون فيها ، كذلك دخول شرطة البلدية الى الحرم الجامعي •

بعد جدل لم يستمر طويلا ، تساءل الحارس ، الضيوف رحلوا والمؤتمر انتهى •• لماذا بقي اذن ؟ كيف يتأكد من شخصه اذا لم يكن لديه ما يثبت شخصيته •

قبل الحارس دخوله الى الحجرة الخشبية المجاورة للباب • يتطلع الى الساعة ، القطار تحرك الآن ، فارق رصيف المحطة ، بطلت بطاقة العودة اذن •• البقاء محتوم ، كيف •• أين ؟

هذا مالا يدريه حتى الآن •

يدخل رجل مهيب ، يرتدى الزى العادى للجامعيين ، فوق العباءة شريط أحمر صغير ، يعني هذا انه من رجال الادارة • انه مسئول عن نشاط ما ، يبدو وكأنه يرتدى قناعا ، ملامحه الحقيقية مستترة ، اما استفساراته فأشد حدة من رجل الشرطة الذى استجوبه •

مرة أخرى ، روى كل التفاصيل •

سأل الجامعي عن أول خطوة قام بها عند اكتشافه فقدان الهوية ؟ ، الى من توجه ؟ من أبلغ ؟ ، اذن •• من دله على مقر القسم الخاص ؟ من استقبله هناك ؟ هل يمكن أن يصفه بدقة ؟ كيف عومل ؟ ما الأسئلة التى وجهت اليه ؟ •

أجاب بهدوء ، لم يبد اعتراضا ، لا بالملامح ولا بالنظر ، ولا بنغمات الصوت أو درجاته حتى !

يعود الى الاستفسار عن الشخص الذى وجه الأسئلة ، يطلب منه أن يتذكر بدقة ، هل كان يرتدى رباط عنق أم لا ؟ حاول أن يستعيد اللحظات ، بكل ذهنه ، لا يدرى ، لا يمكنه الجزم •

منذ أعوام بعيدة سخر أحد طلبته من سؤال أدرج في اختبارات

القبول المبدئي حول تمثال رمسيس الثاني ، أي قدم الى الامام ؟ اليمنى أو اليسرى ؟

رغم مروره اليومى بالميدان ، ورؤيته التمثال الا انه عجز تماما ، قال انه رآه بمخيلته متقدما باليمني ، ومرة باليسرى ، أكد الطالب أن اجابته الصحيحة كانت مصادفة •

لكن •• الآن فى المجازفة مخاطرة ، انه حريص على الاجابة بدقة مهما بلغت غرابة السؤال ، يؤكد الجامعى أهمية هذه النقطة بالذات ، ليحاول ••

يهز رأسه ، قامعا رغبته فى السؤال عن ضرورة مثل هذا الاستفسار السخيف ، يصمت ، بينما يستمر الرجل متوجها اليه بسؤال مباشر •

هل تربطه أى علاقة بأحد رجال البلدية ؟

ينفى •

هل تعرف الى أحدهم أثناء اقامته المحدودة هنا ؟

مؤكد أن ذلك لم يقع •

هنا يسدد سؤالا بلهجة محقق ، مدقق ، مستريب •

ـ اذن •• لماذا توجهت الى البلدية ؟

موظف الفندق ، سأل عما يجب أن يفعله ، نصحه وذكر الاجراءات المتبعة • يمط الجامعى شفتيه ، يقلب بين أصابعه قلما من طراز قديم ، يؤكد تعقد الآمر • يرتفع صوته فجأة محتدا ••

ـ من استضافك هنا فى هذه المدينة ؟

ـ الجامعة ••

يبسط يديه فى اشارة مبهمة

ـ اذن •• كان يجب ان تجىء الينا أولا ••

يوشك على تبرير وشرح ، لكن الرجل يرفع يده طالبا الكف ، الموقف تعقد الآن ، لا يوجد بين المسئولين الآن من يمكنه البت فى موضوع كهذا ، أو منحه تلك الورقة التى تطلبها شرطة البلدية •

يتمهل لحظات ، يرقق لهجته ، انه متفهم تماما للموقف الحرج ، لكن أهم شىء الآن ـ بعد أن اصبح الموقف بين يدى البلدية ـ الأوراق • ما يثبت شخصيته أمام الشرطة ، فى المطار ، ليس هنا فقط ، انما فى بلاده أيضا •

ـ راجعوا البطاقة التى أعدت لى هنا وعلقتها الى صدرى •• يقول ان جميع البطاقات التى تم جمعها أمس عقب انتهاء الحفل الختامى وضعت

في صندوق متين ، لن يفتح قبل مائة سنة ، لاعلان اسماء من حضروا وعرضها في لوحة خاصة ، كذلك وثائق الحفل كلها ، نقلت الى المخزن التاريخي ، تلك ترتيبات لا يمكن ايقافها أو تعطيلها أو المساس بها ، الأمر متصل بتقاليد أقدم من أي حضور هنا ، بشريا كان ، أو عمرانيا ، أو اجتماعيا • هناك محاولات قديمة ، قوية ، من جانب بعض الجهات لخرق التقاليد الجامعية بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو احداث أي تراجع •

البعض يتساءل ، وماذا لو تغير هذا الترتيب الضئيل ؟ ، لكن أقل تنازل سوف يؤدي الى ما هو أفدح ، بل ربما وصل الأمر الى نفي وجود الفلاسفة الأربعين •

ـ أنا لست في موقع يمكنني أن اعدك باجراء ما ••

يتطلع اليه بثبات ، يتخلى تقريبا عن لهجته شبه الرسمية •

ـ انني مدرك وضعك ، بل انني مشفق عليك ، انني الاحظك منذ وصولك وبداية مشاركتك ، حيرنا صمتك ، وانهماكك في رسم اشكال غامضة ، حيرت الآخرين حتى تهامس لبعض حول سلبيتك ، ثم فوجئوا بموقفك النهائي الذى حسم الموقف ، هذا كله آثار تساؤلات حولك ••

يلاحظ الآن أطياف شبه في ملامحه بموظف ـ أو ضابط ـ القسم الخاص ، طولهما متقارب ، نحافتهما متوازية ، ايقاع الكلمات ، حدة الأنف ، طريقة الكف عن الحديث فجأة •

يستعيد ما عرفه عن خصائص جثمانية تميز رجال الجامعة عن غيرهم ، من ذلك تثاقل حركتهم بعد سنوات معدودات من التدريس ، خاصة التمهل عند النطق ، ورفع أحد الحاجبين أحيانا ، أو هز الرأس أثناء الاصغاء ، وبعد تنصيب رئيس الجامعة وعمداء الكليات لا تظهر الابتسامة على وجوههم الا نادرا ، أما كبار المسئولين في البلدية فان احمرارا خفيفا يكسو وجوههم ، يتزايد مع الايغال في المناصب ، وطول المكث بها ، كما تظهر على معظمهم اعراض البدانة ، من بروز بطن ، وغلظ رقبة ، وظهور ثنيات بها ، وارتفاع صوت التنفس عند الحديث ، يؤكد الجميع انها علامات فارقة ، ولكن الشبه مؤكد بين هذا الرجل وموظف البلدية •

ـ في حالة العثور على أى اوراق تخصك ، لابد من اثبات العلاقة بين الكينونة المادية ، وتلك الأوراق ••

ان ضيقا يجثم عليه ، يقول ان سوء الحظ القى به هنا ، لو ان زميله لم يمرض لما جاء أصلا ، ولكن هذا أمر يخصه هو ، ما يجب مراعاته انه جاء ضيفا على الجامعة ، اذن .. هناك مسئولية أخلاقية وقانونية عنه حتى مغادرة المدينة حتى سفره من العاصمة ، لقد تكبد مشاق الرحلة رغم تضعضع صمته و ..

يقاطعه بحدة .

ـ الجامعة مسئولة عمن ؟

يقول باختصار

ـ عني ..

تتشابك أصابع يديه

ـ أنت من ؟

يردد بتأن اسمه الثلاثي ، مسبوقا باللقب العلمي ، متبوعا بالمركز الذي يحتله .

يخبط الرجل المائدة بقبضة يده ، تدنو ملامحه تماما من موظف البلدية ، بل ان الرائحة المنبعثة بالمجرة تعيد اليه فراغ المكان الآخر .

ـ اثبت لنا ذلك ..

ـ ماذا أثبت ؟

ـ انك انت من دعوناه ..

يتطلع مباغتا ، مفاجئا .. يؤكد الجامعي .

ـ نعم .. أثبت لنا أنك أنت .. أنت ..

تضعضعات يقينية

.. يخرج من البوابة ذاتها ، هل الأشجار في أماكنها ؟ ، هل ضاق الطريق الممتد ؟ ، البراميل الحمراء قائمة ، لكن المسافات الفاصلة أوسع ، ما من شيء يقيني هنا ، ربما ينظر الى بناء شاخص أمام عينيه ، يحيد عنه لحظات ، اذ يعاود الرؤية تتغير الموجودات .

يسأل نفسه معابثا .

« أحقا أنا .. أنا » ..

يمضي حذرا ، شاكا في أمره ، على خشية من ارتكاب خطأ ما يعرضه للاحتكاك بالآخرين ، انه في حاجة الى الهدوء ، الى الاتزان . الى المساعدة .. ، هل أدركه اليأس تماما من لقاء المغربي ؟ ، لماذا لا يبذل المحاولة ؟ ، الم يحدثه عن نفوذه في البلاد ؟ . يذكر ثقته البادية ، تراثه ، اركان بيته المدجج بالتحف ، مازال النهار في أوجه ، عليه الا يبدد أي لحظة ، اقتراب الليل يخيفه .

عندما نزل عاصمة بلاده شابا ، سعيا لطلب العلم ، منفردا عن الأهل ، سكن غرفة واحدة في الحي العتيق ، كان أفول الضوء وتواريه الهادىء يثير عنده حزنا غامضا ، البيوت متقاربة حتى ليمكنه سماع المتحدثين في الغرف المجاورة ، ومحاولات اشعال المواقد ، أو سقوط شيء ما فجأة ، اصطدام أوان ببعضها ، نداءات مجهولة ، الأصوات الأخيرة للنهار المبتعد . حرص في هذا الزمن البعيد ألا ينزل عليه الليل في غرفته الضيقة ، يخرج .. يلوذ بزحام الشارع القريب . يسعى منفردا ، لكنه مؤتنس بآخرين لا يعرفهم ، بحركة بيع وشراء لا صلة له بها ، وجمع في المقاهي لا يعرفهم ولا يعرفونه ، حتى اذا اكتمل الليل ،و أرتفع صوت القارىء يتلو قرآن الثامنة الذى يسبق نشرة الأخبار الرئيسية ، ينسحب راجعا الى مأواه ، مثقلا بالشجي ..

خوفه الآن أوعر ، ليل غريب مقبل ، لا علاقة به أو بمن يشملهم ، ينزل عليه وغربته مكتملة ، هويته مبددة ، يلتمس أدنى عون ، تعاوده خشية اغماء مفاجيء في الطريق او تمام الأجل ، يتخيل السطور التى ستذكر عثورهم على شخص بلا أوراق ، مجهول تماما ، كيف

سيتصرفون ؟ أي اجراءات تتخذ عندئذ ؟ ، يلح عليه حضور ابيه المندثر • عبثا يحاول استخلاص الملامح ، غمام كثيف يحجب عنه ما كان ، ما سعى يوما •

ما أوهى الصلة كما تبدو الآن !

لينتبه ، ليبذل المحاولة بحثا عن المغربى ، سيبدأ من الفندق ، يستنفر علامات رآها ، يتتبعها ، لكن •• هل يجدى هذا فى مدينه تتغير ثوابتها ، وتتبدل مبانيها ؟

ما من بديل •

لحظة وصوله الى الفندق لم يتجاوز المدخل ، يدير ظهره للبناء قديم الواجهة ، حديث المضمون ، يمضى باتجاه الميدان ، تماما كما اتجهت للسيارة التى أقلته • الأقواس لم يدركها تغيير بعد ، عند وصوله الى الميدان الفسيح ، أطال النظر الى البناء الضخم ، القديم ، الغامض ، مركز العمران ، الحد الفاصل بين القديم والجديد • فى موضع ما منه ، يجهله ، أوراق تحوى اسمه ، صفاته ، مالا يعلمه !

لابد أن موضوعه يبحث هنا الآن ، لا يدرى اذا كان فى لحظة معينة سيضطر الى ولوجه ، لكن •• من أين ؟ ، عند الضرورة سيتقدمه أو يتبعه أحدهم ، ربما عصبوا عينيه لحظة اجتياز أماكن محرمة على الغرباء ، لهم اجراءاتهم ، للجامعة تقاليدها ، للمدينة حركتها وأسرارها ، هذا كله محيط به ، محدق الآن ، عليه المحاولة والامتثال •

هل جرى تغيير ما ؟

صعب المقارنة ، لكن المؤكد ان لون الطلاء تغير الى حد ما ، طغى الأخضر على الأصفر الغامق ، أما الستائر فلا تدع مجالا للشك ، عندما رآها بصحبة المغربى كانت بيضاء ، انها بنية قاتمة الآن ، وماذا عن النوافذ ؟ ، القضبان الحديدية المتقاطعة كما هى ، لكن الزهرة المعدنية الصفراء لا وجود لها ، ثمة تغير فى الزوايا ، يتابع بحرص أثناء مشيه ، لا يتوقف ، يخشى اثارة الشبهات ، الاقتراب منه الى حد معين غير مسموح ، ربما تعرض لمتاعب لا يدرى كنهها اذا ارتكب خطأ ما بغير قصد ، خاصة هنا ، يتطلع حوله اثناء وقوفه عند الناصية المؤدية منتظرا توقف العربات •

العربة دارت به هنا حيث ترتفع الأرض قليلا ، يسدل جفنيه مطلا على الصور الداخلية المتبقية عنده ، نعم •• نعم ، مؤكد من هنا ، يمشى واثقا ، حريصا على ابداء الجدية ، والعزم على التوجه الى قصد محدد ،

مازال قريبا من المبنى المخيف ، الباعث على الرهبة ، بصمته باحجاره ، بنوافذه ، فى التسكع مخاطرة ، لكنه بعد حوالى عشرين خطوة يتوقف • امامه مباشرة الدرج الحجرى المؤدى الى مطعم المقانق ، لم يتوقع الوصول اليه • موقن انه قطع بصحبتها مسافة أطول بالسيارة ، كيف يصل اليه بسرعة ؟ ، يقوى حضور الباسقة غير المرئى، اسفرت عن رشاقتها هنا عندما تقدمته كراقصة باليه ، أين هى الآن ؟ الطريق الذى يطوى عند النظر اليه قريب •

يصعد السلم ، غير انه لا يؤدى الى المطعم ، ينتهى الى حديقة معلقة ، حشائش مبسوطة ، وشجيرات لم يرها من قبل ، يتوقف ، الم ير المطعم منذ لحظات ؟ • انه واثق ، لا يشك أبدا •

لا •• انه يبدد وقته ، الحديقة مباغتة له ، الوقت يمر بسرعة ، لم يحدثه عنه أحد من عمل الفلاسفة الأربعين ، لا يستبعد الآن أى أمر ، أى طارىء •

كلما تطلع الى ساعة معصمه ، الى اخرى عامة ، أو فى واجهة بيت ، يخطر له : المفروض الآن اقتراب القطار من منتصف المسافة ، من العاصمة ، الطائرة فى الأعالى الآن ، تقلع من القاهرة صباحا ، وترجع ليلا ، تطير بدونه ، سيبقى مقعده خاليا ، أو يحتله أحد المدرجين على قائمة الانتظار ، ها هو يضرب فى المدينة مرغما ، يجتاز شارعا بعد شارع ، وطريقا اثر طريق ، لكم يشعر أنه قصى ، بعيد ، ينظر الى الواجهات القديمة التى تخفى تكوينات حديثة ، لكل شىء ظاهر وباطن ، فى لحظة معينة يتحول ، يتغير ، يتموه ، يخشى أن يضل ، يشرع فى العودة الى الفندق ، بالتأكيد ثمة من يتفحص وضعه الآن ، بعضهم يهتم بأمره وان لم يبد ذلك ، قبل مفارقته الجامعة هدد الرجل الذى حاوره بالإضراب عن الطعام علنا أمام الجامعة ، لم يبد عليه أى تأثر بما سمعه ، لكنه قال بهدوء : ليس هذا من سلوك أهل العلم •

بدت لهجته مغايرة ، غير انه تركه يذهب ، لو استطاع الوصول الى هذا المغربى •

يدخل مقصورة عامة للهاتف ، الحامل المعدنى ، ثلاثة أجزاء متوسطة ، كل منها مغطى باعلانات ملونة عن متاجر ومطاعم ، يلفت نظره أن الدليل يحوى قسما منفصلا لأرقام تليفونات الجامعة ، ليس الادارات والكليات فقط ، انما منازل الاساتذة والعاملين ، كل من له صلة ، الترتيب يوحى كأن الجامعة فى مكان آخر ، الأرقام الاولى

متشابهة حتى مع اختلاف مواقع سكنى هيئة التدريس ، هكذا بمجرد أن يبدأ أحدهم فى املاء رقمه حتى يكشف عن هويته ، اسماء الجامعة بالتحديد طبعت بحجم أصغر ، البلدية تدير مركز الاتصالات المكون من عدة دوائر •

يقلب الصفحات متمهلا ، متأنيا ، يدقق ، لكن ما من اسم له ملامح عربية ، كيف لم يستفسره عن اسمه ، صحبه وقتا ، جلس اليه فى بيته ، كيف ؟ ، هو لم يطلعه ، وفى خطابه الأول خط سطرين وقعهما — صديقك المغربى — ، لكن •• ربما ذكر اسمه ولم ينتبه ، هل نسيه بتأثير النبيذ ؟

لا يدرى •• ما من وضوح ، ما من ثبات ، ما من يقين عنده بصحة ذلك ، يفارق مقصورة الهاتف نادما على ما انفقه من وقت فى البحث ، محاولة فاشلة ، ضيع وقتا ثمينا كان يجب أن يقضيه فيما هو أجدى ، لكن ما الأجدى فى حال كهذا ؟

فى مواجهته تقوم مجموعة من المبانى الحديثة وان احتفظت بالخطوط القديمة ، لا تنافر بينها وبين العمارات الأخرى ذات الاقواس ، انها خالية تماما من السكان ، سنوات عديدة لم يقربها أحد ، كثرت الاقاويل حولها ، ثمة من يقول انها تستخدم فى رصد ما يجرى داخل الجامعة ، خاصة انها تشرف على المنطقة المحددة بالبراميل الحمراء ، لكن يرد آخرون ، ما حاجة البلدية الى هذه الوسيلة البدائية من التجسس ، وهناك من البدائل المتاحة ما يفوق الحصر ، الحقيقة انهم شيدوا المبانى فى زمن الاسعار الرخيصة ، ويبقونها خالية لبيعها بعد تضاعف قيمتها ، ذمم المسئولين فى البلدية خربة ، انهم يحصلون على عمولة معينة مقابل السماح بدفن الميت • يؤكد آخرون ان بعض كبار المسئولين بنوا هذه العمارات • وخصصوا شققها لابنائهم الذين مازالوا صغارا ، وللأحفاد المحتمل مجيئهم • يحدث هذا بينما أزمة الاسكان فى تزايد مستمر ، ويسوء الوضع جدا فى الحى الصينى • هذه العمارات محور أزمة مستمرة مكتومة مع السلطات الاتحادية ، ولكن الوضع باق على ما هو عليه ، يلاحظ ارتفاع المبانى القديمة المجاورة •

هل تتغير الارتفاعات ليلا ؟ ، هل تعود أقصر مع ضوء النهار ؟

لم يعد يدهشه شىء ، يقولون انه بعد نزول العتمة تمتد طرق جديدة ، تتوارى مع انبلاج الصبح ، تتبدل ميادين ، وتنشأ احياء

باكملها • فى يوم معين من كل سنة ، فى نوفمبر ، يلتزم أهالى المدينة الصمت ، حتى الجامعيون بمن فيهم الغرباء الذين جاءوا من بلاد قصية للدراسة ، منذ الفجر وحتى منتصف الليـل يكف الجميع عن النظر ، لا تتحرك عربات ، ولا يفتح مذياع ، ولا يستجيب مخلوق لرنة هاتف ، أو صفير جهاز لاسلكى ، لا يسمح للطائرات بعبور المجال الجوى ، كما ينهر الاطفال الصغار بشدة اذا عاطوا أو صـاحوا ينتظر الجميع تردد أصوات الموتى ، فى الشوارع ، عنـد مداخل البيـوت ، فى الحجرات المغلقة ، فى المتاجر ، المقاهى ، الحانات ، الاسواق ، من الآبار والسواقى التى جفت ، من جذوع الأشجار وأغصانها ، من حيث لا يتوقع الانسان يمكن أن يصغى الى صوت حبيب رحل ، أو صاحب ، أو جد سمع عنه ولم يدركه ، أو مجهولين لا يعرفهم أحد • بينما ينكمش آخرون خوفا من تردد أسرار ظن الجميع انطواءها ، أما الجامعيون فيسـتنفرون قواهم لرصد الأصوات القديمة والتى ينطق بعضها بلغـات لم تعد متداولة ، على أمل التقاط حوار دار يوما ، أو جزءا من مناقشـة ، أو خطـة أثناء اعدادها ، أو خطبة ما ، ربما سـاعد ذلك فى كشف اسرار التـاريخ الأقصى ، وأهمها موقع مقبرة كبير الفلاسفة •

ان المحاولات لا تتوقف منذ قرون عديدة ، من الجامعة ، من البلدية، من الامن الاتحادى ، الرئاسى ، الخاص ، الفرعى ، صـباح اليوم التالى يسعى رجال البلدية جاهدين لمعرفة ما توصـل اليه الجـامعيون أثناء اصغائهم الى الموتى ، جهات شتى تسعى ، بعض الأفراد •

تذكر المدينة هذا البحار الفنزويلى الذى ورث ثروة كبيرة ، وانتقل الى الحى الصينى ، اتخذه مقرا ، حصـل على اذن من البلدية بعـد دفعه رشاوى وهـدايا طائلة ، منها عصـا مارشـالية صـنعت من الياقوت الخالص ، تستقر الآن فى احدى خزائن بنوك سويسرا ، حيث اخفاها رئيس البلدية السابق ضمن ثروته التى تمكن من تهريبهـا ، ثم مات قبل أن يخبر أحد ابنائه برقم حسـابه السرى ، ان اسرته كلها تجتمـع وتصغى يوم الموتى باكمله لعل وعسى • اما البحار الفنزويلى فانفق آخر قرش يمتلكه على تكاليف ما قام به من جهـود وحفـائر ، أصـبح مادة مثيرة للسخرية فى الصـحافة المحلية وأحيـانا الاتحادية ، لم يفارق المدينة ، يشاهد أحيانا ساعيا فى طرقاتها ، لا يدرى أحد مقر اقامته •

ضريح كبير الفلاسفة •

مطمح الكل ، وغايتهم ، لو امـكنه الوصـول اليه ، كل المراجع ،

جميع الاشارات تؤكد انه مطمور في مكان ما ، بمـا يحـويه من أسرار مكتوبة تحوى علوما جمة من معـارف الأقدمين ، ومجـوهرات وتحف وذخائر ، ولفافات بردى تحوى علوما جمة من معارف الأقدمين ، تفسر الكثير مما يجرى الآن ، وما يحدث من ظواهر في المدينة ، كل مقـابر الفلاسفة الآخرين اكتشفت ونهبت في قرون شتى عدا ضريح رئيسهم ٠

يسرع الخطى ، لـكن ٠٠ في غير هـرولة ، حتى لا يلفت أنظـار الآخرين ، وان بدا كل منهم مشغولا بذاته ، منقطعا عن الأخرين ، غير انه عند تأهبه لاجتياز شارع عريض يؤدى الى ميدان صـغير تتوسطه نافورة مياه قديمة ، اطال النظر وحد البصر الى لافتة معلقة فوق بنـاء مواجه ٠

ثلاثة طوابق ، واجهة دقيقة الخطوط ، منمنمة النقوش ، لها لون الحلوى المسوسة بالفســتق ، كيف لم ينتبه الى البنـاء ، لم يحـدثه المغربى عنه ، ولا الباسقة ٠

« فندق العربى » ٠٠

هكذا ، فى مركز المدينة وهو لا يدرى ٠

يفسح الخطى ، يتقدم ٠٠ لا يخشى شبهة ٠

مربط الفرس ..

.. هذا مبنى قديم بقي على حاله ، لم يلحقه الا تغيير طفيف ، عمره حوالي سبعة قرون ، الشيء كمحط لخيول البريد ، وفندق لرجاله والتجار والمسافرين العابرين ، والرحالة ، والاغراب ، ثم مات آخر مالك له في بداية القرن التاسع عشر ، أهمل شـأنه ، وبان الخراب عليه ، دبت فيه الهوام والجرذان ، كما نهبت محتوياته ، منذ سبعين عاما أبرز أحد رجال البلديه أمام القاضي الفرعي وثيقة تؤكد انحداره من أسرة آخر الملاك ، أظهر أوراقا قديمة ، بها توقيعات شتى ، بعضها واضح والآخر باهت ، أظهر حججا مكتوبة على جلد غزال ، وأوراقا مصنوعة من كتان ، ورسالة ممهورة بطرة عثمانية ، وأخرى مدموغة بختم بابوى ، وثالثة مكتوبة بلغة مندثرة ، غير منطوقة الآن .

اقتنعت المحكمة فاصدرت حكما نهائيا بتمكينه فوضع يده على المبنى وثبت ، بسرعة بدأ العمل ، أنفق اموالا جمة على التنظيف ، وإزالة المخلفات ، والاعداد ، والفرش ، وخلال سنوات قليلة أصبح من أشهر فنادق البلاد ، وأغلاها ، تميز بمطعم يقدم الوجبات الشرقية المعدة جيدا

نزل به مشاهير واثرياء وسياسيون وكتاب حصلوا على جوائز عالمية ، كما اقام به الفيلد مارشال مونتوجمرى أثناء عودته الى بلاده بعد انتصاره فى معركة العلمين ، وتفصيل ذلك يطول . منذ سبعة وعشرين عاما نزل البلاد أمير عربي ، ومجيء اثرياء الدنيا الى العاصمة الاتحادية او الى الشواطيء الشمالية أمر معتاد ، لقضاء الاجازات ، أو لعقد صفقات ، أو للقيام بمهام سياسية ، لكن وصول هذا الأمير بدا مختلفا ، اذ طالت مدته ، واشتهر أمره بعد استئجاره طابقين كاملين فى أعرق فنادق العاصمة ، كان ايجارهما لمدة شهرين يكفى لشرائه بيت من طابقين أو ثلاثة تحيطه حديقة ، لكنه لم يقدم ولم يعرف أحد سبب ذلك .

كانت تصحبه حاشية قيل ان عددها مائة وأربعون شخصا ، وزعم آخرون انها تتجاوز المائتين ، افراد عائلته ، وحرسه الخاص ، والقائمون على ادارة اعماله ، والطباخون ، والسعاة ، وسائقو العربات ،

وشخصيات لا تعرف طبيعة عملهم بالضبط ، منهم ثلاثة أو أربعة يقفون عاقدين ايديهم ، متطلعين اليه ، وسكرتيرة انجليزية شابة ، ذات بهاء خاص ، ويقال انه تعلق بها ، ولزمها لجمالها ، ولخاصية غريبة لم تعرف لدى أي امرأة عداها ، ذلك أنها ترتد بكرا بعد كل مضاجعة !

تنقل في الولايات حتى نزل المدينة ، ويبدو أن هواءها ناسب أحواله الصحية ، اذ نصحه الاطباء المرافقين باتخاذها مقرا لاقامته ، ولم يعرف السبب بالضبط .. ، المهم .. وصل الى المدينة في يوم مشهود ، خرج فيه الناس وطلبة الجامعة واساتذتها للفرجة على طرز السيارات الحديثة ، الفارهة ، المزود بعضها بأجهزة تليفزيون وهواتف بعيدة المدى ، ودورات مياه ، ونظم دفاع ذاتية ، ثم تخصيص الشارع الجانبي غرب الفندق لوقوفها ، مقابل رسوم ضخمة تدفع الى البلدية ، لكن الناس تحدثوا عن مبالغ طائلة تقاضاها بعض المسئولين عن الادارات ، وهدايا من احجار كريمة ، وساعات صنعت كلها من الماس ، ومعاطف من فراء المنك ، والسمور ، وسيارات تتجدد في المناسبات المختلفة ، من هنا زادت الاعياد التي تحتفل بها البلدية بعد وصول الامير وبدء اقامته ، كما تكرر الاعلان عن مرض عمدة المدينة أو بعض مساعديه ثم شفائهم بعد أيام قلائل ، وفي رسالة أعدها استاذ مادة الاحصاء توصل الى انهم يمرضون بشكل دوري ، ويتناوبون مناسباتهم السعيدة ، حتى ان احدهم احتفل بعيد ميلاد ابنته الوحيدة ثلاث مرات في سنة واحدة ، اقامة الامير طالت الجامعة أيضا ، لكن في شكل هبات علنية ، أعلنت الصحف عن تبرع الامير بمليون دولار كاملة لتجديد بعض المنشآت الجامعية ، كما تبرع بمائة الف لصالح جمعية مرضى الصدر التي تشرف عليها ادارة المستشفى الجامعي ، وعشرين الفا لترميم البرج وصيانته ، وعشرين اخرى لتمويل الأبحاث الخاصة بالكشف عن أسراره ، وعشرة آلاف لدعم اعمال لجنة البحث عن قبر كبير الفلاسفة .

هذا ما أعلن عنه ، وما نمى الى علم الناس .

استاجر الفندق كله ، علقت الادارة لافتة كتب عليها « مغلق للخدمة الخاصة » ، لم يعد مقصدا لأحد بسبب الرد الثابت الذي كان يتردد عن الهاتف ، « نأسف الحجرات كلها مشغولة » ، توقفت شركات السياحة عن التعامل معه .

في الاسابيع الاولى كان المارة يتطلعون الى النوافذ المغلقة دائما ، أي تغيير ولو طفيفا يتناقله الكثيرون ، كظهور شخص ما في احدى

الشرفات ، أو ظهور بعض قطع الثياب منشورة في الهواء أمام النوافذ ، أو وصول عربات نقل تحمل صناديق مغلقة ، كتب عليها اسم الأمير ٠

عرف الجميع انه على خلاف مع اشقائه ، وأن ثمة خلافا جرى ، تدخل كبار السن رأوا ضرورة مغادرته البلد مع احتفاظه بجميع حقوقه وأنصبته المادية في العائدات الهائلة ، والحق انه تلقاها بانتظام مما أثار انتعاشا في فرع البنك الاتحادي بالمدينة ، ودفع المسئولين عنه الى التدخل لدى الجهات الأمنية لردع بعض الجماعات المتطرفة التي قررت تنظيم مظاهرة احتجاجية ضد اقامة الأمير ، ومظاهر الثراء الإستفزازية ، ولكن ٠٠ لم يقع ذلك ٠

حتى الآن ، لم ير أهل المدينة وجه الامير ، أو أحد ابنائه ، أو حريمه ، ولا الانجليزية التي ترتد بكرا بعد كل مجامعة ٠ كان المارة يتطلعون الى الطوابق الثلاثة ، المعروف انه مقيم في الأخير ، « يقال انه أحضر أغطية ومفروشات خاصة به ، وأطقم طعام ومقعدا خاصا لجلوسه ٠ أما رياضة المشي اليومي المقررة من الأطباء فيمارسها مطلع كل نهار في الحديقة الخلفية ، تم تعلية أسوارها وبث خوازيق مدببة ، وزجاج مشطوف وسلك كهربائي لاعاقة أي محاولة للتسلق ، يمشي في ممراتها جيئة وذهابا محاطا بحراسة الألمان الاشداء ٠

لم يتحدث احد من العاملين علانية عنه ، حتى بعد مرور سنوات عديدة على اقامته ، لم يدل أي منهم بتفصيلة ولو ضئيلة ، رغم محاولات واغراءات الصحافة المحلية ، والاتحادية ، وعندما اختلف أحد الطباخين مع ادارة الفندق تردد انه سينشر مذكراته ، لكنها لم تطبع قط ٠

المؤكد ان الاقســـــــام المختصة في البلدية تعلم كل شيء ، حتى محتويات الصناديق المغلقة التي تصل بشكل منتظم ، بعكس ما يخص البيئة التعليمية الامريكية التي لم يسمح بدخولها ، أو الاطلاع على محتويات عربات النقل الضخمة التي تصل من الميناء أو البلدان المجاورة مباشرة بدون أن يعترضها أحد ، حتى رجال الأمن الاتحادي ٠

حدث أن سرت اشاعات تقول بوفاة الأمير منذ عدة سنوات ، وأن جثمانه أرسل سرا الى بلاده ، اما المقيمون فما هم الا ابناؤه واحفاده الذين لا يقدرون على العودة لخلافات ورثوها ، لكن ثبت عدم صحة ذلك ٠

اذ قام الأمير بزيارة عمدة المدينة ، ورئيس الجامعة في يومين متعاقبين ، بعد منحه لقب المواطنة الشرفية لمرور ربع قرن وقتئذ على

مكتبه . وان كان هذا لا يعني منحه الجنسية الاتحادية .

مرة واحدة خرج الى مكان عام . بعض المصريين يؤرخ بها . يقولون مثلا . قبل ذهاب الامير . أو : بعد خروج الامير . ذلك أن احد رجاله مضى الى مقهى البوابات السبع . وانفرد بصاحبه . طلب منه اخلاء المكان كله ليلا . وان تعويضا مجزيا سوف يدفع له .

قبل السابعة وصل ثلاثة من الحرس الخاص . تفقدوا المقهى . مخارجه . ومداخله . وفحصوا اجهزة الموسيقى . واعداد المشروبات . والمأكولات الخفيفة . ثم بقوا حتى قدوم سموه . استقل العربة الرمادية . عتيقة الطراز . عرف الجميع انها تخصه . وان ثمة علاقة حميمة تربطه بها لاسباب لم يعرفها أحد .

جلس بمفرده في الشرفة المطلة على الصهريج السابع . وقف رجال أربعة على بعد قليل منه . حدق طويلا الى الفراغ . عدل غطاء رأسه مرة . أومأ مرتين . اذار ابهامي يديه حول بعضهما عندما احاط مقدمة ركبتيه أثناء تراجعه الى الخلف .

قام فجأة وعلى وجهه شجى دفين . ركب عربته ولم يره انسان بعد ذلك في مكان عام . وجوده أصبح معتادا . بل أن كثيرين نسوا أمره . أبطل معظمهم التطلع الى النوافذ والستائر المسدلة عند مرورهم . غير أن آخرين لم يكفوا عن ابداء الفضول .

رسميا .. احتفظ الفندق بالاسم القديم . « مربط الفرس » . لكن الناس عرفوه بفندق العربي . دخل الحوار اليومي عند وصف الطرق وذكر العلامات الدالة . وفي العام الأخير علقت لافتة عريضة تحمل الاسم الشائع بين الخلق .

أحيانا يرى المارة رجالا نحافا . طوال القامة . اشداء . يرتدون سترات ياقوتية غامقة . وسراويل واسعة . وأحذية جلدية لامعة . يقفون بجوار العربات المصطفة . يديرون محركاتها للتسخين . يتفقدونها . معظمها باق في مواضع الانتظار منذ قدوم الأمير . وان تغير بعضها أثر ظهور طراز جديد . الزجاج كله معتم . لا يمكن رؤية الداخل . فوق كل سيارة هوائي هاتف . وثان للمذياع . وثالث للتليفزيون . وآخر لا يعرف أحد وظيفته . يحل جديد مكان القديم . يستمر الانتظار الذى بدأ منذ سبع وعشرين سنة . الشباب من طلبة الجامعة وأهالي المدينة يقفون على مسافة للفرجة على العربات الحديثة

يتأملون ، يقارنون بما اطلعوا عليه من صور فى الصحف ، والاعلانات المرئية ٠

الاقتراب ممنوع ٠٠

يقف حارس من القسم الخاص ، يتبدل ثلاث مرات ، يمنع الفضوليين والمتسكعين وأرباب المقاصد ، وذوى النوايا ٠ أما دخول الفندق فمستحيل بالنسبة للغرباء ، فقط ٠٠ يسمح لأصحاب العلاقة ٠

مجـــريـــات ..

.. ما من دثار .
ما من ستر ، أو سقف واق ، ما من حين يضم ، يصـون ويلملم ، انما انفراط وتذرية ، وديمومة فقد ، وقع التحول والتبدل لما عاش زمنا موقنا استحالة تغيره ، حل وقت المنعطفات والنتـوءات المفاجئة ، كل ما يحيد بالخطة ، ويخترق السياق .

كثيرا ما رأى فى مناماته دخوله مسجدا ، وعند فراغه من الصلاة يكتشف فقد حذائه ، يقف حائرا ، وجلا ، يتطلع الى القـوم خلسـة ، كيف سيطأ الطريق حافيا ؟ ، كيف سيسعى مجردا ، منقطعـا عن كل عـون ؟

قبيل مفارقته موطنه ، قبل اقلاعه من وقته ، لو أطلع على رؤيا فيها مجرد اشارة الى بعض ممـا يمر به الآن لسـخر من ذاته ، لردد قائلا « اضغاث احلام » .

كانت أمه فى الزمن الأقل ، المكتمل تقول اذ يواجهها ضيق ، « أين انتظرنى هذا كله ؟ » .

أين ؟

نوافذ مغلقة ، أبواب موصدة ، ستائر مسـدلة لا تشى ، طرقات لا تفصح عن أسرار قديمة ، اشارات غير دالة ، تقصيه ولا تدنيه ، اما الاضواء الخافتة ، وذبذباتها غير المرئية ، فتضنيه ، تكده ، كذا مداخل البيوت العريضة ، بقايا ظلال ، مواضع لا تصلها الشمـس ، توحى بالكنـة ، بالدفء ، بالدعة ، غير أنه لا يبلغهـا ، كل لحظـة .. منفى يتجدد ويلوح .

بمجرد عبوره الطريق الى الفندق اعترضه الحارس الواقف قرب العربات ، المنتظرة منذ سنوات . قال ان الفرجة من بعيد ، فلما أبدى دهشة ، وأطلع الجندى على غرضه ، اطال النظر اليه ، قال :

ــ أنت غريب ؟

ثم قال كأنه يردد أمرا يعرفه الكافة : هذا المدخل لم يقترب منـه انسان منذ زمن طويل الا فى ثلاثة أحوال ، أن يكون من طاقم الخدمة ،

او من الحاشية ، أو ضيفا من رجال البلدية ، اما اذا كان جامعيا فلابد من حصوله على تصريح من القسم الخاص ، لابد من اخطار مسبق باسمه وأوصافه معتمد من السكرتيرة الانجليزية للأمير ، وهذا لا يحدث الا نادرا .

أومأ محييا الحارس الذي بدا مرحا ، يمر بنشوة غامضة ، مضى مبتعدا وعنده خشية أن يلحق به طالبا منه الاطلاع على ما يثبت هويته ، يمشي متئدا ، متقلا .

هل يمشي وراءه أحد ؟

هل يتعقبه شخص ما ؟

اذا صح ذلك ، الى أي جهة ينتمي ؟

قالوا له ان العارف باحوال المدينة المدقق يمكنه أن يميز ملامح الوجوه ، بيسر يتبين له رجل البلدية من الجامعي .

قال الاستاذ الافريقي همسا ان رجال البلدية واساتذة الجامعة ، يجتمعون ويتزاورون سرا ، وما يقال عن صراعات انما أمور مدبرة لاغراض خفية لا يعلمها أحد .

لا .. لن يلتفت خلفه حتي لا يثير شبهة .

شبهة ؟

شبهة من ؟

الليل شاسع ، المدى بلا حد ، الأمر بلا سقاف ، تفد اليه أجزاء من مدن نائية ، جاس خلالها ، أمضى أوقاتا ، هل سيبلغها مرة أخرى ؟ ، كل من أقلع أمس عاد الى دياره ، الافريقي في موطنه الآن ، كافة من جاءوا ، عادوا ، يتدثرون بحيواتهم عداه !

لكنه مازال يسعى ، قادرا على المواجهة ، تبدو البنايات بعيدة ، متفرقة ، بعد أن كانت متجاورة ، مضمومة ، الشوارع في الليل منقطعة عن بعضها البعض الأقواس الحجرية معلقة ، غير متصلة ، في النهار تضفي على الطابع بعدا طقوسيا ، يستعيد قناطر شتى عبرها في حياته ، قنطرة حجرية مشى فوقها طفلا ممسكا يد ابيه ، تغمرها رائحة تين عسلية ، أخرى وطئها في شبابه عند سفره الى بلدة نسي ملامحها وموقعها ومخارجها والمداخل المؤدية اليها ، يجتاز احدى البوابات السبع .

فكرة تومض فجأة ، كيف لم ينتبه اليها من قبل ؟

عند استعادته مواقع البوابات فوق الخريطة ، عند تذكره تفاصيلها

المعمارية ، كل منها تواجه الأخرى رغم تباعد المسافات ، لو امتدت خطوط مستقيمة تتقاطع عند موضع محدد . بالضبط .. قرب البرج .
اذن .. هل يستقر ضريح كبير الفلاسفة هنا ؟
هل يمكن هذا ؟
الضريح في باطن الأرض ، اما البرج الماثل فمجرد شاهد هائل الارتفاع فوقه ، لم لا ؟
حدس ، تخمين ، استنتاج ، شبهة يقين ، من أي مصدر واتته تلك الاشراقة المباغتة ، تفسير يدفق عنده طاقة ويبدد وحشة قصوى ، اذا حلت مشكلة ، يعلنهم بما فكر فيه ، يدعوهم الى بدء البحث .
لكن هذا يستدعي اليقين ، والأمر واهن هنا ، يقولون ان الوصول الى الحصن المشيد يصير مستحيلا في أيام معينة من السنة ، فكلما اتجه اليه من يقصده مسافة يتراجع بنفس القدر ، لم يعاين ذلك ، فهل سيراه ؟
هل ستطول مدته حتى يطلع على ذلك ؟
الأمر صعب !
يعبر مدخل الفندق الذي خشي أن يضل طريقه اليه ، يتجه الى موظف الاستقبال . انه الشاب الذي ابلغه ليلة أمس بفقد الجواز ، يقدم اليه البطاقة الصغيرة التي يسلمها مقابل المفتاح ، مدون عليها رقم الغرفة ، يفاجأ بلهجة الموظف الحيادية ، غير المعنية .
ـ اقامتك انتهت يا سيدي ..
أي جديد مختبيء ؟ ، أي كامن لم يسفر بعد ؟ ، لم يعد واثقا من عبور لحظتين متتاليتين في ذات الحال .
ـ أخبروني في الجامعة انهم مدوا اقامتي يومين ..
يتطلع اليه مرة أخرى ، كأنه يعيد اكتشاف متسوله أمامه ، ينظر الى لوحة الحاسب الآلي ، يضغط مفاتيح عديدة .
ـ صحيح .. من فضلك .. جواز سفرك ..
ـ الا تعرف انه مفقود ؟ أنت أول من ابلغته أمس ..
ـ صحيح .. صحيح .. الا يوجد خطاب من الادارة ؟؟
يهز رأسه نفيا ، يشير الى أعلى .
ـ انا مقيم ، وبيانات هويتي مدونة وحقيبتي في الغرفة ..
يقول ان هذا كله صحيح ، لكن المدة الأولى انتهت ظهر اليوم ، لو اتصلت ادارة الجامعة قبل الثانية عشرة لأعتبر ذلك مدا ، لكنهم

اخطروهم بعد الواحدة والنصف ، بعد انتهاء اقامته طبقا لقوانين البلدية وتعليماتها الصارمة ٠

ــ الآن ٠٠ لابد من تدوين البيانات من جديد ، يعني لابد من الاطلاع على الهوية ٠٠

لا يدري ٠٠ هل حاول قمع ضيقه ، تهدئة انفعاله ؟ أم أن هدوا بداخله أدى الى اقترابه ، الى ميله قليلا ، الى تضييق الفراغ الفاصل ، الى نطقه راجيا ، طالبا العون والمساعدة ٠

انه يرجوه بشكل خاص ، يعرف محنته ، هو أول من اطلع عليها . النهار كله يبذل الجهد ، ثمة بحث جدي يجري الآن بلا شك ، الجامعة والبلدية أحيطا علما ، انه متقدم في السن ، معطوب الشرايين ، فليساعده الليلة فقط ، وغدا تنجلي الأمور ٠٠

ــ هل تقبل أن أسجن ؟

ــ لا ٠٠

يشير الى الخارج

ــ على الجامعة أن تساعدك ٠٠

يطلب حقيبته ، يقول الموظف انها في الامانات . لكن تسليمها اليه صعب ٠

ــ الهوية ٠٠ ما يثبت انك أنت ٠٠

تلك لحظات فارقة ، أيقن من استعادتها مرارا فيما بعد ، هل سيقدر له حكيها لاصحابه في موطنه ؟

يخرج الى ليل آليل بمفرده ، خلوا من كل عون ، مفتقدا الوجهة والقصد ، ما يدهشه صفاء مفاجىء يحل به ، لا يذكر من القائل : عند اكتمال الشوط يستعصى الدمع ، والا ٠٠ هل رأى احد محتضرا يبكي ؟

مع تبادل الخطى يرحل من صورة الى أخرى ، من فكرة الى فكرة ، يستعيد تجواله في مدينته القصية ، الآن توشك سبله أن تنقطع عن مصادرها . قصابه تنبت عن ينابيعها ، يتشظى وقته الآفل ، أيامه الاسرية التي لم تدم طويلا ، خلوة ليلية ، جلسة حميمة ، اكتمال ألفة ومودة ٠ يستعيد ما أتم كينونته يوما ، يرى ما لم يبصره في حينه ، تفد عليه دهشة بكر لا يعرفها الا اطفال مازالوا بعد في مفتتح المواصلة ، كل ما ينطبع في افئدتهم مثير للعجب كأنه يكتشف البديهيات من جديد ، مع كل شهيق يفض بريدا من الوجد والشجى ٠

يقوى حضور البعد على القرب . يطغى ما لا وجود له على ما يمكنه

لسه ، يمشي متئدا ، مثقلا بهبوب الحنين وعرا الى مدينته ، الى حضورها الآن اول الليل ، نواصـيها ، مبانيهـا ، شـوارعها ، مقاهيها ، ساعات النهار الأولى ، اكتمال المودات ، حميمية الصحبة ، ضحاها ، أصيلها ، ازمنتها الخريفية ، انبثاق مآذنها ، تفتح ازاهير أشجارها ، توزع عمره عليها ، ضوء نجومها ، تردد أحلامه فيها ، انبثاق أيامه في دروبها وعند منعطفاتها ، حواريها ، ميادينها ، افقهـا البـادي من أعلى ، شـب فيها وغض ، وحماه السعي فيها من نوبات القتامة فمن يصله بها الآن .. من ؟ ..

روايات الهلال تقدم :

الرواية الفائزة بجائزة فيميتا
(الأدب النسائي عام ١٩٨٩)

أيام الغضب

تأليف :

سليڤى چرمان

ترجمة :

محمد عبد المنعم جلال

تصدر : ١٥ يناير سنة ١٩٩١



جمال الغيطانى

○ ولد فى مدينة القاهرة عام ١٩٤٧

○ ارتبط اسمه بمزج التراث العربى الاسلامى منذ مجموعته القصصية الأولى أوراق شاب عاش منذ الف عام ..

○ قدم للمكتبة مجموعة كبيرة من الروايات والقصص القصيرة من أهمها "التجليات" "الزيني بركات" ، "حارة الزعفراني" .. وغيرها ..

○ نشرت له "روايات الهلال" مجموعة من الاعمال منها "رسالة البصائر فى المصائر" و "رسالة فى الصبابة والوجد" .

○ حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٨٠ .

هـذه الـروايـة

هذه الرواية محاضرة .

فهى أشبه بركوب غمامة كثيفة تبحر فى الخط الفاصل بين الواقع والحلم ، لتنتهى الى ثقل دلالي جاسم ، يضغط على الدماغ بشدة .

وتشارك هذه الرواية ، كما يكتب د . يوسف زيدان ، بقية اعمال الروائى جمال الغيطانى فى علو اللفظة ، وعمق الفكرة ، ثم تنفرد ببنية جديدة ، وعالم من الرؤى المركزة ، بحيث توضع فى كهف خاص من الابداع الروائى ، بعيدا عن الانماط التقليدية لفن القص وبعيدا عن مسار الأعمال السابقة لمؤلفها التى ترجمت الى لغات عديدة .. ومن هنا نفهم العنوان ! "شطح المدينة" .. فالشطح فى اللغة والاصطلاح يعنى الذهاب الى مكان بعيد .

ترى الى أى شطح يذهب بنا جمال الغيطانى فى هذه الرواية ، وما حدود مسافات الشطح التى أستطاع أن يتوغل فى اعماقها ؟

الاجابات فى هذه الرواية التى تعتبر احدى وثائق الرواية العربية المعاصرة .

رقم الايداع : ٨٩٢٦/١٩٩٠
I.S.B.N
977-07-0037-1

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
0449621